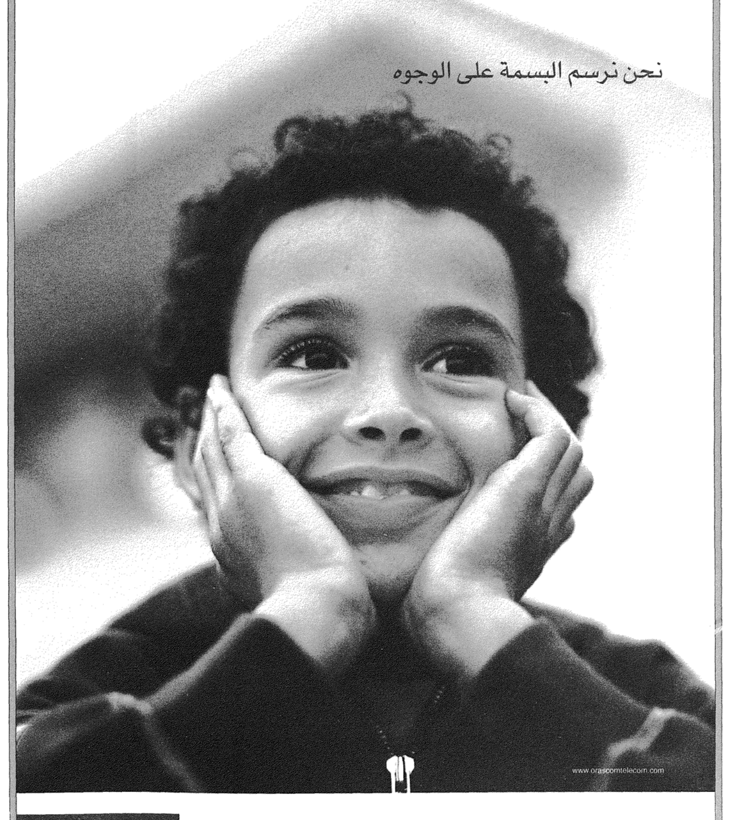


Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 81 - October 2005

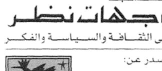
مجلة شهرية. العدد الحادى والثمانون. السنة السابعة. أكتوبر ٢٠٠٥. الثمن عشرة جنيهات

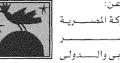
مُحاكمة الأمم والولايات المتحدة!.. غزة
والعرض التليفزيونى الأخير!.. العربية
فى سوق اللغات.. حرف مصر الغارقة!
..زمن ألف ليلة وليلة.. معاقبة
متهم بممارسة مهنته!... والحياة
فى مدينة العميان!

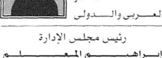

نحن نرسم البسمة على الوجوه
www.orascomtelecom.com

السنة السابعة
العدد الحادى والثمانون
أكتوبر ٢٠٠٥

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى





الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أيمن الصياد .. صحفى.
- جمال الحسينى أبو فرحة.. مدرس علم الكلام بجامعة قناة السويس.
- حسن نافعة .. رئيس قسم العلوم السياسية بجامعة القاهرة.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- صالح محمد النعامى.. صحفى من فلسطين.
- عبد الرءوف الريدى.. رئيس المجلس المصرى للشئون الخارجية.
- عز الدين نجيب.. ناقد وفنان تشكيلى.
- عزمى بشارة.. مفكر فلسطينى ونائب فى الكنيست الإسرائيلى.
- علياء رافع.. أستاذ علم الأنثربولوجى ـ جامعة عين شمس.
- فاروق شوشة.. شاعر وإذاعى.
- كوفى عنان.. الأمين العام للأمم المتحدة.
- محمود محارب.. أستاذ العلوم السياسية فى جامعة القدس.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى ـ أحمد اللباد





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١,٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١,٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

ســـلامة أحمـــد ســـلامة

مدينـــة العميـــان..

■■ عندما تتحلل عرى العلاقات الإنسانية فى المجتمعات الحديثة، ويتسيد مبدأ المنفعة والصراع من أجل البقاء، يصاب الإنسان بحالة من العمى النفسى.. يصبح أعمى بفعل عمى الآخرين. وينتقل العمى من شخص إلى شخص كما ينتقل المرض من الأجرب إلى الصحيح. وكلما زاد عدد العميان فى المجتمع - بهذا المعنى - تفككت العلاقات والروابط والمفاصل التى تحكم نظامه. يفقد الفرد قدرته على المقاومة بالتدريج، وتعلو لديه نوازع الأنانية، ويتخلى عن مبادئه وقيمه كما يتخلى عن احترامه للقانون والنظام إذا لم تكن هناك سلطة ملزمة. ثم ينتهى به الحال إلى التخلى عن إنسانيته واحترامه لذاته وللآخرين.

من هذه الفكرة يبدأ الكاتب والروائى البرتغالى خوزيه ساراماجو، الحائز على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٩٨ روايته الرائعة «مدينة العميان»، يطرح من خلال سرد وقائع أشبه بالكوابيس رؤية فلسفية وأخلاقية، تثير تساؤلات عن حقيقة الإنسان والإنسانية والوجود الإنسانى، عن معنى الخير والشر، والقانون والنظام، والتقدم والتأخر.. وما تخفيه الحضارة وراء واجهتها اللامعة من تناقضات الإنسان فى المجتمعات الحديثة، التى خضعت بالكامل لقوى الرأسمالية ولقوانين العولمة.

وخلال الأسابيع الأخيرة، شهد العالم نموذجًا حيًا للسقوط الإنسانى، من خلال المأساة التى أطاح فيها إعصار «كاترينا» بمدينة «نيوأورليانز» الأمريكية، فأغرقت المياه مبانيها، وعزلت مئات الألوف من أهلها فى البيوت والطرقات، وطفت الجثث على السطح منتفخة متعفنة تقضمها الجرذان. ولم تتحرك أجهزة الدولة الغنية بكل هيلها وهيلمانها وإمكاناتها التى تغزو كواكب الفضاء، لإنقاذ الضحايا، إلا بعد أن اكتملت عناصر الكارثة، وأطبقت على كل شىء، وقضت على مظاهر الحياة من إنسان وحيوان، إلا من اعتصم بالاستاد أو بمرتفع من البيوت.. تقاعست فرق الإنقاذ التى كان يجب أن تهرع للمساعدة، حين سقطت فريسة الإهمال والتراخى الذى هو نوع من العمى الوظيفى، وتغلبت المشاعر العنصرية لأن أغلب سكان المدينة من السود، وحين عجزت السلطات المحلية عن فعل شىء، لم تعبأ السلطات الفيدرالية باتخاذ إجراءات عاجلة لأن مستشارى الرئيس بوش خشوا إبلاغه فى حينه. وهكذا انتقل العمى عن إدراك الحقيقة من صغار المسئولين إلى كبارهم، ومن أسفل إلى أعلى، ومن الجنوب إلى الشمال، ومن لويزيانا إلى واشنطن، ومن واشنطن إلى تكساس حيث يقضى الرئيس إجازته، فلم يحط علمًا بأبعاد الكارثة إلا بعد أن صارت فضيحة دولية.

يبدأ ساراماجو قصته الطويلة من نقطة تتمحور حولها كل عناصر الحياة المدنية الحديثة بكل أبعادها.. شخص ما يقود سيارته وعندما يقترب من تقاطع رئيسى فى قلب مدينة كبيرة مزدحمة، بغير اسم أو عنوان، يحدث له شىء غريب مفاجئ.. كانت الإشارة تتحول من الأخضر إلى الأصفر إلى الأحمر. وتوقف السائق بسيارته تمامًا بعد نظرة خاطفة إلى الإشارة الحمراء. كان المارة يعبرون فوق خطوط المشاة المخططة بالأبيض والأسود. أوقف سائقو السيارات الأخرى سياراتهم فى نفاد صبر واضح، وأطراف أقدامهم فوق كابح السرعة على استعداد للمروق بسرعة كفرس فى السباق يستشعر لسع السوط قبل أن يهوى. وعاد اللون الأخضر إلى إشارة المرور إيذانًا بالحركة الهادرة لطابور طويل لا ينقطع من السيارات احتجزتها الإشارة الحمراء. ولاحظ الجميع أن الصفوف المتوازية للسيارات لم تنطلق كلها فى لحظة واحدة. وأن الصف الأوسط منها قد توقف تمامًا عن الحركة.. لابد أن يكون هناك عُطل ما فى السيارة الأولى من الصف، عُطل فى الفرملة أو الكهرباء أو فى أنبوب الوقود. إنها ليست المرة الأولى لحدوث مثل هذه الربكة المرورية حيث تصاب سيارة بالعطب فى قلب زحمة المرور.

ولاحظ المارة الذين تجمعوا على الرصيف عند معبر المشاة أن سائق السيارة المعطلة يلوح بيديه من خلف زجاج السيارة الأمامى فيما يشبه الهياج والغضب. بينما أخذت السيارات المحتجزة خلفه تطلق نفيرها فى غيظ ونفاد صبر، ويلوح سائقوها بقبضة أيديهم فى الهواء، وهم يوجهون الشتائم وعبارات اللوم إلى قائد السيارة المعطوبة. أما السائق المنكوب فقد وضع كفيه فوق عينيه وكأنه يحاول الاحتفاظ بآخر صورة وقعت عليها عيناه لقرص المرور المستدير الأحمر. وسرعان ما تجمع الناس حوله، وفتحوا باب سيارته. كان الرجل يبكى بحرقة شديدة وهو يصرخ: إننى لا أرى شيئًا. عيناى لا تبصران. لا أدرى ماذا حدث.. كانت عيناه المفتوحتان تلمعان فى ضوء النهار، وتتحركان بعصبية فى حدقتيهما دون جدوى. كل عابر سبيل يتطوع بإدلاء رأيه: إنها صدمة عصبية، حالة مؤقتة سوف تزول، اطلبوا الشرطة أو الإسعاف.. وتطوع أحدهم ليأخذ بيد الرجل ليساعده على الوصول إلى منزله.. والأعمى يضع يديه فوق عينيه ولا يكف عن البكاء والعويل.. كل شىء حوله أصبح أشبه بحائط من الضباب الأبيض لا يخترقه البصر. بياض فى بياض.. هل أصابه العمى؟ ولكن العمى يأتى مع إظلام البصر.. تختفى المرئيات فى تلافيف ليل دامس. وتفقد العين نورها وقدرتها على تمييز الأشياء والوجوه والمبانى والكائنات والألوان.. هكذا تصور صاحبنا وهو يستعيد فى ذهنه كل ما قرأه وتعلمه فى حياته عن ضياع نور العينين وحالة الإظلام التام التى يعيش فيها العميان. وراودته الظنون والآمال بأن ما يعانيه ليس إلا حالة طارئة، مؤقتة، عابرة، لن تدوم، ولا تلبث أن تختفى بعد أن يذهب إلى طبيب العيون.

يكتشف الأعمى بعد أن أوصله «فاعل خير» إلى منزله، أنه انصرف دون أن يعطيه مفتاح السيارة. وحقًا، فإن «فاعل الخير» كان يضمر الاستيلاء على سيارة الضرير مستغلاً حالة التوهان والاضطراب التى ألمت به، مطمئنًا إلى أن أحدًا لن يكتشف السرقة. وبالفعل يقود السيارة المسروقة على ضاحية أخرى من المدينة، ليفاجأ بعد ساعات قلائل بأن قدرته هو الآخر على الإبصار أخذت تتلاشى.. وحين عثرت عليه الشرطة محبوسًا فى السيارة فى طريق مهجور، كان العمى قد أسدل على عينيه غلالة بيضاء كثيفة شلت قدرته على الرؤية والتمييز.



وهكذا تدور العجلة.. واحداً بعد الآخر تنتشر فى المدينة حالة غريبة من فقد البصر المفاجئة. حتى طبيب العيون الذى لجأ إليه بعض من ضربه العمى، أصيب هو نفسه بالعمى. واتضح أن ما يشبه الوباء قد نزل بالمدينة، فأصاب العمى مئات، ثم ألوفًا من الناس دفعة واحدة، مما أحدث حالة من الذعر والهلع اجتاحت المدينة.

وجاء رد فعل السلطات فى منتهى الحزم والصرامة. صدرت الأوامر باحتجاز من يصيبه المرض فى مبنى قديم مهجور كان يستخدم كمشفى للأمراض العصبية. وتحت حراسة مشددة جرى عزل العميان عن بقية المدينة خوفًا من انتشار الوباء الغامض.

تركتهم السلطات لحالهم، تلقى إليهم بعض كميات قليلة من المؤن والأطعمة ومياه الشرب من مسافة كافية حتى لا تنتقل العدوى إلى جنود



تخيل ساراماجو ماذا يمكن أن يحدث لمجتمع لا يرى فيه الناس بعضهم بعضًا، ولا يستشعرون وجود الآخر، ولا يقدرون احتياجاته ومطالبه، بل يصبح الفرد مغلقًا على ذاته، غارقًا فى أنانيته على استعداد فقط لأن يفعل أى شىء ويرتكب أى جريمة فى صراع البقاء من أجل الحياة



الحراسة، بغير إشراف أو علاج أو رعاية صحية أو طبية. ولكن شخصًا واحدًا مبصرًا وجد نفسه وسط هذه الجموع بطريق الصدفة أو العمد، هى زوجة طبيب العيون التى رافقته إلى المعتقل، والتى ستروى تفاصيل ما حدث داخل أسوار العزل من مآس.

إذ أن ما يحدث فى مجتمع العميان يكاد يكون صورة مما يحدث فى كثير من مجتمعات العصر الحديث. حيث يتعرض الجميع وإن بدرجات متفاوتة لأسوأ ألوان القهر والغصب والخداع، وانتهاك الأقوياء لحقوق الضعفاء، وفرض الإتاوات عليهم، واغتصاب ثرواتهم القليلة، وما تيسر من أعراض نسائهم.

تتحول المدينة كلها على مدى أيام قليلة إلى مجتمع غريب من العميان. تتوقف الحياة الطبيعية، ودواوين الحكومة والشرطة والجيش عن ممارسة وظائفها. وتغلق البنوك والمؤسسات والشركات والمصانع أبوابها بعد أن أصيب الجميع بالعمى. حتى الكنائس ودور العبادة تصبح نهبًا لألوان من الرذائل والموبقات. وينزلق المجتمع الأعمى تدريجيًا إلى حالة من الفوضى والخراب ثم الضياع والموت. تمتلئ الشوارع بالقمامة والجثث المتعفنة لأشخاص لقوا حتفهم جوعًا بعد أن نهبت الأسواق والدكاكين، وخلت الأرفف من الأطعمة والسلع الغذائية والمنزلية. وأخذت جموع العميان تتضور جوعًا مع الكلاب والقطط والحيوانات فى الشوارع والأزقة. انقطعت وسائل الاتصال، كما انقطعت الكهرباء والمياه وسادت المدينة حالة من الإظلام التام لا يفرق فيها العميان بين ليل ونهار. وتحلق فوق المدينة سحابة من الروائح الكريهة العفنة. وحين يفقد المرء القدرة على الإبصار يفقد القدرة على التمييز والإدراك.

تخيل ساراماجو ماذا يمكن أن يحدث لمجتمع لا يرى فيه الناس بعضهم بعضًا، ولا يستشعرون وجود الآخر، ولا يقدرون احتياجاته ومطالبه، بل يصبح الفرد مغلقًا على ذاته، غارقًا فى أنانيته، على استعداد فقط لأن يفعل أى شىء ويرتكب أى جريمة فى صراع البقاء من أجل الحياة، لإشباع غرائزه وإرضاء نزواته. وهو فى سبيل ذلك يتخلى عن أى مبدأ ويخرق أى قانون ويستحل كل محرم.. لا يردعه قانون ولا دين ولا عاطفة إنسانية. ينهار النظام ويفرض الموت منطقه على الجميع.



عندما أصدر خوزيه ساراماجو روايته هذه عام ١٩٩٥، كانت الشيوعية كنظام سياسى قد دخلت مرحلة الأفول. ولكن ساراماجو الذى ولد فى نوفمبر عام ١٩٢٢ فى قرية برتغالية صغيرة Atzinhaga فى إقليم Rebatejo من أسرة ريفية، كان قد اعتنق الماركسية فى شبابه واندمج فى التنظيمات السرية التى نشطت بقوة تحت حكم الديكتاتور الفاشى سالازار. أتم دراسته الثانوية ثم عمل ميكانيكيًا ورسامًا فنيًا وموظفًا وانضم بعدها إلى إحدى دور النشر حيث عمل صحفيًا بصحيفة يومية تصدر فى لشبونة. وكتب الشعر والقصة والمقالات الصحفية منذ شبابه. ولكنه تفرغ لحرفة الكتابة منذ عام ١٩٦٦، وبدأ يصعد مدارج الشهرة فى البرتغال منذ عام ١٩٨١ حينما لقيت روايته «الأمل فى النتيجو» نجاحًا كبيرًا وحصل على جائزة مدينة لشبونة. وظل ساراماجو مؤمنًا بالاشتراكية التى يعتبرها حركة من حركات الروح، وبأن النظام الرأسمالى بوضعه الراهن لن يكون قادرًا على حل مشاكل البؤس والعزلة فى العالم. خصوصًا بعد أن نجحت الليبرالية الجديدة فى تطبيق أساليبها بوحشية ودون رحمة فى الدول الغربية والصناعية المتقدمة خلال العقدين الأخيرين، ما أدى إلى ظهور مشكلات اجتماعية خطيرة. وكان من رأى ساراماجو أن الرأسمالية فى تحولاتها الأخيرة بعد سقوط الشيوعية قد أفضت إلى توسيع الهوة بين طبقة صغيرة من الأغنياء وأغلبية ساحقة من الفقراء والمعدمين، طبقة تملك كل شىء ولا تشعر بالمسئولية الاجتماعية إزاء الآخرين، وطبقات محرومة تعيش على حافة الفقر المدقع.

وفى حيثيات جائزة نوبل قالت الأكاديمية السويدية إن سرديات ساراماجو تقوم على عناصر تجمع بين الخيال والسخرية والتعاطف. ولم يبتعد ساراماجو كثيرًا عن الواقع وهو يرسم بخياله صورة ما حدث فى «مدينة العميان»، حين نرى ونسمع كيف تحولت نيوأورليانز الأمريكية العامرة بالحياة واللهو والصخب، إلى ما يشبه مدينة للعميان بعد أن ضربها الإعصار، وتكشفت عن طبقات من البؤس والإملاق تتشكل منها أغلبية السود، تحت قشرة رقيقة لامعة من الغنى والنعيم كانوا أصحابها أول من هجروا المدينة، وأول من اهتمت فرق الإنقاذ بإخراجهم من الجحيم.

والعمى الجماعى - كما يقول ساراماجو - ليس مجرد فقدان للبصر، بل هو فقدان للقدرة على التمييز والفعل. ومن ثم على التنظيم والنظام. والموت فى جوهره ليس إلا حالة من انعدام التنظيم الذى يؤدى بالضرورة إلى انهيار النظام والقانون. هو نوع من فوضى الوظائف تؤدى إلى الهلاك. ينطبق ذلك على جسم الإنسان كما ينطبق على جسم المجتمع. فالجسم يظل حيًا مادام بقى خاضعًا لنظام يكفل استمرار وظائفه. ولكنه يدخل مرحلة الفناء والتحلل عندما يضطرب هذا النظام وتتوقف الوظائف عن عملها فى انسجام وانضباط وإحكام. إذ كيف يتسنى لمجتمع من العميان تنظيم أنفسهم؟ والتنظيم يقتضى إدراك الأشياء والعلاقات والفوارق الدقيقة. والإدراك يقتضى القدرة على البصر والتمييز وامتلاك الرؤية. إن العمى - فى صوره المجتمعية المتباينة - عندما يصيب مجتمعًا من المجتمعات، فإنه يصيب أول ما يصيب النخبة البارزة من علية القوم ومن أسافلهم، بحيث تقترب قيم الفئتين وتتشابه حتى وإن كانت الرؤية من منظور اجتماعى مختلف. تنخر فى أسس المجتمع وعلاقاته. فإذا انتقل العمى إلى الطبقة المتوسطة التى تحمل وتدافع عن قيم المجتمع وتقاليده، وغلبت عليه الأثرة والأنانية.. كان ذلك إيذانًا بموت المجتمع وهلاكه.. أو قل إيذانًا بموت الضمير. يضرب العمى مراكز التحكم والانضباط والرقابة، ممثلة فى الأمن والدفاع. ثم لا يلبث أن يصيب بقية الطبقات العاملة فى المجتمع من عامة الناس وخاصتهم، من الكبار والصغار، من الرجال والنساء. تتهاوى أسس النظام وقوانينه: فى البورصة، فى نظام الضرائب، فى الإنتاج، فى المحاكم، فى الحقوق المدنية، قواعد المرور، مصانع السلاح، المقابر، الصيدليات، الأحزاب والانتخابات والبرلمان، المعابد والكنائس والمساجد، المدارس والجامعات والتعليم.. إلى آخر المؤسسات التى تسير المجتمع.



ولكن لماذا يصيب العمى مجتمعًا ما؟

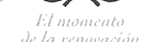
لا أدرى - هكذا يختم ساراماجو مرافعته - ولكن قد يأتى اليوم الذى نعرف فيه السبب.. وفى ظنى أننا لا نصاب بفقد البصر، ولكننا نكون عميانًا بالفعل ونحن نبصر.. عميانًا لأننا لا نرى المبصرين من بيننا ولا نحس بوجودهم وقدراتهم. يريد ساراماجو أن يقول إننا قد نرى الأشياء والحقائق بعيوننا ولكننا لا نبصرها ولا نستوعب أبعادها، وحتى إذا كان فى المجتمع من يملك القدرة على البصر والإدراك فإن أحدًا لا يلتفت إليه ولا يستمع إلى أقواله. فالعمى عمى القلب والعقل، عمى البصيرة قبل أن يكون عمى البصر!

ومع ذلك فإن المؤلف لا يريد أن يختم تفاصيل هذا الكابوس المرعب دون أن يترك للإنسان فرجة مفتوحة لبصيص من الأمل. حين تستيقظ زوجة الطبيب المبصرة ذات صباح لتجد أن عددًا قليلاً من العميان الذين أحاطتهم برعايتها، وحاولوا الحفاظ على حد أدنى من إنسانيتهم، فوقفوا معًا أثناء المحنة متكاتفين، وقدموا يد العون كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، قد أخذوا يستعيدون أبصارهم شيئًا فشيئًا.. انزاحت الغمامة الضبابية البيضاء عن عيونهم وأخذوا يزيلون الأدران والمخلفات التى تراكمت حولهم.. فى انتظار عالم يولد من جديد، بينما زوجة الطبيب.. التى كانت مبصرة - تستسلم لغشاوة تهبط على عينيها! ■





Naciones Unidas



منذ ستين عاما مضت، وفى سان فرانسيسكو، قام ممثلو ٥٠ دولة بالتوقيع على ميثاق الأمم المتحدة. وقبل أيام فقط اجتمع ممثلو ١٩١ دولة تحت مظلة المنظمة الدولية ـ وربما أيضا تحت مظلة الهيمنة الأمريكية ـ فى «قمة عالمية» كانت محطا لأنظار الجميع: شرقا وغربا.. فقراء وأثرياء.. آملون وحالمون.. وسياسيون نفعيون لا ينظرون إلا تحت أقدامهم.

قبل ستين عاما تعهد المجتمعون، باسم شعوب الأمم المتحدة، أن ينقذوا الأجيال المقبلة من ويلات الحرب. وقد أصبحت هذه الكلمات محفورة فى الذاكرة الجماعية للبشرية. كما أكدوا إيمانهم بحقوق الإنسان الأساسية: وبكرامة الفرد: وبما للرجال والنساء، وللأمم، كبيرها وصغيرها، من حقوق متساوية. وتعهدوا بتهيئة الظروف التى يمكن فى ظلها صون العدالة والمحافظة على احترام القانون. كما وعدوا بدفع الرقى الاجتماعى قدما والنهوض بمستويات المعيشة، فى جو من الحرية أفسح.

واليوم، وقد دخلنا قرنا جديدا من الزمان ـ كما يقول كوفى عنان الأمين العام السابع للمنظمة الدولية ـ تواجهنا تهديدات وتحديات جديدة، ولكن تفتح أيضا الأبواب أمامنا لاغتنام فرص جديدة.

أين تقف الأمم المتحدة اليوم؟ وما هو مستقبلها.. إن كان أمامها مستقبل.

فى عالم لم تعد ملامحه أبدا كما كانت، تصبح أسئلة المستقبل كلها واردة. بل.. وحتمية.

المحــرر

إصلاح الأمم المتحدة يبدأ بإصلاح الولايات المتحدة

حسـن نافعـة

هناك ما يشبه الإجماع على فشل «قمة العالم» الاستثنائية التى عقدت فى نيويورك ١٤-١٦ سبتمبر الماضى بمناسبة الاحتفال بالعيد الستينى للأمم المتحدة، وأن المسئول الأول عن هذا الفشل هو الولايات المتحدة الأمريكية. وكانت هذه القمة قد ناقشت مسودة إعلان صاغه كوفى عنان استنادا إلى توصيات وردت فى تقارير فرق عمل دولية عديدة كان الأمين العام قد شكلها من قبل واستهدفت بحث أنسب السبل لإصلاح الأمم المتحدة وتفعيل دورها فى مواجهة التحديات الدولية الجديدة. ورغم أن النص الأصلى للإعلان الذى طرحه الأمين العام كان معتدلا وواقعيا إلى حد كبير، إلا أن جون بولتون، المندوب الأمريكى الدائم لدى الأمم المتحدة انقض عليه وحاول تمزيقه إربا باقتراح ما يقرب من ٧٥٠ تعديلا عليه، لينتهى الأمر بتبنى نص لا طعم له ولا لون ولا رائحة. إعلان لا يصلح أو يفعل شيئا، لتظل الأمم المتحدة بعده، مثلما كانت قبله، عجوزًا فى سن الستين تبحث لها الولايات المتحدة عن بيت للمسنين.

ومن المسلم به أن الولايات المتحدة الأمريكية ليست دولة عادية فى مجتمع الدول، وإنما هى دولة فريدة فى التاريخ الإنسانى كله، ومن ثم فمن الطبيعى أن يكون لها دور يعكس هذا التفرد أو التميز فى تاريخ وتطور العلاقات الدولية وبالتالى فى تاريخ وتطور التنظيم الدولى. ويدرك المتخصصون إدراكا واعيا أنه ما كان يمكن للتنظيم العالمى أن ينشأ ويتطور على النحو الذى تم به من دون الولايات المتحدة. غير أن هذه الحقيقة لا تعنى أبدا أن مساهمة الولايات المتحدة فى تنظيم مجتمع الدول كانت دائما وبالضرورة مساهمة إيجابية، وإنما تعنى فقط أن ثقل الولايات المتحدة فى النظام الدولى، خاصة منذ مطلع القرن العشرين، جعلها تبدو على الدوام كأنها المشكلة والحل فى آن واحد، وسواء كانت حاضرة ومشاركة رسميا فى التنظيم الدولى أو غائبة عنه. فابتعادها عن عصبة الأمم جعل التنظيم الدولى يبدو عاجزا ومشلولا، ومشاركتها النشطة فى الأمم المتحدة حمل مخاطر تحويل التنظيم الدولى إلى أداة تستخدمه لإحكام هيمنتها على النظام الدولى.

ويهدف هذا المقال إلى استجلاء حقيقة العلاقة المعقدة بين الولايات المتحدة والأمم المتحدة، وكيف وصلت الأمور إلى الحد الذى أصبح من المستحيل معه إصلاح الأمم المتحدة بدون إصلاح الولايات المتحدة أولا!.

[١]

كانت الولايات المتحدة، وهى دولة حديثة النشأة والتكوين فى مجتمع الدول، قد اختارت لنفسها نهجا فى السياسة الخارجية يجنبها الانغماس فى شئون القارة الأوربية، فى مقابل أن تمتنع هذه الأخيرة عن التدخل فى شئون الأمريكتين (مبدأ مونرو: ١٨٢٣). وقد استطاعت أن تحافظ على هذا النهج الانعزالى لفترة طويلة إلى أن وجدت نفسها، ولأسباب عديدة، مضطرة للمشاركة فى الحرب العالمية الأولى التى انخرطت فيها ٣٣ دولة و٧٠ مليون مقاتل، وراح ضحيتها ١٠ ملايين قتيل و ٢٠ مليون جريح، ونجم عنها خسائر مادية بلغت ٢٠٨ مليارات دولار. وكان اندلاع هذه الحرب الطاحنة والمدمرة مناسبة وحافزا لتشكيل عدد ضخم من الهيئات







والمنظمات واللجان غير الحكومية التى أخذت على عاتقها التفكير فى دراسة الوسائل الكفيلة بمنع الحرب مستقبلا. كان من بينها «عصبة دعم السلام» The League to Enforce Peace التى تأسست عام ١٩١٥ وأصبح الرئيس الأمريكى الأسبق وليام تافت أحد زعمائها البارزين وأصبح الرئيس الأمريكى ويدرو ويلسون نفسه أحد المتحمسين لمبادئها وأهدافها.

فى هذا السياق لم يكن غريبا أن يلعب الرئيس الأمريكى ويلسون، والذى شارك بنفسه فى مؤتمر الصلح الذى عقد فى فرساى فى نهاية الحرب، دورا رئيسيا لدفع المؤتمر نحو تبنى فكرة إقامة تنظيم سياسى عالمى يستهدف حل المشكلات الدولية بالطرق السلمية والحيلولة دون نشوب حرب عالمية جديدة، من خلال نظام مؤسسى للأمن الجماعى والضمانات المتبادلة. كما لم يكن غريبا أن يقع اختيار المؤتمر على الرئيس الأمريكى ويلسون بالذات ليتولى بنفسه رئاسة اللجنة الخاصة التى شكلها لصياغة المشروع النهائى للمنظمة المقترحة والتى استقر الرأى على تسميتها «عصبة الأمم».

غير أن الرأى العام الأمريكى لم يكن ناضجا أو مستعدا بعد لتقبل خطوة بدت و كأنها تشكل قطيعة مع تقاليد انعزالية راسخة. ولأن الكونجرس الأمريكى كان أحد المعاقل الرئيسية لهذه التقاليد فقد رفض التصديق على معاهدة الصلح، مما حال دون أن تصبح الولايات المتحدة عضوا فى أول منظمة سياسية دولية كان الرئيس الأمريكى نفسه هو أكبر الداعين لها والمشاركين فى وضع دستورها!. وهكذا عادت الولايات المتحدة لتمارس سياستها الانعزالية التقليدية تاركة المنظمة الدولية الوليدة نهبا لصراعات أوربية ما لبثت أن أفضت إلى حرب عالمية ثانية وجدت نفسها مضطرة مرة أخرى للمشاركة فيها.

والواقع أنه عندما راح الرئيس الأمريكى روزفلت يهيئ الرأى العام الداخلى، وقبل أن تقدم اليابان على ضرب ميناء بيرل هاربر فى ديسمبر من عام ١٩٤٠، للاستعداد للمشاركة فى الحرب، كان يدرك تمام الإدراك أن عليه تهيئته فى الوقت نفسه للقبول بمشاركة الولايات المتحدة فى الترتيبات اللازمة لإدارة النظام الدولى فى مرحلة ما بعد الحرب. لذلك لم يكن غريبا أن تشهد سنوات الحرب نشاطا هائلا، سواء من جانب المنظمات الأمريكية غير الحكومية أو من جانب الإدارة الأمريكية أو حتى من جانب الكونجرس الأمريكى بمجلسيه، لبحث ودراسة أنسب السبل لإقامة تنظيم عالمى جديد يحل محل عصبة الأمم يتلافى ما وقعت فيه هذه الأخيرة من أخطاء و يكون مقبولا فى الوقت نفسه من جانب الحزبين الرئيسيين فى الولايات المتحدة، حتى لا يتكرر ما حدث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى. وقد أسفر هذا النشاط عن بلورة الأفكار الرئيسية التى صيغت فى شكل مشروع للميثاق تم التفاوض حوله مع كل من الاتحاد السوفيتى وبريطانيا أولا قبل أن يطرح للنقاش فى المؤتمر التأسيسى للمنظمة الدولية الجديدة.



تجدر الإشارة إلى أن العالم كله كان حريصا فى الوقت نفسه على ضمان مشاركة الولايات المتحدة فى هذه المنظمة، وقدم كل ما فى وسعه من وسائل الإغراء والتشجيع لتحقيق هذا الهدف. من هذه الوسائل: الموافقة على انعقاد المؤتمر التأسيسى للأمم المتحدة فى مدينة سان فرانسيسكو، وأن تصبح مدينة نيويورك مقرا دائما لهذه المنظمة الجديدة. ولذلك لم يكن غريبا أن يوافق مجلس الشيوخ الأمريكى على ميثاق الأمم المتحدة بأغلبية ساحقة هذه المرة (٩٨ صوتا ضد صوتين)، وأن تصبح الولايات المتحدة هى أول دولة تودع وثائق تصديقها لدى هذه المنظمة الدولية.

ورغم الأهمية الاستثنائية التى حظى بها الوجود الأمريكى لأول مرة داخل التنظيم الدولى العالمى، إلا أن الولايات المتحدة لم تكن فى نهاية المطاف سوى واحدة من ثلاث دول كبرى متحالفة ومنتصرة فى الحرب العالمية الثانية قام على أكتافها نظام الأمن الجماعى الذى شكل العمود الفقرى للأمم المتحدة. وهذه المجموعة، والتى ضمت الاتحاد السوفيتى وبريطانيا إلى جانب الولايات المتحدة، هى التى قررت، ولأسباب تتعلق بالمواءمة السياسية، ضم فرنسا والصين إلى مشاوراتها عندما كانت الحرب تشرف على نهايتها. وعندما طرح مشروع الميثاق الذى أعدته هذه الدول على مؤتمر سان فرانسيسكو تبين وجود حالة من الاستقطاب بين ثلاث مجموعات من الدول مختلفة المواقف والرؤى:

الأولى: مجموعة الدول الكبرى فى مواجهة الدول الصغيرة والمتوسطة، وهى مجموعة تقتصر على دول خمس حددها مشروع الميثاق بالاسم وميزها عن باقى الدول الأعضاء بمنحها مقاعد دائمة فى مجلس الأمن وحق الاعتراض على قراراته (الفيتو)، وهو ما أثار حفيظة باقى الدول. وتقع الولايات المتحدة ضمن هذه المجموعة بالطبع، وبلغ من حرصها على المحافظة على المزايا الممنوحة للدول دائمة العضوية فى مجلس الأمن حدا دفع بالسناتور كونالى، إلى تمزيق نسخة من الميثاق فى إحدى جلسات المؤتمر وهو يعلق صائحا: «من دون الفيتو لن يكون هناك ميثاق أصلا».

الثانية: مجموعة الدول الاستعمارية فى مواجهة الدول الجديدة والدول غير الاستعمارية. وبينما سعت هذه الأخيرة لتوسيع سلطة الأمم المتحدة لإحكام نظام الوصاية ومتابعة تطور الأوضاع فى الدول التى لا تتمتع بالحكم الذاتى، حاولت الأولى عرقلة هذا الاتجاه. وقد اتخذت الولايات المتحدة موقفا مناهضا بشكل عام للاستعمار التقليدى، وإن كان بدرجة أقل وضوحا من موقف الاتحاد السوفيتى الأكثر راديكالية.

الثالثة: مجموعة الدول الفقيرة فى مواجهة الدول الغنية. وبينما سعت الأولى لتوسيع نطاق السلطات الممنوحة للأمم المتحدة فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية حاولت الدول الأخرى تركيز الجهود الأممية على المجالات المتعلقة بصيانة السلم والأمن الدوليين. وقد أسفر الجدل الذى ثار حول هذه القضية عن رفع مستوى المجلس الاقتصادى والاجتماعى إلى مصاف الفروع الرئيسية، ولكن دون سلطات حقيقية. ولم تكن الولايات المتحدة تمانع فى دعم هذا الاتجاه.

ورغم توجس الولايات المتحدة من المشاركة، ولأول مرة فى تاريخها، فى منظمة دولية مسئولة عن حفظ السلم والأمن فى العالم، إلا أن تلك المشاركة أتاحت لها فرصة فريدة لتحقيق عدة مزايا استراتيجية كبرى: منبر دائم مقيم على أرضها تستطيع أن تتعرف من خلاله على مجمل ودقائق الشئون الدولية، و شبكة اتصالات وقنوات دبلوماسية مفتوحة، بأقل التكلفة، مع الأغلبية الساحقة من دول العالم. فى وقت كانت فيه هذه الدولة الكبرى حديثة العهد والقليلة الخبرة بالشئون الدولية تهيئ نفسها وتتطلع لتولى مسئوليات عالمية كبرى. على صعيد آخر لم يكن بوسع المنظمة الدولية الوليدة أن تقيد إرادة الولايات المتحدة أو تعرقل خططها فى شيء وذلك لعوامل تعود إلى طبيعة وبنية الأمم المتحدة نفسها، من ناحية، وما تملكه الولايات المتحدة من أدوات للضغط والتأثير على سياسات وبرامج هذه المنظمة، من ناحية أخرى. فمجلس الأمن، وهو الفرع الوحيد الذى يملك صلاحية وسلطة إصدار القرار الملزم، لا يستطيع أن يتخذ قرارا ضد رغبتها لأن بوسعها استخدام حق الفيتو للحيلولة دون صدور هذا القرار. والجمعية العامة كانت، عند نشأة الأمم المتحدة، تتشكل من دول حليفة فى معظمها، مما مكنها من التمتع بأغلبية مريحة مضمونة (أتوماتيكية) فى داخلها. يضاف إلى ذلك أن الولايات المتحدة، وبسبب ثقلها الاقتصادى الضخم، كانت تسهم وحدها فى الميزانية العادية للأمم المتحدة بنسبة تجاوزت ٤٠٪ فى البداية قبل أن يتم تحديد حد أقصى لنسبة مساهمة أى دولة منفردة (٢٥٪). وهو ما مكن الولايات المتحدة من ممارسة نفوذ وتأثير فريد لم يكن بوسع أى دولة أخرى أن تمارسه داخل الأمم المتحدة. وهكذا راحت الولايات المتحدة تمارس دورها الجديد فى السياسة العالمية كقوة عظمى فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وهى مطمئنة إلى أن الأمم المتحدة لا يمكن إلا أن تكون سندا لسياستها الخارجية. وظل الحال على هذا المنوال لسنوات طويلة حتى بعد انقسام حلفاء الحرب العالمية الثانية إلى معسكرين متصارعين واندلاع الحرب الباردة بينهما.

[٢]

تمتعت الولايات المتحدة بوضع مريح جدا داخل الأمم المتحدة خلال معظم فترات الحرب

الباردة، حيث كان بوسعها ليس فقط أن تحمى نفسها (بواسطة الفيتو) من أى محاولة لاتخاذ عمل جماعى قسرى ضدها داخل مجلس الأمن، ولكن أيضا من تمرير أى قرار تريده داخل الجمعية العامة. ويمكن القول أن الأمم المتحدة شكلت بالنسبة للولايات المتحدة إضافة مهمة للعمل الدبلوماسى المثمر والمفيد جدا، ولم تمثل، حتى نهاية الستينيات على الأقل، أى عائق أو تشكل عبئا حقيقيا. ولذلك لم تكن الولايات المتحدة بحاجة لاستخدام الفيتو خلال هذه المرحلة، بينما أسرف الاتحاد السوفيتى فى استخدامه ليبدو وكأنه القوة المعزولة دوليا والمعرقلة لنشاط ودور الأمم المتحدة. فخلال السنوات العشرين الأولى من نشأة الأمم المتحدة لم تستخدم الولايات المتحدة الفيتو على الإطلاق بينما استخدمه الاتحاد السوفيتى فى الفترة نفسها أكثر من مائة مرة (١٠١ مرة على وجه التحديد). وقد استطاعت الولايات المتحدة، بالاعتماد على قواها وقدراتها الذاتية ومكانتها داخل الأمم المتحدة أو بالاستفادة من أخطاء الآخرين أن تحقق كل ما تريده من الأمم المتحدة خلال معظم هذه المرحلة. ففى بداية الخمسينيات تمكنت الولايات المتحدة، اعتمادا على أخطاء ارتكبها الاتحاد السوفيتى الذى كان يقاطع جلسات مجلس الأمن أثناء اندلاع الأزمة الكورية، أن تحصل على تفويض من مجلس الأمن يمكنها من قيادة الحرب ضد كوريا الجنوبية. وعندما تنبه الاتحاد السوفيتى إلى خطئه واستأنف نشاطه فى مجلس الأمن تمكنت الولايات المتحدة من تمرير مشروع «الاتحاد من أجل السلام»، والذى قصد به الالتفاف على الفيتو السوفيتى، داخل الجمعية بأغلبية مريحة. كما استطاعت منع الصين الشعبية من ممارسة اى دور داخل الأمم المتحدة حتى بداية السبعينيات، وأفسحت المجال أمام حكومة تايوان لشغل مقعد الصين فى الأمم المتحدة، بما فى ذلك مقعدها الدائم فى مجلس الأمن!. وحين تمردت فرنسا وبريطانيا على زعامتها وشنتا من وراء ظهرها عدوانا عسكريا على مصر عام ١٩٥٦، بالتعاون مع إسرائيل ودون تشاور معها، وسنحت لها الفرصة لوراثة نفوذهما فى منطقة الشرق الأوسط، وجدت الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة ساحة مناسبة لتمرير ودعم سياستها، حيث استخدمت الجمعية العامة وقرار الاتحاد من أجل السلام لوقف العدوان على مصر وتشكيل قوات طوارئ دولية تشرف على انسحاب المعتدين.

غير أن الرياح ما لبثت أن جاءت بما لا تشتهى السفن الأمريكية. فبعد حصول العديد من المستعمرات على استقلالها وانضمامها إلى الأمم المتحدة وتشكيلها لحركة دولية جديدة، هى حركة عدم الانحياز، بدأت تتغير تدريجيا خريطة القوى السياسية فى النظام الدولى وراحت تعكس نفسها على خريطة وموازين القوى داخل الجمعية العامة للأمم المتحدة. فقد أصبحت دول العالم الثالث تشكل الأغلبية العددية المطلقة داخل الجمعية العامة، وحدث تحالف موضوعى بينها وبين دول الكتلة الشرقية حول قضايا عديدة مثل: تصفية الاستعمار ورفض القواعد العسكرية الأجنبية ومقاومة الأحلاف العسكرية وقضايا التنمية وغيرها. وبالتدريج بدأت الولايات المتحدة تضيق ذرعا بالخطاب الأممى الجديد الذى كانت تعكسه القرارات الصادرة عن الجمعية العامة والذى بدأ يركز على ضرورة إقامة «نظام عالمى جديد» فى جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وحتى الإعلامية. غير أن القشة التى قصمت ظهر البعير، كما يقولون، جاءت مع تبنى الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار الذى يعتبر الصهيونية لونا من الوان العنصرية، وكان بداية لحملة أمريكية وعالمية منظمة بالغة العنف ضد الأمم المتحدة والمنظمات المتخصصة المرتبطة بها. ووصلت هذه الحملة ذروتها بوصول تيار المحافظين الجدد بقيادة ريجان إلى السلطة. وشهدت هذه المرحلة محاولات متعددة لتكسير العظام تمثلت فى انسحاب الولايات المتحدة، لفترات قصيرة أو طويلة من عدد من المنظمات المتخصصة (منظمة العدل الدولية ثم منظمة اليونسكو) و/أو بالامتناع عن سداد حصصها المالية كاملة فى المنظمات التى لا ترضى عنها. غير أن الأمر لم يصل إلى حد الانسحاب من الأمم المتحدة نفسها، فقد أثبتت التطورات السياسية أنه ما زال للأمم المتحدة دور مفيد تلعبه من وجهة النظر الأمريكية، خاصة بعد الغزو السوفيتى لأفغانستان. فقد كان بالإمكان الحصول على قرارات بأغلبية ساحقة من الجمعية العامة تدين الغزو السوفيتى وتشكل غطاء مشروعا لسياسة دعم المقاومة المسلحة للاحتلال السوفيتى لأفغانستان.

وتبدو عزلة الولايات المتحدة داخل الأمم المتحدة خلال النصف الثانى من مرحلة الحرب الباردة واضحة جلية ليس فقط داخل الجمعية العامة، حيث كانت الولايات المتحدة تصوت فى معظم الأحوال مع الأقلية، ولكن أيضا داخل مجلس الأمن، حيث بدأت الولايات المتحدة مضطرة ولأول مرة فى استخدام الفيتو، ثم راحت تسرف فى استخدامه لتنقلب الأية وتصبح الولايات المتحدة وليس الاتحاد السوفيتى هو الأكثر استخداما للفيتو على الإطلاق داخل مجلس الأمن، وبالتالى تبدو وكأنها أصبحت العقبة الرئيسية أمام إعمال الشرعية الدولية. وتشير الأرقام إلى أن الولايات المتحدة استخدمت الفيتو ١٢ مرة خلال الفترة ١٩٦٦-١٩٧٥ (مقابل ٧ مرات للاتحاد السوفيتى خلال الفترة نفسها)، واستخدمته ٣٤ مرة خلال الفترة ١٩٧٦-١٩٨٥ (مقابل ٦ مرات للاتحاد السوفيتى خلال الفترة نفسها). وبذلك يكون معدل استخدام الولايات المتحدة للفيتو قد زاد بنحو ٤٦ ضعفا خلال النصف الثانى من مرحلة الحرب الباردة، مقارنة بالنصف الأول الذى لم تستخدم فيه الفيتو على الإطلاق، وأصبح يمثل أكثر من ثلاثة أضعاف معدل استخدام الاتحاد السوفيتى له.

[٣]

بوصول جورباتشوف إلى السلطة فى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٨٥ وبدأ إصلاحاته السياسية والاقتصادية، من خلال سياسة المكاشفة والبيروسترويكا، دخل النظام الدولى مرحلة جديدة كانت فى الواقع مرحلة انتقالية. وساعدت هذه الإصلاحات فى البداية على إحداث تقارب أمريكى سوفيتى غير مسبوق انعكس إيجابا على الأمم المتحدة ودورها، خاصة فيما يتعلق بقدرتها على إيجاد تسويات سلمية للمنازعات الدولية. فقد شهدت الفترة ١٩٨٦-١٩٩٠ نشاطا ملحوظا للتوصل إلى تسويات لعدد كبير من الأزمات مثل: الأزمة الأفغانية، والحرب العراقية الإيرانية، و الأزمة الكمبودية، وأزمات الجنوب الإفريقى..الخ. ويبدو أن الاتحاد السوفيتى كان يراهن خلال هذه الفترة على قيادة ثنائية لنظام دولى تلعب فيه الأمم المتحدة دور المخرج المنفذ لما يتم الاتفاق عليه من سيناريوهات مع الولايات المتحدة. غير أنه تبين فيما بعد أن التسويات التى تمت خلال هذه الفترة جاءت نتيجة لتغيير موقف الاتحاد السوفيتى منها، بسبب ضعفه الشديد وأزمته الخانقة، وليس العكس. وهذا هو ما كشفت عنه الأزمة الكويتية.

فعندما اندلعت الأزمة العالمية التى تسبب فيها الغزو العراقى للكويت فى ٢ أغسطس عام ١٩٩٠ كان حائط برلين قد سقط وانتهت الحرب الباردة بالفعل. ولاحت فرصة نادرة ليس فقط لإحياء نظام الأمن الجماعى كما ورد فى الميثاق ولكن لاستكمال مقوماته و ربما لتطويره أيضا، بعد أن طالب بوش، وغيره من زعماء العالم، بإقامة «نظام عالمى جديد» تلعب فيه الأمم المتحدة الدور الرئيسى فى المحافظة على السلم والأمن فى العالم. فقد أوحى هذا الشعار الجديد بأن الطريق أصبح مفتوحا لتشغيل نظام الأمن الجماعى، بنصه وروحه، لأن الحرب الباردة، والتى اعتبرت مسئولة عن تعطيله، كانت فى طريقها إلى الانتهاء. وفى هذا السياق بدأ مجلس الأمن يتصرف تجاه الأزمة الكويتية بطريقة مختلفة تماما وغير معهودة. فقد اجتمع أكثر من مرة على مستوى وزراء الخارجية، وأشار فى قراراته جميعها، صراحة ولأول مرة، أنه يتصرف وفقا للفصل السابع، وبدأ يطبق نظام العقوبات المنصوص عليه فى الميثاق بحذافيره وبطريقة بالغة القسوة والصرامة.

غير أن مسار الأحداث كشف فيما بعد، وللأسف الشديد، حقيقة أن هذا الشعار لم يقصد به سوى المحافظة على تماسك تحالف دولى تشكل فى مواجهة، وبسبب أخطاء، العراق، وأن إحياء نظام الأمن الجماعى لم يكن مطروحا أصلا على أجندة الإدارة الأمريكية. ولذلك ما إن حصلت الولايات المتحدة على القرار ٦٧٨، والذى يفوض التحالف الدولى الذى تقوده باستخدام القوة ضد العراق، حتى احست بأنها أصبحت حرة تماما وطليقة الحركة. ولذلك أصيب مجلس الأمن بالسكتة القلبية خلال الفترة الممتدة من ٢٩ نوفمبر ١٩٩٠ (تاريخ صدور قرار التفويض) وحتى نهاية الحرب فى مارس ١٩٩١. وقد اعتبر بعض الباحثين أن



الولايات المتحدة لم تكن فى نهاية المطاف سوى واحدة من ثلاث دول كبرى متحالفة ومنتصرة فى الحرب العالمية الثانية قام على أكتافها نظام الأمن الجماعى الذى شكل العمود الفقرى للأمم المتحدة























مجلس الأمن تعرض خلال هذه الفترة لعملية اختطاف. فلم يكن بوسع المجلس أن يجتمع وأن يتداول بشكل طبيعى حول تطورات الأوضاع والاقتراحات المقدمة للتسوية، و لم تكن له أى سيطرة أو إشراف أو حتى علم بسير العمليات العسكرية. ولذلك لم يكن غريبا أن يصرح السكرتير العام للأمم المتحدة وقتها (بيريز دى كويلار) بأن هذه الحرب ليست حرب الأمم المتحدة. ولم يكن أمام مجلس الأمن من خيار آخر سوى وضع خاتمه على القرار ٦٨٧ الذى أملته الخارجية الأمريكية وأدى إلى وضع العراق تحت الوصاية الدولية أو بالأحرى تحت الوصاية الأمريكية. فحقيقة الأمر أن الولايات المتحدة أدارت أزمة الكويت بالطريقة التى تحقق لها هدفين رئيسيين. الأول: ضمان تواجد أمريكى عسكرى كبير ودائم فى منطقة الخليج. والثانى: التعجيل بانهيار الاتحاد السوفيتى عن طريق إثبات عجزه وتدهور مكانته فى النظام الدولى. وقد تمكنت بالفعل من تحقيق هذين الهدفين بالكامل. غير أن تأثير هذه السياسة على الأمم المتحدة كان سلبيا للغاية. فقد أدى رفع شعار «النظام العالمى الجديد»، والدور الهائل الذى لعبه مجلس الأمن إبان المرحلة الأولى للأزمة إلى رفع درجة التوقعات المطلوبة من الأمم بطريقة لم تكن الولايات المتحدة على استعداد لمسايرتها. ولذلك ما لبثت الفجوة بين السياسة الفعلية للولايات المتحدة وبين ما يتوقعه الرأى العام من الأمم المتحدة أن إتسعت إلى أن باتت على طرفى نقيض.

وقد برزت هذه الفجوة أولا فى سياق تطورات الأزمة العراقية فى مرحلة ما بعد تحرير الكويت. فقد فرضت مناطق محظورة على الطيران العراقى بقرارات من خارج إطار الشرعية الدولية، ودون استشارة مجلس الأمن، واستخدمت القوة العسكرية مرات متكررة ضد العراق بسبب خلافات حول عمل لجنة التفتيش الدولية وبدون تصريح من مجلس الأمن، وثبت أن عددا من أعضاء لجنة التفتيش كانوا يعملون جواسيس لصالح الولايات المتحدة وإسرائيل ويتلقون تعليماتهم من مصادر غير السكرتير العام بالمخالفة الصريحة لأحكام القوانين والأعراف الدولية. وقد ساهم ذلك كله فى إضعاف هيبة ومصداقية الأمم المتحدة.

وبعد انتهاء حرب «تحرير الكويت» لم تظهر القوى الكبرى، خاصة الولايات المتحدة، أى حماس لإصلاح هياكل ومؤسسات الأمم المتحدة الموروثة عن الحرب الباردة وظلت هذه الهياكل، وخاصة ما يتصل منها بنظام الأمن الجماعى، كما كانت عليه دون أى تغيير ودون أى محاولة جادة لإحياء ما تجمد منها. فقد ظلت «لجنة أركان الحرب» التابعة لمجلس الأمن حبرا على ورق، ولم تدخل المادة ٤٣ الخاصة بإنشاء جيش دولى حيز التنفيذ..الخ. ومع ذلك فقد حدث تغير جوهرى فى أسلوب إدارة الأمم المتحدة للأزمات الدولية نتيجة للتغير الذى حدث فى موازين القوة فى النظام الدولى بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وأصبح تفعيل دور الأمم المتحدة أو تهميشها مرتبطا بوجود أو انتفاء المصلحة الأمريكية وحدها.



كوفى عنان





جون بولتون

وقد لوحظ أن درجة انخراط الأمم المتحدة فى الأزمات الدولية زاد زيادة كبيرة جدا وغير مسبوقة خلال السنوات الخمس التى أعقبت الحرب الباردة قبل أن تعود للتراجع بسرعة بعد ذلك. فخلال هذه الفترة القصيرة وحدها قامت الأمم المتحدة بعدد من العمليات يكاد يوازى ما سبق لها أن قامت به من عمليات فى تاريخها كله. وبعد أن كانت نفقات عمليات حفظ السلام لا تتجاوز مبلغ ٨٠٠ مليون دولار قبل نهاية الحرب الباردة فإنها وصلت إلى أربعة بلايين دولار فى عام ١٩٩٣. لكن الفشل الذى واجه هذه العمليات وخاصة فى الصومال وفى يوغوسلافيا أدى إلى تقلص نشاط الأمم المتحدة مرة أخرى، حجما ونوعا، فى هذا المجال. وتراجعت نفقات حفظ السلام إلى ١٫٣ بليون دولار عام ١٩٩٦ ثم إلى حوالى ٩٠٠ مليون دولار عام ١٩٩٨، أى إلى المستوى الذى كانت عليه تقريبا قبل نهاية الحرب الباردة.

وعلى الرغم من وجود أسباب كثيرة تفسر فشل العديد من عمليات حفظ السلام التى قامت بها الأمم المتحدة فى النصف الثانى من التسعينيات ثم تراجع هذه العمليات كليا بعد ذلك، إلا أن مسئولية الولايات المتحدة عن هذا الوضع تعتبر هى الأهم والأخطر وذلك للأسباب التالية:

١. الرفض التام للأفكار الرامية إلى تشكيل قوات دولية دائمة تكون تحت تصرف مجلس الأمن، سواء فى إطار نص المادة ٤٣ من الميثاق أو فى إطار المقترحات التى تقدم بها السكرتير العام للأمم المتحدة وضمنها «خطة السلام» التى أعدها بناء على طلب من مجلس الأمن.

٢. الإصرار على عدم وضع أى قوات أمريكية مشاركة فى عمليات حفظ السلام تحت قيادة الأمم المتحدة، و على أن تتم هذه المشاركة إما تحت قيادة أمريكية مستقلة و/أو فى إطار عملية منفصلة تمهد لعملية الأمم المتحدة، مما عقد من عمليات الإعداد والتنسيق.

٣. عدم الاستعداد لتحمل أى خسائر بشرية فى الميدان والمسارعة بالفرار عند أول احتكاك (وهو ما حدث فى الصومال مثلا وتسبب فى انهاء مهمة الأمم المتحدة هناك).

٤. عدم الوفاء بالتزاماتها المالية تجاه الأمم المتحدة. وقد بلغت جملة المتأخرات المالية للولايات المتحدة تجاه الأمم المتحدة عند نهاية الحرب الباردة ١٫٧ بليون دولار أى أكثر من ثلثى إجمالى مديونية الدول الأعضاء. من هذه المبالغ حوالى ٧٠٠ مليون دولار تخص الميزانية العادية وحوالى بليون دولا تخص ميزانية قوات حفظ السلام. ويعتبر إصرار الولايات المتحدة على عدم الوفاء بالالتزامات هو المسئول الرئيسى عن إحجام الأمم المتحدة عن القيام بعمليات جديدة أو التأخر فى الاستجابة للمواقف الطارئة مما تسبب أحيانا فى كوارث رهيبة. والمثال الواضح على ذلك ما حدث فى رواندا حيث لم تتمكن الأمم المتحدة من أداء دورها على الوجه الأكمل، وهو ما تسبب فى مذابح وعمليات إبادة جماعية راح ضحيتها ما يقرب من مليون شخص.

فى هذا السياق يتضح أن الأمم المتحدة تعرضت أولا لأزمة ثقة و فقدت مصداقيتها حتى عندما كانت فى ذروة نشاطها إبان الفترة القصيرة التى أعقبت انتهاء الحرب الباردة مباشرة، وذلك بسبب الانتقائية واعتماد معايير مزدوجة فى تعاملها مع الأزمات الدولية. وكان تحدى منظمة الوحدة الإفريقية لمجلس الأمن، بسبب موقفه من أزمة لوكربى، أحد النماذج البارزة على التآكل التدريجى لهيبة الأمم المتحدة. وبعد فقدان الثقة والمصداقية عادت الأزمة المالية من جديد لتهدد الأمم المتحدة بخطر العجز والشلل الكامل وبدأت تحجم عن القيام بأى عمليات نوعية لحفظ السلام تحت دعوى خفض النفقات الذى ما برحت الولايات المتحدة تصر عليه. غير أن الأمر لم يقتصر على محاولة تهميش دور الأمم المتحدة من خلال الضغط المادى والحرمان من الموارد المالية. فقد وصلت الاستهانة بالأمم المتحدة حدا جعل حلف شمال الأطلسى يقرر استخدام القوة العسكرية ضد يوغوسلافيا دون أن يكلف نفسه عناء السعى للحصول على إذن أو تصريح بذلك من مجلس الأمن. وكان ذلك هو البداية العملية لانكشاف موقع ومكانة الأمم

الأمم المتحدة شكلت بالنسبة للولايات المتحدة إضافة مهمة للعمل الدبلوماسى المثمر والمفيد جدا، ولم تمثل، حتى نهاية الستينيات على الأقل، أى عائق أو تشكل عبئا حقيقيا















المتحدة الحقيقية فى عصر الهيمنة الأمريكية المنفردة.

[٤]

منذ ذلك الحين والولايات المتحدة تمارس سياسة منظمة تستهدف احتواء الأمم المتحدة وتطويعها بما يتناسب مع الطموح الأمريكى فى الانفراد بقيادة النظام الدولى. ومع ذلك يوجد فرق واضح بين أسلوب الديمقراطيين والجمهوريين فى إدارة النظام الدولى، بصفة عامة، وفى التعامل مع الأمم المتحدة، بصفة خاصة، بعد انتهاء الحرب الباردة. فقد ساعد وصول كلينتون إلى السلطة على تبنى مفهوم للقيادة لا يقوم على فرض وجهة النظر الأمريكية، إلا عند الضرورة القصوى، ويفسح مجالا للتشاور خاصة مع الشركاء الأوروبيين. غير أن وصول المحافظين الجدد للسلطة بقيادة بوش أدى، خصوصا فى ضوء أحداث سبتمبر، إلى اعتماد مفهوم الهيمنة المنفردة بديلا لمفهوم القيادة، ودون أى اعتبار للقانون الدولى أو للشرعية الدولية. وحين أصرت الإدارة الأمريكية على شن حرب جديدة على العراق دون مبرر قانونى واضح لم تتحمل هذه الإدارة أن يهددها أحد باستخدام الفيتو ولم تتردد فى شن الحرب رغم أنف مجلس الأمن. فقد أصبحت هذه الإدارة الأمريكية تتعامل مع المؤسسات الدولية وعلى رأسها الأمم المتحدة باعتبارها عقبة تعوق تنفيذ مخططاتها. ولأن الولايات المتحدة لا تستطيع، وربما لا ترغب أيضا فى إزالة هذه العقبة كلية، فلم يكن هناك بد من العمل على إعادة تشكيلها، بالعصا والجزرة، لتصبح أداة طيعة تماما فى يدها.

فى هذا السياق لم يكن غريبا أن يتخذ الرئيس جورج دبليو بوش مؤخرا قرارين أفصحا فى الواقع عن تطور جديد فى سياسة الإدارة الأمريكية تجاه المؤسسات الدولية عموما وتجاه منظومة الأمم المتحدة على وجه الخصوص. القرار الأول كان ترشيح جون بولتون، نائب وزير الخارجية لشئون الرقابة على التسلح والأمن الدولى، لشغل منصب المندوب الدائم للولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة، خلفا لنجروبونتى الذى أصبح مسئولا عن مجمل أجهزة الأمن الأمريكية. أما القرار الثانى فكان ترشيح بول ولفووتز، النائب الأول لوزير الدفاع، لرئاسة البنك الدولى خلفا لولفنسون. وينتمى الاثنان، بولتون وولفووتز، إلى جناح الصقور فى الإدارة الأمريكية التى يسيطر عليها المحافظون الجدد، وتجمع بينهما سمات مشتركة أولها: الاحتقار الشديد لكل ما يمت للمؤسسات الدولية بصلة، وخاصة تلك التى لا تهيمن عليها الولايات المتحدة، والنظر إلى أنشطتها بعين الشك والريبة وكأنها أنشطة هدامة ومناهضة بطبيعتها للسياسة الأمريكية. وثانيها: تأييدهما المطلق وغير المشروط لإسرائيل. ومن المعروف أن بولتون كان عضوا نشطا فى إدارة المجلس الاستشارى للمعهد اليهودى لشئون الأمن القومى، كما أن بعض أفراد عائلة ولفووتز، من بينهم شقيقته، يقيمون فى إسرائيل. وثالثها: إيمانهما المطلق بحق الولايات المتحدة الذى لا ينازع فى الهيمنة على العالم، وبأن هذه الهيمنة ليست لصالح الولايات المتحدة وحدها، ولكن لصالح شعوب الأرض قاطبة، بل وضرورة من ضرورات تحقيق السلم والأمن الدوليين. ومن المعروف أن كليهما لعب دورا بارزا فى بلورة وصياغة التقرير الشهير المعروف باسم «مشروع القرن الأمريكى الجديد»، الصادر عام ١٩٩٧، والذى أصبح بمثابة الدليل المرشد للإدارة الأمريكية الحالية، سياسيا وأيديولوجيا.

لم يكن ولفووتز هو الشخص الأنسب، حتى بالمعايير الأمريكية النمطية، لقيادة مؤسسة مالية دولية فى حجم البنك الدولى، وذلك لأسباب موضوعية بحتة. فلم يكن لهذا الرجل علاقة فى أى يوم من الأيام بأوساط المال او الاقتصاد أو الإدارة. فخلفيته العلمية والأكاديمية المباشرة تتصل بحقل آخر وهو حقل العلوم السياسية. ومن المعروف أنه حصل على درجة الدكتوراه فى العلوم السياسية من جامعة شيكاجو، وقام بتدريس العلوم السياسية والعلاقات الدولية فى جامعتى ييل وجونز هوبكنز، وهما من أشهر الجامعات الأمريكية. غير ان وولفوتز لم يشتهر كأكاديمى أو كباحث متميز فى أى من هذين المجالين، ولكنه اشتهر كمنظر ايديولوجى لفكر المحافظين الجدد، وكناشط سياسى مؤيد لإسرائيل وللمنشقين الإيرانيين والعراقيين، وأصبح من أشد المطالبين بإسقاط النظامين العراقى والإيرانى، وهو ما رشحه لشغل مناصب سياسية رفيعة فى وزارتى الخارجية والدفاع منذ وصول اليمين الأمريكى المحافظ بقيادة ريجان إلى السلطة.

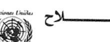
صحيح أن شغل ولفووتز لهذه المناصب أكسبه خبرات إدارية، حيث بلغ مجموع السنوات التى قضاها كموظف عمومى ما يقرب من ثلاثين عاما، غير أن هذه الخبرة ظلت محدودة وذلك لسبب بسيط وهو أن المواقع التى شغلها كانت فى معظم الأحوال بحثية وفكرية أكثر منها أدارية أو تنظيمية. وقد ثبت بالدليل القاطع، من الناحية العملية، أن أفكاره وأحكامه وتقديراته ذات الصلة بوضع السياسات ورسم الخطط قادت إلى كوارث. فقد كان من أشد المروجين لمقولة ان صدام حسين يمتلك من أسلحة الدمار الشامل ما يكفى لتهديد العالم بأسره، ولم يكن مجرد واحد من مهندسى الحرب على العراق ولكنه كان من أكثرهم حماسا وتقليلا للعواقب. فقد أكد مرارا وتكرارا على أن الولايات المتحدة لن تحتاج إلا إلى أقل من عشرة آلاف جندى للسيطرة على الأوضاع فى العراق عقب إسقاط صدام، وقدر التكلفة الإجمالية للحرب ولإعادة الإعمار معا بين ٦٥-٩٥ بليون دولار. غير أن ما نراه الان على أرض الواقع يكذب كل هذه التقديرات تماما. فقد ثبت عدم وجود أسلحة دمار شامل فى العراق. ويبلغ عدد الجنود الذين يحاربون هناك الآن، وبعد أكثر من سنتين من إسقاط نظام صدام حسين، ١٧٠٠٠٠ مقاتل، علاوة على ٣٠٠٠٠ آخرين فى كل من الكويت وقطر، وهى أعداد قابلة للزيادة وليس للانخفاض. أما التكلفة الإجمالية فتتراوح بين ٢٥٠-٣٥٠ بليون فى متوسط التقديرات. فكيف يستطيع شخص ثبت فشله إلى هذا الحد أن يقود مؤسسة فى حجم وخطورة البنك الدولى؟

اختيار بوش لولفووتز يعود، فى تقديرى، إلى اسباب أيديولوجية وليست فنية. فهذا الرجل يؤمن إيمانا عميقا بأن القرن الحالى يجب أن يكون قرنا للهيمنة الأمريكية المطلقة على العالم، وهو على استعداد لاستخدام كل الوسائل، الأخلاقية منها وغير الأخلاقية، لتحقيق هذا الهدف. وقد نسب إليه قوله فى تعريف معنى القيادة: أن «القيادة شىء يختلف عن القدرة على تقديم النصح أو اتخاذ المواقف الاستعراضية.. فهى تعنى أولا وقبل كل شىء «القدرة على حماية الأصدقاء ورعايتهم، ومعاقبة الأعداء وردعهم، ودفع كل من يرفض تقديم العون للندم يوما ما على فعلته النكراء»!. وفى تقديرى أن ولفووتز جاء وفى نيته تحويل البنك الدولى، وهو أحدى وكالات الأمم المتحدة المتخصصة، إلى بنك أمريكى: يقدم القروض بسخاء لأصدقاء أمريكا ويمنعها عن أعدائها، ويخيف كل من تسول له نفسه عدم الانصياع للطلبات الأمريكية بأنه سيعض على اصابعه ندما لأنه تجرأ يوما على أن يقول لا لسيد العالم الجديد.

وقد تبدو الصورة التى نرسمها لولفووتز، على هذا النحو، بشعة بالنسبة للبعض. غير أن هؤلاء سرعان ما يكتشفون أنها أقرب إلى صورة الملاك الطاهر أو الحمل الوديع إذا ما وضعت إلى جانب صورة جون بولتون، سفير أمريكا الجديد لدى الأمم المتحدة، والذى سنراه خلال السنوات القادمة فى مقعد رئيس مجلس الأمن. فهذا الرجل، والذى درس القانون فى جامعة ييل أيضا وأصبح واحدا من كبار المحامين يحلل الحرام ويحرم الحلال. ولو أن أبواب المناصب الرسمية الرفيعة لم تكن قد فتحت أمامه من خلال وصول المحافظين الجدد إلى السلطة، فلربما كان قد أصبح زعيما لإحدى عصابات المافيا أو غسيل الأموال. فقد بنى شهرته على كيفية التحايل على القوانين المنظمة للحملات الانتخابية وعثر فيها على ثغرات كثيرة مكنته من مساعدة كثيرين على استخدام الأموال غير المشروعة فى دعم الحملات الانتخابية لعتاة الجمهوريين من المحافظين الجدد. ثم استخدم بعد ذلك كرأس حربة «لتنظيف» وزارة العدل من سطوة الليبراليين الأمريكيين!. فجون بولتون لا يعد مجرد واحد من كبار الشخصيات الأمريكية المعادية للمؤسسات الدولية المتعددة الأطراف، لكنه يعد كذلك من أشدها احتقارا للقانون الدولى ونفورا منه. فقد نشرت له صحيفة وول ستريت جورنال عام ١٩٩٧ مقالا يؤكد فيه على أن المعاهدات لا تعد قانونا إلا فى الحدود اللازمة للاستخدام المحلى فى الولايات المتحدة. أما على الصعيد الدولى فهى، عمليا، ليست سوى تعبير عن ترتيبات سياسية، وبالتالى لا يمكن النظر، فى تقديره، للمعاهدات الدولية التى توقعها الولايات المتحدة كقوانين ملزمة واجبة الاحترام، ولكن

تبدو عزلة الولايات المتحدة داخل الأمم المتحدة خلال النصف الثانى من مرحلة الحرب الباردة واضحة جلية ليس فقط داخل الجمعية العامة، ولكن أيضا داخل مجلس الأمن



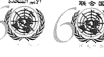












كضرورة سياسية لا ضرر من التحلل منها مع تغير الظروف. ولذلك لم يكن غريبا ان يلقى جون بولتون بكل ثقله لدفع الولايات المتحدة إما للتحلل من اتفاقيات دولية صدقت عليها ومن التزامات دولية أبرمتها، أو للتراجع عن التصديق على اتفاقيات وقعتها، أو للعزوف عن المشاركة أصلا فى بلورة اتفاقات دولية يحتاجها المجتمع الدولى لتنظيم وضبط العلاقات بين وحداته. ومن المعروف ان جون بولتون كان من أبرز المعارضين لتوقيع الولايات المتحدة على اتفاقية روما الخاصة بإنشاء محكمة الجنايات الدولية، وسخر ممن ساهموا فى صياغتها إلى حد اتهامهم بالرومانسية البلهاء، فهو ينظر إلى هذه الاتفاقية على أنها product of fuzzy-minded romanticism، وتعكس، فى تقديره، تفكيرا ليس ساذجا فقط وإنما خطرا أيضا!.

إن من يفكر على هذا النحو لا بد أن يضمر فى قرارة نفسه أشد أنواع الازدراء للتنظيم العالمى وبالتالى لا يستغرب منه اعتبار الأمم المتحدة مجرد شىء تافه لا قيمة له ولا يقدم أو يؤخر. وقد نسب إلى جون بولتون قوله: «لو أن سكرتارية الأمم المتحدة فقدت عشرة طوابق من مبناها فى نيويورك فلن يتغير شىء فى هذا الكون. غير أن ذلك لا يمنعه من تقدير أهمية وقيمة المؤسسات متعددة الأطراف التى تحتل فيها الولايات المتحدة موقعا قياديا، ويؤمن بالعمل الجماعى المتعدد الأطراف حين يقوم على تحالف الراغبين coalition of the willing، شريطة أن يكون هذا التحالف بقيادة الولايات المتحدة بالطبع.

تجدر الإشارة إلى أن هذا الرجل، والذى ساهم فى تاسيس منظمة أمريكية غير حكومية تسمى «الرابطة الفيدرالية the Federalist Society» لا يكن أى احترام للمجتمع المدنى الدولى. فأهم ما أنجزته هذه الرابطة هو مشروع NGOWATCH، والذى استهدف تتبع ومراقبة المنظمات الدولية غير الحكومية التى يعتقد أنها تمارس أنشطة مناهضة للسياسة الأمريكية أو معادية لها. فما الذى يمكن أن نتوقع من رجل كهذا حين يجلس فى مقعد أمريكا الدائم فى مجلس الأمن؟. وفى تقديرى أن بوش أتى بهذا الرجل لتأديب الأمم المتحدة وإشهار العصا فى وجه كل من تسول له نفسه التذكير بالقانون الدولى. فهذا الرجل يعتقد مؤمنا أنه لا مكان فى الأمم المتحدة إلا للقانون الأمريكى الذى هو قانون الأمم المتحضرة وبالتالى فهو القانون الوحيد الملزم والواجب الاحترام، وأى خروج عليه لا بد أن يستتبعه توقيع الجزاء ليس فقط من جانب المؤسسات الأمريكية ولكن أيضا وعلى وجه





الخصوص من جانب مجلس الأمن نفسه، والذى سيصبح أداة قمع فى يد كونداليزا رايس حتى نهاية عام ٢٠٠٨.

وحين يحتل أمثال بولتون مقعد الرئاسة فى مجلس الأمن ويصبح ولفووتز رئيسا للبنك الدولى لا بد أن ندرك فعلا أن القرن الأمريكى الجديد لم يعد مجرد مشروع وإنما تحول إلى برنامج يجرى الآن تنفيذه على أرض الواقع أمام أعيننا.

[٥]

لم يكن كوفى عنان مفرطا فى حسن ظنه حين تصور أن العيد الستين للأمم المتحدة يمكن أن يشكل مناسبة لانطلاقة جديدة تستعيد بها المنظمة الدولية العتيقة دورها المتآكل والمهمش فى النظام الدولى، ويتيح فرصة إضافية يتعين اعتناقها لمحاولة بعث روح جديدة فى مؤسسة بدت عليها أعراض شيخوخة مبكرة وراحت تسيطر عليها مشاعر يأس واحباط بفعل فوضى عارمة تضرب فى جنبات النظام الدولى وتكاد تصيبه فى مقتل. ومن الناحية المنطقية، لم يكن فى تصور كهذا أى نوع من الشطط أو حتى الرومانسية المفرطة. فالمؤسسات الدولية، شأنها شأن الأمم والشعوب، قادرة، نظريا على الأقل، على تجديد شبابها ومواصلة حركتها وتقدمها شريطة أن تتوافر لدى صناع القرار فيها إرادة سياسية للتطوير والإصلاح ونقل الراية والقيادة من جيل إلى جيل أكثر تأهيلا وعزما وتصميما. ومن الطبيعى أن تختلف المؤسسات، من هذه الزاوية، اختلافا جوهريا عن الأفراد العاديين من البشر. فشيخوخة البشر هى علامات موت محقق قادم لا محاولة، وبالتالى تستدعى الانسحاب من الحياة العامة بهدوء فى الوقت المناسب بمجرد الإصابة بأعراضها، أما شيخوخة المؤسسات فهى أجراس إنذار تدق منبهة ومنذرة لمن شاء أن يتدبر ويصلح ويجدد.

ولا جدال فى أن كوفى عنان كان يدرك إدراكا واعيا أن خريطة وموازين القوى الحالية لا تسمح بقفزات كبيرة أو ضخمة على طريق إصلاح مؤسسات دولية كانت قد أفرزتها تفاعلات وموازين حرب عالمية ثانية تجاوزتها الأحداث. وأنه يتعين عليه، من ثم، أن يتحسس طريقه بحرص وحذر كبيرين. ولذلك راح يستعد للحدث الكبير ويعد له بهدوء وحذر بالغين، ومنذ فترة طويلة. فقام، فى سياق هذا الاستعداد، باتخاذ سلسلة طويلة من الإجراءات التى استهدفت خفض النفقات وإصلاح الهياكل الإدارية للمنظمة، وبما يتماشى مع مطالب الولايات المتحدة التى لم تتوقف عن ممارسة ضغوط هائلة من أجل إنجازها، بل والتى كثيرا ما كانت تتعلل بوتيرتها البطيئة لتبرير عدم الوفاء بالتزاماتها المالية. وفى سياق هذا الاستعداد أيضا قام كوفى عنان بتشكيل فرق عمل عديدة استهدفت دراسة الأوضاع الدولية الحالية وتشخيص أمراض التنظيم الدولى المعاصر من جميع جوانبه، خاصة ما يتعلق منها بمصادر التهديد المباشر لحياة البشر والدول والمجتمعات، القديم منها والمستحدث، واقتراح السبل الكفيلة بمواجهتها وإزالتها أو القضاء عليها. وكان عنان شديد الحرص على إشرك شخصيات راعى فيها أن تكون ممثلة لكل القوى والتجمعات الدولية، خاصة الغربية عموما والأمريكية على وجه التحديد. وكان من بين هذه الفرق، وربما من أهمها، «الفريق رفيع المستوى» والذى شكل منذ حوالى عامين لدراسة «التهديدات والتحديات التى تواجه العالم واقتراح التغييرات الملائمة لمواجهتها».

لم يفعل الأمين العام أكثر من جمع وتلخيص ما توصلت إليه هذه الفرق من استنتاجات واقتراحات عرضها فى تقرير مركز أسماه «فى جو من الحرية أفسح» وأرسله إلى جميع الدول الأعضاء قبل انعقاد الدورة الستين للجمعية العامة للأمم المتحدة بوقت كاف. وكان عنان يأمل أن تشكل هذه الوثيقة أساسا لتوافق دولى يجدد شباب المنظمة العجوز ويعيد إليها بعضا من حيويتها المفقودة. وعلى هذا الأساس قام كوفى عنان بتوجيه الدعوة إلى جميع الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة راجيا حضور القادة بأنفسهم ومشاركتهم فى حوار حول هذه الوثيقة على مدى الأيام الثلاثة الأولى (١٤-١٦ سبتمبر) لانعقاد الدورة العادية للجمعية، آملا فى إقرارها.

والواقع أن من يفحص النص الأصلى لهذه الوثيقة يجده شديد التواضع فى طموحه إلى درجة رأى البعض فيها انحناء غير مقبول لسقف المطالب الأمريكية المصرة على تقزيم الأمم المتحدة وتحجيم دورها. ففى جانب التشخيص لم يكن بوسع النص الأصلى أن يتجنب الإشارة إلى الأرقام المفزعة التى وردت فى تقرير الفريق رفيع المستوى والتى أكدت على أن أكثر ما

لو أن أبواب المناصب الرسمية الرفيعة لم تكن قد فتحت أمام بولتون من خلال وصول المحافظين الجدد إلى السلطة، فلربما كان قد أصبح زعيما لإحدى عصابات المافيا أو غسيل الأموال






يهدد حياة البشر فى العالم هو الفقر، والأمراض المعدية، والكوارث الطبيعية، والجريمة المنظمة، والاتجار غير المشروع فى السلاح وفى المخدرات. صحيح أنه لم يقلل من المخاطر الأخرى وبالذات مخاطر الإرهاب وانتشار أسلحة الدمار الشامل، لكنه أوضح بجلاء أن أعداد الذين يموتون من مصادر التهديد الأولى أكبر بكثير من الثانية. بل لوحظ أن النص الأصلى كان شديد الحرص على تبنى الأرقام الأكثر تواضعا حتى ولو لم تكن الأقرب احتمالا. أما فى جانب الحلول واقتراح وسائل العلاج والمواجهة فقد كان شديد التواضع. وعلى سبيل المثال ففيما يتعلق بمكافحة الفقر، حيث أكد التقرير على أن بليون شخص يعيشون على أقل من دولار يوميا وأن ١١ مليون طفل يموتون كل عام قبل سن الخامسة بسبب سوء التغذية وتفشى الأمراض، اكتفى بمطالبة الدول الغنية بالوفاء بتعهداتها السابقة بخفض نسبة الفقر فى العالم إلى النصف بحلول عام ٢٠١٥، ولم يقترح أى زيادة فى نسبة الموارد المخصصة للمعونات الدولية، معتبرا أن السقف المحدد منذ الستينيات وهو ٠.٧٪ من إجمالى الدخل العام ما زال مناسبا لتحقيق هذا الهدف. كل ما أضافه عنان فى هذا الصدد مطالبته بجدول زمنى للوصول بمستوى المعونات إلى هذه النسبة بحلول عام ٢٠١٥، على الا تقل عن ٠.٥٪ بحلول العام القادم، أى عام ٢٠٠٦. تجدر الإشارة إلى نسبة ما تخصصه الولايات المتحدة من معونات خارجية ما زال بعيدا جدا عن هذا السقف ولا يتجاوز ٠.١٦٪ يذهب الجزء الأكبر منها إلى إسرائيل.

لفت نظرى أيضا تبنى الأمين العام، وإن بشكل غير مباشر، فكرة «المشروطية»، والتى تقوم على ربط المعونات التى تحصل عليها دول العالم الثالث بالتقدم الذى تحرزه فى مجال احترام حقوق الإنسان والحكم الرشيد وتحرير التجارة وغيرها. ففى معرض حديثه عن «الشراكة العالمية من أجل التنمية» طرح مفهوم «تبادل المسئولية والمساءلة»، وهو ما يعنى الإقرار بمسئولية المجتمع الدولى مسئولية جماعية فى القضاء على الفقر وتحقيق التنمية، فى مقابل الإقرار بحق هذا المجتمع فى مساءلة الدول المتلقية للمعونة ليس فقط عن أوجه وكيفية إنفاقها ولكن أيضا عن مدى التقدم الذى تحرزه وتحققه المعونة المقدمة فى مجال احترام حقوق الإنسان وتعزيز مؤسسات الحكم الرشيد. وربما لا يكون هناك بأس فى ذلك، نظريا على الأقل. الإشكالية الكبرى هنا تتعلق بالجهة التى يحق لها أن تتحدث باسم المجتمع الدولى سواء فيما يتعلق بجمع المعونة من الدول الغنية أو بمساءلة الدول الفقيرة؟ الطبيعى أن تكون المنظمات الدولية، وعلى رأسها الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة هى هذه الجهة. غير أن الأمين العام لم يجرؤ فى الواقع على الذهاب إلى هذا المدى لأنه يعرف موقف الولايات المتحدة الرافض لأى مسئولية جماعية فى مجال التنمية. ليس هذا فقط بل إن النص الأصلى للوثيقة رحب بإنشاء صندوق دولى لدعم الديمقراطية و تشكيل مجلس لحقوق الإنسان يحل محل لجنة حقوق الإنسان التابعة للمجلس الاقتصادى والاجتماعى، وبالتالى للجمعية العامة للأمم المتحدة، وعلى نحو يكاد يكون متطابقا مع الأفكار الأمريكية فى هذا الصدد. كما تبنى النص المقترحات الخاصة بتعديل الميثاق لإلغاء الفقرات التى تشير إلى «الدول المعادية» التى كان يقصد بها دول المحور والدول المتحالفة معها فى الحرب العالمية الثانية، والفقرات الخاصة بنظام الوصاية والمجلس الذى يديره.

الأخطر من ذلك، فى تقديرى، أن النص الأصلى المقترح من جانب الأمين العام طالب أيضا بإلغاء لجنة أركان الحرب، على الرغم من الدور المحورى الملقى على عاتق هذه اللجنة بموجب الميثاق. فهذه اللجنة هى المسئولية عن تحديد حجم ونوعية القوات التى يتعين على الدول وضعها تحت تصرف مجلس الأمن لتمكينه من التدخل العسكرى عند الضرورة، أو لإدارة العمليات العسكرية الميدانية عندما يقرر مجلس الأمن مثل هذا التدخل. صحيح أن الحرب الباردة بين الشرق والغرب خلال مرحلة النظام الدولى ثنائى القطبية حالت دون تفعيل هذه اللجنة، غير أنه لم يعد هناك ما يحول، نظريا على الأقل خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وانتهاء الحرب الباردة، دون إعادة إحياء وتفعيل دور هذه اللجنة. ومع ذلك فقد بدا واضحا أن الأمين العام كان يعلم مسبقا بوجود خط أمريكى أحمر هنا لأن المعروف أن الولايات المتحدة ترفض وضع أى قوات دولية تحت أى قيادة غير أمريكية حتى لو كانت لجنة أركان الحرب التابعة لمجلس الأمن نفسه.



أما فيما يتعلق بتوسيع وإصلاح مجلس الأمن فلم يقدم الأمين العام أى مقترحات جديدة واكتفى بمناشدة قمة العالم الاختيار أى من النموذجين المطروحين فى تقرير الفريق رفيع المستوى. ومن المعروف أن هذا الفريق كان قد اتفق على أن يكون إجمالى عدد المقاعد ٢٤ مقعدا توزع بالتساوى على القارات الأربع، بحيث يخص كل منها ٦ مقاعد، لكنه لم يتفق على كيفية توزيعها. وطرح صيغتين أ و ب. الصيغة أ تتضمن إضافة ٦ مقاعد دائمة جديدة إلى المقاعد الخمسة الحالية، وتوزع كالتالى: إفريقيا (٢)، آسيا (٢)، أوربا (١)، الأمريكتان (١). أما المقاعد الثلاثة عشر المتبقية فهى مقاعد غير دائمة توزع بنسبة: ٤-٣-٢-٤ بالتوالى. أما الصيغة ب فلا تتضمن مقاعد دائمة جديدة، حيث تظل المقاعد الدائمة حكرا على الخمسة الحاليين، وإنما تتضمن ٨ مقاعد شبه دائمة مدتها ٤ سنوات قابلة للتجديد، وتوزع بالتساوى على القارات الأربع (أى بواقع مقعدين لكل قارة)، إضافة إلى ١١ مقعدا غير دائم توزع على القارات الأربع بنسب: ٤-٣-١-٣ على التوالى.

ورغم تواضع ما ورد فى نص الوثيقة المقترحة من جانب الأمين العام، إلا أن نجاح «قمة العالم» فى تبنيها كما هى والاتفاق على أى من الصيغتين المطروحتين لتوسيع مجلس الأمن، كان يمكن أن يشكل نقلة نوعية أو على الأقل خطوة متقدمة على طريق إصلاح وتفعيل دور الأمم المتحدة. غير أنه كان من الواضح تماما، خاصة بعد إصرار الرئيس بوش على تعيين جون بولتون سفيرا فى الأمم المتحدة رغم أنف الكونجرس، أنه من المستحيل تحقيق هذا الهدف المتواضع فى الظروف الحالية. فأحد الأهداف التى سعت إليها الإدارة الحالية من وراء تعيين بولتون هو إجهاض أى محاولة جادة لإصلاح الأمم المتحدة. ويبدو أن بولتون نجح فى أداء أولى مهامه فى الأمم المتحدة بامتياز. فقد بلغت جملة التعديلات التى طلب بولتون إدخالها على النص ٧٥٠ تعديلا. وتمحورت حول رفض الالتزام بجدول زمنى لزيادة مساعدات التنمية، أو الإشارة إلى حق الشعوب فى مقاومة الاحتلال، كما حاول فرض وجهة النظر الأمريكية فيما يتعلق بتعريف الإرهاب والسياسة الواجب اتباعها فى مجال حقوق الانسان والبيئة وغيرها. الأخطر من ذلك إصرار الولايات المتحدة على تأجيل النظر فى إصلاح هياكل الأمم المتحدة.

ورغم تقديم بولتون لبعض التنازلات الشكلية إلا أن النص الذى تبنته قمة العالم بدا فارغا من أى مضمون حقيقى إلى درجة دفعت ببعض زعماء العالم وفى مقدمتهم الرئيس الفنزويلى شافيز إلى المطالبة بنقل مقر الأمم المتحدة خارج الولايات المتحدة. ويبدو لى أن النتيجة الملموسة الوحيدة التى خرجت بها القمة هى التصديق على القرار الأمريكى بإحالة الأمم المتحدة إلى التقاعد. غير أن ذلك ليس معناه إضعاف الوجود القانونى للأمم المتحدة وإنما الاكتفاء بتحويلها إلى هيئة تقوم بما توكله لها الولايات المتحدة من وظائف متغيرة. الشىء المؤكد أن الولايات المتحدة لن تقبل بالأمم المتحدة أبدا كإطار مؤسسى لإدارة جماعية للنظام الدولى. وفى هذا السياق يمكن القول أنه سوف يستحيل إصلاح الأمم المتحدة أو تمكينها من لعب دور حقيقى وفاعل فى نظام دولى يقوم على الإدارة الجماعية لشئون المجتمع الدولى إلا بإصلاح الولايات المتحدة من داخلها. إصلاح يؤدى إلى تخليها عن فكرة الهيمنة الامبراطورية على العالم والعودة إلى فكرة القيادة، ولكن القيادة الواعية والعادلة القائمة على إيمان حقيقى بنظام دولى ديمقراطى يشارك الجميع فى إدارته. ■

جون بولتون لا يعد مجرد واحد من كبار الشخصيات الأمريكية المعادية للمؤسسات الدولية المتعددة الأطراف، لكنه يعد كذلك من أشدها احتقارا للقانون الدولى ونفورا منه



للمؤلف:

الأمم المتحدة فى نصف قرن دراسة فى تطور التنظيم الدولى منذ ١٩٤٥.

الكويت - المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - ١٩٩٥.
















نحو حرية أرحب

حانت لحظة القرار

كوفى عنان

«نصف كأس مملوءة على الأقل» هكذا وصف الأمين العام للأمم المتحدة - متفائلا ربما - نتائج قمة العالم التى وصفت على نطاق واسع، من ذوى الآمال العريضة بأنها «مخيبة للآمال» معتبرا أن الوثيقة الختامية التى كانت محط نقد وهجوم «تمثل، ككل، تعبيرا استثنائيا عن وحدة العالم فى طائفة عريضة من القضايا».

عنان الذى يثق فى أن الأمم المتحدة «مازال لها دور» وأن العالم بدونها سيكون أكثر عنفا وبؤسا، تمنى أن يكون لدى المعلقين ما يكفى من الوقت لتحليل النص الكامل قبل الحكم عليه. لافتا الانتباه إلى أنه «حتى صبيحة يوم الثلاثاء التى بدأ فيها قادة العالم يتوافدون فعلا على نيويورك، كان لا يزال هناك ١٤٠ خلافا بشأن ٢٧ قضية لم يحسم فيها الأمر».

ليمكن وضع القمة فى مكانها من حيث النجاح والفشل - أو ما بينهما - تنشر «وجهات نظر» هنا المقال الذى كان كتبه كوفى عنان قبلها معبرا عن آماله وطموحاته. إلى جانب ملخص «رسمى» للنتائج النهائية التى تمخضت عنها. آخذين فى الاعتبار ما كتبه عنان بعد القمة من أنه عندما اقترح جدول أعمالها «عمدت قصدا إلى رفع المستوى عاليا، ما دام المرء لا يظفر أبدا بكل ما يطلبه فى المفاوضات الدولية. كما أننى قدمت تلك الإصلاحات كمجموعة، وهذا لا يعنى أننى كنت أتوقع أن تُعتمد دونما تعديل، ولكن إحراز التقدم فيها كمجموعة كان أكثر احتمالا من إحرازه فيها وهى مجزأة، ما دام من الأرجح أن تتغلب الدول على تحفظاتها بشأن بعض القضايا عندما ترى أن القضايا الأخرى التى تعتبرها ذات أولوية أكبر تحظى بعناية جدية... وهذا ما حصل بالضبط فى نهاية الأمر».

هل هذا فعلا ما حدث فى نهاية الأمر؟

المحـرر



■■ ما هو أخطر تهديد يواجهنا اليوم؟ وجه هذا السؤال إلى مصرفية تعمل فى بنك استثمارى فى نيويورك، وتمر يوميا بموقع مركز التجارة العالمى، ثم وجه السؤال نفسه إلى صبى أمى، عمره ١٢ عاما، من ريف مالاوى، فقد والديه بسبب مرض الإيدز، وسوف تحصل على إجابتين مختلفتين تمام الاختلاف. اطلب من صياد أندونيسى، حصد إعصار تسونامى عائلته ودمر قريته، أن يروى لك مخاوفه، ثم اطلب الأمر نفسه من قروى يعيش فى دارفور تطارده الميليشيات المسلحة والقنابل القاتلة، وسوف تحصل أيضا - على الأرجح - على إجابات مختلفة.

المفاهيم المختلفة، حول ما هو «التهديد»، عادة ما تجسد العقبات الرئيسية أمام تعاون دولى. ولا يجب - فى اعتقادى - أن نسمح، ونحن فى القرن العشرين، لهذه العقبات أن تقود حكومات العالم إلى ملاحقة أولويات شديدة الاختلاف أو أن تعمل من أجل غايات متعارضة. تهديدات الحاضر شديدة الترابط ويغذى بعضها البعض. تعاسة شعب تحاصره الحروب الأهلية، أو الفقر المدقع، على سبيل المثال، قد تدفع بأفراده إلى الانجذاب نحو الإرهاب. كما أن الاغتصاب الجماعى، الذى يحدث فى صراعات اليوم من شأنه أن يزيد من انتشار نقص المناعة ومرض الإيدز.

واقع الأمر أننا جميعا لدينا حساسية إزاء ما نعتقد أنها مخاطر تهدد شعبا (آخر) فحسب. هناك ملايين معظمها من شبه الصحراء الأفريقية، قد تقع تحت خط الفقر إذا ما تعرض مركز تمويل فى الولايات المتحدة إلى هجوم نووى إرهابى تسبب فى انكماش الاقتصاد العالمى. وبالصورة نفسها، قد يصاب الملايين من الأمريكيين بعدوى مرض جديد إذا ما تفشى - بشكل طبيعى أو بفعل شرير - فى بلد يعانى من سوء الرعاية الصحية، وانتشر عبر العالم قبل اكتشافه.

لا تستطيع دولة بمفردها أن تدافع بنفسها عن نفسها إزاء هذه المخاطر. والتعامل مع تحديات اليوم: من ضمان عدم وقوع الأسلحة المدمرة فى قبضة مجازفين إلى مواجهة تغير مناخ الكون، ومن القضاء على العصابات الإجرامية المنظمة إلى اعتقال مجرمى الحرب وتقديمهم إلى محاكم مختصة، كل ذلك يتطلب تعاونا عالميا واسعا، عميقا، وثابتا. والدول التى تعمل بشكل جماعى تستطيع أن تحقق ما هو أبعد مما تستطيع دولة أن تحققه بمفردها، مهما بلغت من قوة.

لقد أدرك الذين وضعوا ميثاق الأمم المتحدة، فى عام ١٩٤٥، هذه الحقائق بوضوح تام، إثر الحرب العالمية الثانية، والتى أودت بحياة ٥٠ مليون نسمة. وأسسوا فى مؤتمر سان فرانسيسكو فى العام نفسه منظمة تعمل، وحسب ما جاء فى ميثاقها: «من أجل إنقاذ الأجيال اللاحقة من كارثة الحرب». لم يكن هدفهم الانتقاص من سيادة الدول ولكن تمكينها - عبر العمل الجماعى - من خدمة شعوبها بشكل أفضل. لقد أدرك مؤسسو الأمم المتحدة أن هذا المشروع لن ينظر إليه من منظور ضيق لأن الأمن، التنمية، وحقوق الإنسان هى قضايا مترابطة تمام الترابط. هكذا حددوا للمنظمة العالمية الوليدة طموحات عريضة لضمان احترام الحقوق الإنسانية للإنسان وتوفر الشروط اللازمة لكى يسود العدل وحكم القانون، وتعزيز التقدم الاجتماعى وضمان مستويات حياة أفضل وديمقراطية أرحب»، كما جاء فى الميثاق.

وعندما يتحدث ميثاق الأمم المتحدة عن «ديمقراطية أرحب»، ويشمل المعنى هنا، الحريات السياسية الأساسية التى هى حق لكل إنسان، كما يشمل أيضا ما هو أبعد من ذلك وما أسماه الرئيس فرانكلين روزفلت: «التحرر من العوز»، و«التحرر من الخوف». ولطالما تاقت أمانينا، وتطلب أمننا، أن ندفع باتجاه كل جبهات الحرية، هذه، لأننا ندرك أن التقدم على جبهة منها يعتمد على، ويقوى من، التقدم على بقية الجبهات. وخلال الـ ٦٠ سنة الماضية زادت التطورات التكنولوجية من ضرورة التوافق الاقتصادى بين الدول، وأدت العولمة والتغير الجيوبوليتيكى المفاجئ إلى جعل الأمر أكثر إلحاحا. ومنذ هجمات الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، أصبح على الناس، فى كل مكان، إدراك ذلك. أن شعورا بعدم الأمان قد استقر داخل الأذهان، دون تفرقة بسبب ثراء أو مكانة. أصبحنا ندرك، أكثر وضوحا عن ذى قبل، أن أمننا، ازدهارنا، وحريتنا هى - بالفعل - كل لا يتجزأ.

«سان فرانسيسكو» جديدة

عندما أصبحت التحديات شديدة الوضوح، وأصبح العمل الجماعى مطلوبا بشكل أوضح، رأينا تنافرا عميقا بين الدول. مثل هذا التنافر يفقد مؤسساتنا العالمية

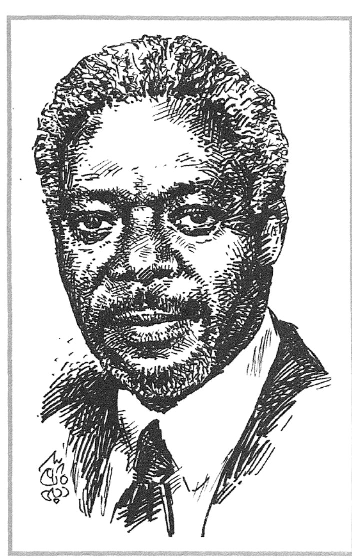
بترتيب مع مجلة:
Foreign Affairs
يونيو ٢٠٠٥

ترجمة: جمال إسماعيل

مصداقيتها، ويسمح باتساع الفجوة بين من يملك ومن لا يملك، بين القوى والضعيف. هذا التنافر يزرع بذور التراجع عن مبادئ الأمم المتحدة الأساسية، التي وجدت من أجل التقدم، ويدعو الدول إلى السعى وراء حلول ذاتية، ويضع بعض المبادئ الأساسية التى تدعم ـ بغير اكتمال ـ النظام العالمى، منذ عام ١٩٤٥، يضعها محل تساؤل.

لن تسامحنا أجيال المستقبل إذا ما استمر سيرنا فى هذا الاتجاه. ولا يمكن لنا أن نمضى فى تخبط، ولا نفعل شيئًا إزاء ازدياد ردود الأفعال فى عصر فيه تسعى مؤسسات الجريمة المنظمة إلى تهريب الرقيق الأبيض والمواد النووية عبر الحدود، وتكون فيه مجتمعات بأسرها عرضة للضياع بسبب مرض الإيدز، ويؤدى التطور السريع فى التقنية الحيوية إلى سهولة ابتكار جراثيم مصممة للقضاء على فاعلية لقاحات التحصين المتوفرة حاليًا. وعندما يجد الإرهابيون، أصحاب الأهداف الواضحة جدًا، أعضاء جددًا بين شباب مجتمعات فاقدة للأمل والعدل، تصبح الحاجة ملحة لأن يتوحد العالم من أجل السيطرة على تهديدات الحاضر وعدم السماح لها بتقسيمنا، والسيطرة علينا.

لقد تلقيت دراستين إضافيتين، حول التحديات العالمية التى تواجهنا. واحدة أعدها ١٦ عضوًا فى هيئة رفيعة المستوى حول المخاطر، التحديات، والتحول. وكنت طالبتها بوضع مقترحات كفيلة بتقوية نظامنا الخاص بالأمن الجماعى. الدراسة الأخرى أعدها ٢٥٠ خبيرًا قاموا بدراسة مشروع الأمم المتحدة الخاص بالألفية الجديدة، وأعدوا خطة لتقليص الفقر العالمى إلى النصف، خلال الأعوام العشرة المقبلة. وبعد مراجعة متأنية للدراستين، ومشاورات متعددة مع دول أعضاء فى الأمم المتحدة، وضعت أمام حكومات العالم برنامج عمل لعهد جديد من التعاون الدولى والعمل الجماعى، وذلك فى تقرير اخترت له عنوان «نحو حرية أرحب». ويدعو الدول إلى انتهاز فرصة انعقاد قمة زعماء العالم، فى الأمم المتحدة خلال شهر سبتمبر، من أجل تقوية نظامنا الخاص بالأمن الجماعى، ووضع استراتيجية عالمية، حقيقية، للتنمية وتعزيز حقوق الإنسان والديمقراطية لدى جميع الأمم، وإيجاد آليات جديدة لضمان ترجمة هذه الالتزامات إلى أفعال. وإدخال إصلاحات جذرية على الأمم المتحدة البالغة من العمر ٦٠ عامًا. وعلى زعماء العالم، فى قمة سبتمبر، الإمساك بروح سان فرانسيسكو من أجل صياغة عهد عالمى جديد يطور الهدف نحو حرية أرحب.


كوفى عنان

التحرر من الخوف

تتمثل نقطة البداية، على طريق إجماع جديد، فى رؤية عامة، واضحة، للتهديدات التى تكتنف حاضرنا. هذه التهديدات لا تشمل الحروب الدولية فحسب، بل تشمل أيضًا العنف المدنى، الجريمة المنظمة، الإرهاب، وأسلحة الدمار الشامل، كما تشمل هذه التهديدات الفقر، الأمراض الخطيرة المعدية، والتلوث البيئى، وغير ذلك من علل يمكن أن تكون لها تبعات فاجعة وتحدث دمارًا هائلاً، فى دول هى وحدات أساسية فى النظام الدولى.

وللدول القوية والضعيفة، الغنية والفقيرة، مصلحة مشتركة فى إيجاد نظام أمن جماعى يلزمها بأن تعمل، بتعاون، ضد عدد كبير من التهديدات. أساس مثل هذا النظام يجب أن يتمثل فى التزام جديد يمنع التهديدات الكامنة من أن تصبح تهديدات وشيكة، ويمنع التهديدات الوشيكة من التحول إلى تهديدات فعلية، إضافة إلى اتفاق حول متى وكيف يمكن استخدام القوة إذا ما فشلت استراتيجيات المنع.

لقد أصبح التحرك مطلوبًا على عدة جبهات منها ثلاث جبهات تحتاج إلى اهتمام عاجل وخاص: على الجبهة الأولى تبرز ضرورة ضمان أن لا يتحول الإرهاب الفاجع إلى واقع. وعلينا، فى سبيل هذا الهدف، الاستفادة من الصلاحية المنعقدة للأمم المتحدة وقوتها المعيارية المتميزة ونفوذها الكونى. ولكى نبدأ لابد من تطوير اتفاق شامل ضد الإرهاب. لقد كان للأمم المتحدة دورها المركزى فى دعم التفاوض بين دول، وتبنى ١٢ اتفاقية عالمية مناهضة للإرهاب، لكن فاتنا التوصل إلى اتفاق شامل، يجرم الإرهاب فى كل أشكاله، بسبب جدل حول «إرهاب الدولة» وحق مقاومة الاحتلال. لقد حان وقت وضع هذا الجدل جانبًا. إن القانون الدولى ينظم جيدًا استخدام القوة من جانب الدول. وحق مقاومة الاحتلال يجب أن يفهم بمعناه الحقيقى، ولا يمكن أن يشمل حق قتل أو تشويه المدنيين عن عمد. يجب على زعماء العالم أن يتحدوا وراء تعريف للإرهاب يؤكد، بما لا يدع مجالاً للشك، أن استهداف المدنيين، أو العزل، غير مقبول على الإطلاق. وعليهم العمل من أجل دعم قدرة الدول على أن تفى بالتزاماتها المفروضة عليها، من قبل مجلس الأمن، لمناهضة الإرهاب.

وبالدرجة ذاتها من الأهمية الملحة، هناك حاجة إلى بعث حياة جديدة فى البنيات متعددة الجوانب من أجل السيطرة على الأسلحة البيولوجية، الكيمائية، والنووية بشكل خاص. يجب علينا منع تكاثر هذه الأسلحة، وأن نحفظها بعيدًا عن المخاطرين. وعلى مدار ٣٥ عامًا، تمكنت اتفاقيات منع الانتشار، الموقعة من جميع الأعضاء عدا ثلاث دول، من خفض خطر انتشار الأسلحة النووية، وإلى حد بعيد، وذلك بوضع حدود صارمة تقبل بشكل تطوعى. وحدث مؤخرًا، ولأول مرة، أن أدى انسحاب طرف (كوريا الشمالية)، وامتناعه عن الالتزام بتلك الحدود إلى كارثة انعدام الثقة.

منع الانتشار يتطلب إيجاد طرق للحد من التوترات الناجمة عن حقيقة أن التكنولوجيا المطلوبة للاستخدام المدنى للطاقة النووية يمكنها أيضًا أن تستخدم لتطوير أسلحة نووية. ويجب تقوية الدور متعدد الجوانب الذى تقوم به الوكالة الدولية للطاقة النووية، من خلال قبول عالمى بالبروتوكول الإضافى النموذجى (الذى يمتن متطلبات التبليغ ونظام التفتيش فى اتفاقية حظر الانتشار). ويجب تطوير الحوافز التى تساعد الدول على التخلى عن أنشطة تدوير الوقود مع ضمان ما تحتاجه من وقود لأغراض سلمية. إضافة إلى ضرورة الترحيب بالمبادرات، ذات الصلة، مثل قرار مجلس الأمن، رقم ١٥٤٠، الهادف إلى منع الأطراف غير الدولية من إمكانية الحصول على تكنولوجيا ومواد الأسلحة الخطرة، ومبادرات حظر الانتشار، التطوعية، لأسلحة ومواد نووية، كيميائية، وبيولوجية.

الجبهة الثالثة، ضمن الأولويات الملحة، تتمثل فى ضرورة ضمان النجاح، عندما نأخذ على عاتقنا مهمة بناء












سلام دائم في أراض تتنازعها الحروب. لقد تعرض نجاحنا في الفوز بالسلام إلى إرباك. وخلال خمس سنوات، تعرضت اتفاقيات السلام، في ٥٠٪ من الحروب التي بدا إننا توصلنا إلى حلول لها، لانتكاسات أدت إلى تجدد القتال. هذا التراجع عادة ما تكون له عواقب فاجعة على الجانبين المتحاربين. وفي أنجولا ورواندا، على سبيل المثال، لقي الملايين حتفهم بعد انهيار اتفاقات سلام في منتصف التسعينيات. ورغم أن العقد الماضي شهد المزيد من تقدير المجتمع الدولي، لما يبذل من جهود لتحقيق السلام، لا يزال هذا المجتمع يفتقد إلى لجنة استراتيجية مفوضة لبناء السلام. يمكن لهذه اللجنة أن تكون منبراً يلتقي فيه ممثلون عن الدول المانحة، وتلك المشاركة بقوات، والدولة المراد معاونتها، للجلوس سوياً مع زعماء من دول أخرى أعضاء، مؤسسات تمويل دولية، ومنظمات إقليمية، للموافقة على استراتيجية تكون بمثابة وثيقة إرشاد وحشد وتنسيق لمختلف الجهود المشتركة. وعندما تفشل وسائل المنع السلمية، وكل الوسائل الأخرى، يجب أن يكون في استطاعتنا الاعتماد على استخدام القوة. ونحتاج - على أية حال - إلى إيجاد أرضية مشتركة حول: متى، وكيف. وتحفظ المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة حق جميع الدول في الدفاع عن النفس ضد هجوم مسلح. ويدرك معظم رجال القانون أن هذه المادة تتضمن حق اتخاذ إجراء استباقي ضد تهديد وشيك. الأمر لا يحتاج إلى إعادة تفسير، أو إعادة صياغة. ورغم ذلك نواجه اليوم - أيضاً - مخاطر ليست وشيكة لكنها قد تتحول إلى واقع، دون إنذار مسبق، وتتجسد في سيناريوهات مخيفة ما لم نواجهها. لقد أعطى ميثاق الأمم المتحدة التفويض التام لمجلس الأمن، كي يتعامل مع مثل هذه التهديدات. ويجب على مجلس الأمن أن يكون مستعداً لممارسة هذا التفويض.

يجب علينا أيضاً، تذكر أن سيادة الدول تتضمن واجبات، إضافة إلى الحقوق، كما تتضمن مسئولية حماية المواطنين من مخاطر إبادة جماعية، أو فظائع أخرى جماعية. وعندما تفشل الدول في أداء هذه الواجبات تحول إلى المجتمع الدولي الذي عليه، إذا ما تطلب الأمر، فرض القرار عبر التفويض الممنوح لمجلس الأمن.

اتخاذ قرار استخدام القوة لم يكن سهلاً في يوم من الأيام. وضمان حدوث إجماع حول متى، وكيف، يكون اللجوء إلى القوة مناسباً، يتطلب أن يضع مجلس الأمن في اعتباره مدى جدية التهديد، وملاءمة الإجراء المقترح لهذا التهديد، ومدى التكافؤ بالنسبة للإجراء المقترح، وفوائد ونتائج استخدام، أو عدم استخدام القوة. موازنة مجلس الأمن بين هذه الاعتبارات من شأنها المعاونة في التوصل إلى قرارات تستند إلى أرضية من المبادئ، وتحظى - لذلك - باحترام واسع.

العيش بكرامة

القبول بالمسئولية المقدسة، المتمثلة في حماية المدنيين من انتهاكات حقوق الإنسان، بعيدة الأثر، يعد جزءاً من حاجة أكبر للتعامل بجدية، عند إدارة الشئون الدولية، مع حقوق الإنسان وحكم القانون. نحن نحتاج إلى التزام ثابت، طويل الأجل، لدمج حقوق الإنسان وحكم القانون في مجمل عمل الأمم المتحدة. أهمية هذا الالتزام لا تقل عن أهمية الالتزام بوقف صراع أو خفض حدة فقر، وخاصة في دول تكافح لوضع حد لميراث من عنف.

لقد ساهمت الأمم المتحدة، باعتبارها الأداة التي تم من خلالها التوصل إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، واتفاقيتين عالميتين لحقوق الإنسان، ساهمت بشكل فعال في تأكيد هذه الحقوق. لكن الآلة الدولية التي تعمل اليوم ليست كافية لضمان أن هذه الحقوق مصانة عملياً. إن مكتب مفوضية الأمم المتحدة لحقوق الإنسان يعمل بميزانية قاصرة وإمكانيات غير كافية للرصد الميداني. ويحتاج مكتب المفوضية العليا إلى المزيد من الدعم السياسي والمالي. يجب على مجلس الأمن، ومفوضية بناء السلام المقترحة، إشراك المفوضية العليا - بشكل واسع - في مداولاتهما.

لقد فقدت المفوضية العليا لحقوق الإنسان مصداقيتها لدى الكثيرين. وتسعى الكثير من الدول إلى عضويتها كي تجنب نفسها الانتقاد، أو تنتقد الآخرين. وليس تقديم العون إلى المفوضية في مهامها المتمثلة في رصد وتشجيع تجاوب كل الدول مع التزامات حقوق الإنسان. وقد حان وقت إحداث إصلاح حقيقي. يجب على المفوضية أن تتحول إلى مجلس جديد لحقوق الإنسان، يلتزم بمستويات عالية لهذه الحقوق، وينتخب أعضاؤه بطريقة مباشرة من قبل الجمعية العامة.

ولا يمكن لجدول أعمال حقوق إنسان تجاهل حق جميع الشعوب في أن تحكم نفسها بواسطة مؤسسات ديمقراطية. مبادئ الديمقراطية محفوظة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي، ومنذ الإعلان عنه في عام ١٩٤٨، كان الملهم عند صياغته في كل ركن من أركان الكرة الأرضية. لقد انتشرت الديمقراطية وأصبحت مطلباً. اليوم أكثر من أي وقت مضى. وقد ساعدت الأمم المتحدة الشعوب، على تحديد مصيرها بحرية، بوضع المعايير وقيادة الجهود لإنهاء الاستعمار وضمان حق تقرير المصير. قدمت الأمم المتحدة مساندة قوية لعمليات الانتخاب في الكثير من الدول. وخلال العام الماضي، وحده، قامت بذلك في أكثر من ٢٠ منطقة ودولة، بما في ذلك أفغانستان، فلسطين، العراق، وبوروندي. إن الحرية تعني ما هو أكبر من الانتخابات. وهنا تكمن الأهمية الحيوية في عمل المنظمة الخاص بتحسين أوضاع الحكم في العالم النامي، وإعادة بناء حكم القانون والمؤسسات في الدول التي تمزقها الحروب. يجب على أعضاء الأمم المتحدة البناء الآن على هذا السجل. وهنا أشير إلى اقتراح الرئيس جورج دبليو بوش، على الجمعية العامة في سبتمبر عام ٢٠٠٤، الخاص بدعم صندوق يساعد الدول على تأسيس ديمقراطية قوية.

على الدول الديمقراطية، داخل الأمم المتحدة، أن تعمل، بطبيعة الحال، مع دول غير ديمقراطية، وكما لا تستطيع دولة ديمقراطية أن تقصر علاقاتها الثنائية على دول ديمقراطية، لا توجد منظمة جماعية، صممت لتحقيق أهداف عالمية، تستطيع قصر العضوية على دول ديمقراطية. إنني أتطلع إلى اليوم الذي تكون فيه كل دولة عضو في الجمعية العامة محكومة بالديمقراطية. إن العضوية العالمية للأمم المتحدة تعد رصيداً غالياً من شأنه تحقيق تقدم باتجاه هذا الهدف. والحقيقة الثابتة أن الدول غير الديمقراطية، والتي عادة ما توافق على جدول أعمال الأمم المتحدة، تفتح طريقاً تستطيع عبره الدول الأخرى، إضافة إلى المجتمع المدني، ممارسة ضغط عليها كي تتسق سلوكياتها مع التزاماتها.

التحرر من العوز

دعم حقوق الإنسان، والديمقراطية، يجب أن يسير، جنباً إلى جنب، مع تحرك جاد هدفه تشجيع التنمية. إن عالماً يموت فيه ١١ مليون طفل في كل عام، قبل بلوغ سن الخامسة، معظمهم لأسباب يمكن تلافيها، ويذهب فيه ثلاثة ملايين شخص، من مختلف الأعمار، ضحية لمرض الإيدز، ليس عالماً يتمتع بحرية رحبة. إنه عالم في حاجة شديدة إلى استراتيجية بعينها تمكنه من تطبيق إعلان الألفية الجديدة الذي وافقت عليه جميع الدول الأعضاء، باهتمام. قبل أربع سنوات مضت. وتشمل الأهداف الثمانية للتنمية في الألفية الجديدة، المطلوب إنجازها مع حلول عام ٢٠١٥، تقليص عدد سكان العالم الذين يعيشون في جوع وفقر مدقع، ضمان حصول جميع الأطفال على تعليم أساسي، والتعامل باهتمام بالغ مع أمراض الإيدز ونقص المناعة والملاريا، وغيرها من الأمراض الخطيرة.

الحاجة إلى اتخاذ خطوات، أكثر تأثيراً، لتحقيق هذه الأهداف، هي حاجة ملحة لا يمكن تجاهلها. ورغم أن عقداً من الزمن لا يزال يفصل بيننا وبين الموعد المرتقب لتحقيق هذه الأهداف، تبدو مخاطر عدم تحقيقها واردة ما لم نبدأ هذا العام بتسريع وزيادة خطواتنا بشكل أكثر فاعلية. مكتسبات التنمية لا تتحقق بين ليلة وضحاها. إنها تحتاج إلى وقت لتدريب

فقدت المفوضية العليا لحقوق الإنسان مصداقيتها لدى الكثيرين. وتسعى الكثير من الدول إلى عضويتها كي تجنب نفسها الانتقاد، أو تنتقد الآخرين














مدرسين، ممرضات، ومهندسين، لبناء الطرق، المدارس، والمستشفيات، وإنشاء المشروعات الصغيرة والكبيرة، التى تخلق فرص عمل وتحقق دخلاً للفقراء.

يجب أن تكون قمة الأمم المتحدة، فى سبتمبر، قمة موافقة جميع الدول الأعضاء، ليس على «إعلان» فحسب، بل على خطة مفصلة لمحاربة الفقر المميت، تكون حاكمة للجميع. يجب أن تكون القمة قمة أفعال أكثر من أقوال، ثمة تفعيل للالتزامات التى صيغت، وتحرك من دنيا الأمنيات إلى دوائر العمليات.

الشراكة الكونية بين الدول الغنية والفقيرة يجب أن تكون جوهر هذه الخطة. شروط هذه الشراكة تضمنتها اتفاقية المؤتمر الدولى لتمويل التنمية، الذى عقد قبل ٣ سنوات فى المكسيك. هذه الاتفاقية التاريخية، القائمة - بحزم - على مبادئ التضامن والمسئولية المشتركة، أعادت تأكيد مسئولية كل دولة إزاء تنميتها الذاتية، وأوجدت التزامات قوية من الدول الغنية تجاه مساندة الدول الفقيرة.

فى سبتمبر، يكون على جميع الدول المتطورة أن تتعهد بأن تتقدم، مع مجىء عام ٢٠٠٦، باستراتيجيات قومية عملية كفيلة بتحقيق أهداف الألفية. على كل دولة أن ترسم خريطة للأبعاد الرئيسية، وتحدد أسباب الفقر المدقع، وتستخدم هذه الخريطة فى تقسيم حاجاتها والتعرف على الاستثمارات العامة الضرورية، وتحول هذا التقييم إلى جدول زمنى لفعل يتحقق خلال عشرة أعوام، وتضع، فى الوقت نفسه، استراتيجيات، يتراوح وقت تنفيذها ما بين ٣ إلى ٥ سنوات، لتقليص حدة الفقر.

على الدول المانحة أن تضمن أيضاً، أن الدول النامية، التى تضع مثل هذه الاستراتيجيات موضع التطبيق، تحصل - بالفعل - على الدعم الذى تحتاجه، فى شكل فتح أسواق أمامها، وتخفيف أعباء ديونها، وتقديم مساعدات تنمية رسمية. وطوال سنوات كانت المساعدات الرسمية للتنمية ضئيلة ويصعب التنبؤ بها، وتحكمها «نظرية» إرسال المؤن وليس تلبية الحاجات. لقد زاد العون الرسمى، المقدم من الدول المانحة، منذ قمة مؤتمر تمويل التنمية فى المكسيك. لكن المساعدات الرسمية لا تزال بعيدة عن بلوغ نسبة الـ (٠,٧٪)، من إجمالى الدخل القومى للدول المانحة، التى أقرها مؤتمر المكسيك. ويجب على جميع هذه الدول أن تضع، وتفعل، الآن، استراتيجيات تمكنها من الوفاء بتلك النسبة مع حلول عام ٢٠١٥، وتضمن بلوغ ما نسبته ٠,٥٪، مع مجىء عام ٢٠٠٩.

مطلوب أيضاً، التحرك على جبهات أخرى وخاصة فيما يتعلق بالتغير المناخى المفاجئ. وقد حان وقت الموافقة على إطار عمل دولى يقتصد جميع بواعث الغازات الدفينة بجهد عام يهدف إلى مقاومة سخونة الأرض، وذلك قبل عام ٢٠١٢، عام انتهاء العمل باتفاقية كيوتو. نحتاج إلى التزام بإطار عمل تنظيمى جديد، وإلى استخدام أكثر تطوراً للتكنولوجيا وآليات سوق تجارة المواد الكربونية. يجب تعلم الدرس من إعصار تسونامى المدمر، ووضع إمكانات عالمية لإعطاء إنذار مبكر من مخاطر الطبيعة. ليس من تسونامى والأعاصير فحسب، بل من الفيضانات، الجفاف، الانهيارات الصخرية، الموجات الحارة، وثورات البراكين.

أمم متحدة جديدة

الأمم المتحدة أداة تمكين للدول من مواجهة تحديات الحاضر والمستقبل. وتحتاج هذه الأداة إلى إصلاحات جذرية، تقوى من كفاءة تأديتها للمهام، وقدرتها على التأثير وتحمل المسئوليات. فى سبتمبر، يجب الخروج بقرارات تمكن الجمعية العامة، والمجلس الاقتصادى والاجتماعى، من العمل باستراتيجية أكثر وضوحاً. وبينما نتشاور من أجل إيجاد مؤسسات جديدة، مثل مفوضية بناء السلام، علينا إلغاء مؤسسات لم تعد هناك حاجة إليها، مثل مجلس الوصاية. ولا يمكن لإصلاح، داخل الأمم المتحدة، أن يكتمل دون إصلاح مجلس الأمن. إن التشكيل الحالى للمجلس يعكس عالم عام ١٩٤٥. نحن الآن فى القرن الواحد والعشرين، يحب إصلاح المجلس لكى يضم دولاً لها مساهمات مالية وعسكرية ودبلوماسية فعالة فى المنظمة. هناك نموذجان، موضع دراسة الآن، بشأن توسيع عضوية المجلس كى يضم ما بين ١٥ إلى ٢٤ عضواً. نموذج يؤسس ستة مقاعد جديدة دائمة وثلاثة غير دائمة. والآخر يؤسس تسعة مقاعد جديدة غير دائمة. ويقينى أن الوقت حان للتعامل مع هذه القضية ودراستها والتوصل إلى قرار بشأنها.

القدر ذاته من الأهمية يجب أن يعطى لإصلاح السكرتارية العامة للأمم المتحدة وتوسيع شبكة وكالاتها، صناديق التمويل، والبرامج التى تشكل نظام الأمم المتحدة. ومنذ عام ١٩٩٧، كانت هناك ثورة صامتة لـ «طلاء» النظام كى يصبح أكثر كفاءة وترابطاً. ويقينى أننا نحتاج إلى فعل الكثير لكى نجعل المنظمة أكثر شفافية، وأقوى تأثيراً ومصداقية، ليس للدول الأعضاء فحسب، بل أمام العالم الذى تستند المنظمة إلى ثقته، ووجدت من أجل خدمة مصالحه. لقد أكدت الإخفاقات الأخيرة هذه المسلمات. ولقد اتخذت - بالفعل - إجراءات جادة لكى أجعل إدارة وعمل السكرتارية العامة أكثر انفتاحاً وخضوعاً للفحص والتدقيق. ولكى يتم الإصلاح، بشكل حقيقى وناجح، يجب تفويض السكرتير العام، باعتباره أعلى سلطة إدارية للمنظمة، لكى يديرها بمرونة، وباستقلالية، حتى يتمكن، أو تتمكن، من إحداث التغييرات الضرورية. يجب أن يكون السكرتير العام قادراً على حشد برنامج عمل المنظمة وراء ذلك النوع من جدول الأعمال الذى أوضحته، وذلك فور الموافقة عليه من قبل الدول الأعضاء، على أن لا يواجه بعقبات ناجمة عن تداعيات قديمة أو انقسام حول اتخاذ قرار، يمكن أن تخرب عملية تحديد توجه استراتيجى مركزى. وعندما تضمن الدول الأعضاء لمنصب السكرتير العام هذه الاستقلالية والمرونة، يكون من حقها، ومسئوليتها، أن تطالب بمزيد من الشفافية والمسئولية.

وقت القرار

فى دعوتى للدول الأعضاء، إلى إحداث أوسع إصلاح ممكن فى تاريخ المنظمة، والالتقاء حول عدد من القضايا التى تتطلب التحرك الجماعى، لا أستطيع الزعم بوجود ضمانة للنجاح من خلال الوسائل الجماعية، لكننى على يقين من أن الحلول الأحادية مصيرها الفشل. يقينى أن الدول لا تملك بديلاً للعمل المشترك، حتى وإن كان هذا التعاون يعنى التعامل بجدية مع أولويات الشريك لضمان أن الشريك سوف يتعامل بجدية مع أولوياتك. وقبل ٦٠ عاماً، قال الرئيس هارى ترومان، فى سان فرانسيسكو: «علينا جميعاً ألا نعطى لأنفسنا الحق، لكى نفعل، ما يرضينا - دائماً - مهما كانت قوتنا».

الحاجة الملحة إلى تعاون عالمى تبدو جلية اليوم أكثر من أى وقت مضى. والعالم «المعرض للإصابة» لا يمكن أن يظل منقسماً فى وقت تستمر فيه المشاكل القديمة فى حصد ملايين الأرواح، وتهدد المشاكل الجديدة بحصد ملايين أخرى. إن عالمًا متوافقاً لا يكون فى مأمن ما لم تتحرر شعوبه، فى كل مكان، من العوز والخوف، وتكون باستطاعتها العيش بكرامة. حقوق الفقراء الأساسية لا تختلف، وتتساوى، مع حقوق الأغنياء. والتفاهم الأوسع حول الأمن له أهميته لأن أمن العامل المتطور هو أمن العالم النامى.

ذات مرة، قال الأمريكى البارع، رالف بنش، أول مسئول فى الأمم المتحدة يحصل على جائزة نوبل للسلام، إن الأمم المتحدة توجد «ليس لمجرد حفظ السلام، بل وجعل التغيير، بما فى ذلك التغيير الجذرى، ممكنًا دون ثورة عنيفة. ليس للأمم المتحدة مصلحة مكتسبة فى الوضع الراهن». وتكتسب تلك الكلمات اليوم معانى جديدة. ورسالة الأمم المتحدة، فى إحلال السلام، يجب أن تقرب ذلك اليوم الذى تمارس فيه جميع الدول سيادتها، مسئوليتها، وتتعامل مع المخاطر الداخلية قبل أن تمثل تهديداً لمواطنيها، وللدول الأخرى. يجب أن تمكن، وتفوض مواطنيها لاختيار نوع الحياة التى يرغبونها، وتعمل مع الدول الأخرى فى مواجهة التحديات والمخاطر العالمية. وباختصار: يجب على الأمم المتحدة أن تدفع بجميع شعوب العالم، باتجاه «مستويات معيشة أفضل، ووسط حرية أرحب». قمة الأمم المتحدة، فى سبتمبر، هى فرصتنا - جميعاً - لكى نبدأ السير فى هذا الاتجاه. ■



لكى يتم الإصلاح، بشكل حقيقى وناجح، يجب تفويض السكرتير العام، باعتباره أعلى سلطة إدارية للمنظمة، لكى يديرها بمرونة، وباستقلالية، حتى يتمكن، أو تتمكن، من إحداث التغييرات الضرورية





وثـــائـــق

«نصف كأس مملوء»
نتائج قمة العالم ٢٠٠٥

اتفق قادة العالم وزعماؤه الذين اجتمعوا بمقر الأمم المتحدة فى مدينة نيويورك فى الفترة ما بين ١٤ و١٦ سبتمبر ٢٠٠٥ على اتخاذ خطى إيجابية فى عدد من التحديات العالمية:

التـنـمـيـة

• التزام كل الحكومات التزاماً جاداً وواضحاً فى البلدان المانحة والنامية على حد سواء بتحقيق أهداف التنمية الألفية بحلول عام ٢٠١٥.

• ٥٠بليون دولار إضافية سنوياً بحلول عام ٢٠١٠ لمكافحة الفقر.

• التزام كل البلدان النامية بأن تتسق خططها القومية وتحقق أهداف التنمية الألفية بحلول عام ٢٠٠٦.

• الاتفاق على تقديم الدعم فوراً لمبادرات التأثير السريع لدعم جهود مكافحة الملاريا وكذا الجهود العاملة فى حقلى التعليم والرعاية الصحية.

• الالتزام بمصادر مبتكرة لتمويل التنمية من بينها الجهود التى تبذلها بعض البلدان لتأسيس «مركز تمويل دولى» وغير ذلك من المبادرات لتمويل مشروعات التنمية لاسيما فى قطاع الصحة.

• الاتفاق على النظر فى المزيد من الإجراءات لدعم الديون طويلة المدى عن طريق زيادة التمويل المعتمد على المنح وإلغاء ١٠٠٪ من الديون الرسمية الثنائية ومتعددة الأطراف من على عاتق البلدان المثقلة بالديون، وكذلك النظر فى تخفيف الديون أو إعادة هيكلتها كلما كان ذلك ملائماً بالنسبة للبلدان متوسطة ومحدودة الدخل التى تعانى من أعباء ديون غير مدعومة وليست جزءاً من مبادرة البلدان المثقلة بالديون.

• الالتزام بتحرير التجارة والعمل بسرعة على تطبيق أبعاد التنمية الخاصة ببرنامج عمل الدوحة.

الإرهـــاب

• إدانة الإرهاب - من قبَل كل الحكومات ولأول مرة - بشكل واضح وغير مشروط «بكل صوره وأشكاله أياً كان من يرتكبه وأينما كان وأياً كانت أسبابه ودوافعه».

• دعم سياسى قوى لعقد معاهدة شاملة ضد الإرهاب فى غضون عام واحد، وكذلك تقديم الدعم بهدف التفعيل المبكر لاتفاقية مكافحة الإرهاب النووى. ويتم تشجيع كل الدول على الانضمام إلى هذه الاتفاقية وتفعيلها وكذا الاتفاقيات الاثنتا عشرة الأخرى المناهضة للإرهاب.

• الاتفاق على صياغة استراتيجية لمكافحة الإرهاب بالشكل الذى يزيد من قوة المجتمع الدولى ويضعف من الإرهابيين.

بناء السلام، حفظ السلام وصنع السلام

• اتخاذ القرار بإنشاء «لجنة بناء السلام» لمساعدة البلدان على الانتقال من الحرب إلى السلام يدعمها فى ذلك مكتب الدعم وصندوق دائم.

• قوة جديدة ومستمرة من الشرطة من أجل عمليات حفظ السلام.

• الاتفاق على تعزيز عمل السكرتير العام للأمم المتحدة فى الوساطة والمساعى الحميدة.

مسئولية الحماية

• موافقة كل الحكومات موافقة واضحة وبالإجماع على تحمل المسئولية الدولية الجماعية تجاه حماية الشعوب من الإبادة الجماعية أو العرقية وجرائم الحروب والتطهير العرقى والجرائم ضد الإنسانية، إلى جانب الإجماع على إرادة اتخاذ القرار الجماعى والحاسم فى الوقت المناسب لتحقيق هذا الهدف - عن طريق مجلس الأمن - حينما تعجز المساعى السلمية وتفشل السلطات الوطنية فى الحيلولة دون وقوعها.

حقوق الإنسان، الديمقراطية وحكم القانون

• خطوات حاسمة لتعزيز آلية الأمم المتحدة لحقوق الإنسان إلى جانب دعم خطة العمل ومضاعفة ميزانية المفوض السامى.

• الاتفاق على إنشاء مجلس لحقوق الإنسان بالأمم المتحدة خلال العام المقبل.

• التأكيد على الديمقراطية كقيمة عالمية والترحيب بإقامة صندوق ديمقراطية جديدة تَلَقَّى حتى الآن مساهمات بلغت قيمتها ٣٢ مليون دولار أمريكى من ١٣ بلداً.

• الالتزام بالقضاء على انتشار التمييز على أساس النوع مثل عدم المساواة فى التعليم والملكية والعنف ضد النساء والبنات وإنهاء الحصانة التى يتمتع بها من يرتكبون هذا العنف.

• التصديق على القرار الذى اتُخذ أثناء القمة مما أدى إلى تفعيل اتفاقية المناهضة للفساد.

الإصـــلاح الإدارى

• تعزيز قدرات الأمم المتحدة على المراقبة بوجه عام وتشمل مكتب خدمات المراقبة الداخلية والتوسع فى خدمات المراقبة بالنسبة للمزيد من المكاتب وكذا المناداة بإنشاء لجنة مراقبة استشارية مستقلة وإنشاء مكتب جديد لمراقبة أخلاقيات العمل.

• تجديد الأمم المتحدة عن طريق مراجعة كل المهام التى مضى عليها أكثر من خمس سنوات بحيث تُلغَى المهام الأقدم لإتاحة المجال للجديد من الأولويات.

• الالتزام بقواعد الإصلاح وسياساته فى مجالات الميزانية والتمويل والموارد البشرية بحيث تستطيع المنظمة أن تستجيب للاحتياجات الحالية بشكل أفضل، إلى جانب الاستعانة بالموظفين السابقين لضمان أن يكون لدى الأمم المتحدة طاقم العمل المناسب لمواجهة تحديات اليوم.

البـيـئـة

• الإقرار بالتحدى الخطير الذى يمثله التغير المناخى والالتزام بالعمل من خلال إطار اتفاقية الأمم المتحدة بشأن التغير المناخى، كما سيتم تقديم المساعدات إلى أكثر الدول تأثراً بهذا التغير مثل الدول النامية المكونة من جزر صغيرة.

• الاتفاق على إنشاء نظام إنذار مبكر على مستوى العالم ضد كل الأخطار الطبيعية.

الصحة العالمية

• زيادة ردود الفعل بالنسبة لمرض الإيدز (أو نقص المناعة المكتسبة) والدَرن والملاريا عن طريق الوقاية والرعاية والعلاج والدعم، بالإضافة إلى تعبئة المزيد من الموارد من المصادر القومية والثنائية والمتعددة الجوانب والخاصة.

• الالتزام بمكافحة الأمراض المعدية ويشمل ذلك الالتزام بضمان التطبيق الكامل للوائح الصحة العالمية الجديدة وتقديم الدعم إلى الشبكة العالمية للإنذار ورد الفعل ضد تفشى الأمراض التابعة لمنظمة الصحة العالمية.

المساعدات الإنسانية

• إنشاء الصندوق الدائر المركزى المطور للطوارئ لضمان وصول المعونات على الفور عند وقوع الكوارث.

• الإقرار بالمبادئ الإرشادية بالنسبة للإبعاد الداخلى باعتبارها إطاراً دولياً مهماً لحماية الأشخاص المُبعَدين داخلياً.

تجديد ميثاق الأمم المتحدة

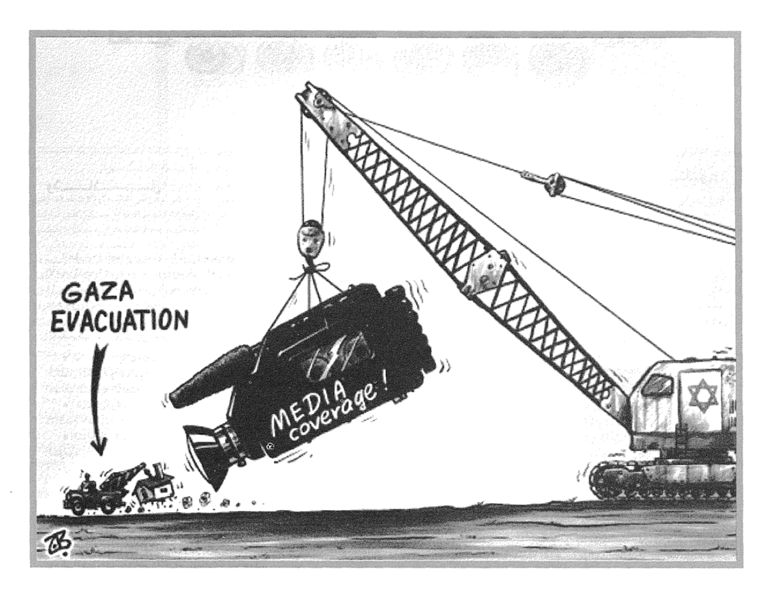
• اتخاذ القرار لمراجعة الميثاق وتجديده عن طريق ما يلى:

• إلغاء مجلس الوصاية للدلالة على انتهاء دور الأمم المتحدة التاريخى فى تصفية الاستعمار.

• حذف الإشارات المغلوطة تاريخياً عن «الدول الأعداء» فى الميثاق.

يمكن الرجوع إلى النص الكامل للوثيقة بزيارة موقع القمة:

www.un.org/summit ٢٠٠٥



العرض التليفزيونى الأخير

لم يكن أسبوع فك الارتباط الإسرائيلى عن غزة أكبر حملة عسكرية غير حربية يقوم بها الجيش منذ أن أقامه بن غوريون فحسب، بل كان أيضاً أكبر عرض «ريالتى تى. فى.» فى التاريخ منذ أن بدأ الناس بالتصرف والتحدث كأن هنالك كاميرا حاضرة طيلة الوقت كأمر طبيعى، فغيروا من لهجتهم، أصبحوا أكثر دراماتيكية وأكثر كلاشيهيةً كأنهم «بوستر» أو «ستيكر» أو «ساوند بايت» تسويقى متجول، ومنذ أن شاهد آخرون كيف عليهم أن يتصرفوا فى حالة الغضب والحزن والفرح فتصرفوا بموجب صورتهم التى رأوها فى الإعلام، فتم نسخ وتناسخ الناس فى هندسة جنكولوجية - تلفزيونية أو للاختصار «جنزيونية».(سجل براءة اختراع)!!

فى أسبوع دراما فك الارتباط مع الواقع وتوثيق الارتباط مع الصور عن الواقع، وفى تسلسل وقائع الدراما وفصولها من ملصقات المستوطنين إلى المواجهة المخرجة إخراجاً محرجاً بين المستوطنة والجندى المطأطئ الرأس ليس خجلا، بل لأن عليه حسب السيناريو أن يبدو خجلا ومتألما لما يفعل، وهى تصرخ بابنها بهستيريا: «عندما تكبر لا أريدك أن تكون مثل هذا الجندى بل أن تكون جنديا يدافع عن الوطن!»، والطفل الذى دربه المستوطنون أن يصرخ على الجندى الذى يضبط أعصابه، ليس لأنه يجد صعوبة فى ضبطها بل لأن عليه أن يبدو رابط الجحش، عذرا الجأش، فالحديث هو عن جنود رابطى الجأش، وهكذا يجب أن يتصرفوا فيعيدوا إنتاج صورتهم، وكون بعضهم قد صدقها لا يغير من كونها صورة. يصرخ الطفل ليحتار المشاهد بين الطفل البرىء والجرىء وبين الجندى الرابط الجأش، ليس لأن لا جأش له، بل لديه جؤوش. ولكن جهاده الأكبر على وزن لغة منتجى الصور عندنا هو أن يربطه فيحكم ربطه: «هل غسلوا دماغك، لماذا لا تنظر فى عينى؟» وفى هذه الحالة يكرر الطفل جملة على أحد ملصقات حملة المستوطنين الموجهة للجنود من نوع «أخى أنظر فى عينى!!»، هذا إضافة إلى: اللعب بالكلمات والصور المستوحاة من مكاتب الدعاية والتسويق من نوع صورة خلفية لجندى ينظر إلى مستوطنة وفى أسفلها جملة: «لكى لا تستوطن لك على ضميرك»، وصورة طفلة زرقاء العينين مع نفس الجملة، يضاف إلى ذلك الدعاية الحكومية تحت شعارات عائلية تميز الأخوة أو الأخويات الهوليوودية على الأقل، من نوع: «المهم ألا نفك ارتباطنا ببعض»، أو «لنعبر هذه المحنة سوية» أو «تساف بِيوس»، (أمر مصالحة) على وزن «تساف جِيوس» (أمر تجنيد)، وهو ملصق ودعاية تلفزيونية حكومية بنفس نوع ولون خط الرسالة التى تصل للجندى عند دعوته للخدمة وقت الحرب.

يضاف إلى ذلك ملصقات بالبرتقالى على السيارات من كافة الأنواع: «الشعب مع جوش قطيف»، «أين اختفى الخجل؟»، «اقتلاع المستوطنات انتصار للإرهاب»، ومقابلها بالأزرق: «تفكيك المستوطنات خيار الحياة»، «نخرج من غزة ونبدأ الكلام»، «ليعد الأبناء إلى حدودهم،

ينشر أيضا على موقع
www.arab48.com

... الخروج من غزة!

عزمي بشارة

لم يسكب هذا الكم من القطر السكرى الدبق على صفحات الصحف فى دولة حديثة على ما اذكر، كما فى هذه الايام فى الصحف الاسرائيلية، ولم يتم استخدام هذا الكم من التعابير القومية المتعصبة من قبل اليمين واليسار حول حداد اليهود ومنع صراع الإخوة وحول حوار الاخوة



نخرج من غزة ونحمى البيت»... وعنوان الحملة العسكرية الرسمى لتفكيك المستوطنات: «يد للأخوة»، وكلمة يد هنا هى اختصار عبرى لمد يد المعونة.

ويضاف إلى هذا كله مقالات كبار الكتاب المعارضين للاستيطان فى الصحف الإسرائيلية الثلاث المشاركين فى الدراما الرخيصة، الذارفين دمعة مع العائلة، لأن العائلة كلها فى حداد تضامنًا مع حداد أحد أفرادها. ولكى تجتاز العائلة المحنة بسلام لا تجوز الشماتة. ومقال خافير سولانا فى هآرتس، بعد مقابلة جورج بوش... فى فزعة دولية لشارون على مستوى رأيه العام، مع وعود للإسرائيليين أن الكرة ستكون فى الملعب الفلسطينى وأن الامتحان القادم هو امتحان الفلسطينيين.

ثم قبل الحملة بيوم خرجت الصحف عن طورها لأن المنافسة بينها على أشدها ولأنها تريد أن تبيع: صورة جندية، جميلة، بعين من وضعها على الأقل، ببلوزة تريكو عسكرية بسيطة وجريئة بالنسبة للباس العسكرية ولكنها تحمل كتاب التوراة مفتوحا وتقرأ بتمعن. طبعا ربما لا ترى سطرًا واحدًا أثناء التصوير المهم أنها تبدو علمانية متحررة تقرأ التوراة فى هذا اليوم. لا ندرى ماذا نفعل بكمية الرخص الذى فاض علينا من ثنايا الصحف الحرة، إلى أن وردت صورة تحمل ألف معنى من صحافة الجهة الأخرى: صورة لا يمكنك أن تقشرها لكثرة طبقات القشور ولكثرة طبقات الوهم والعوالم الافتراضية المتضمنة فيها. قادة السلطة الفلسطينية فى غزة يقصون شريطا (شريط فعلى، وقد حسبنا أن عادة الشريط والوسادة والمقص قد اختفت من الدنيا) يطلون برؤوسهم من فوق الشريط والمقص وحامله. تجمعوا وتصوروا لافتتاح مقر... مقر ماذا؟ مقر مركز البث الإعلامى المباشر الذى أعد خصيصًا لنقل أخبار فك الارتباط. على الصفحة الأولى. هل أنت معى عزيزى القارئ؟ يتم افتتاح مركز إعلامى من النوع الذى يقام فى بلدان مختلفة عند انعقاد قمة أو ألعاب رياضية دولية موسمية أو غيرها. ولكنه يفتتح هنا بمقص وشريط من قبل أعلى مستوى فى السلطة كأنه صرح وطنى أو منشأة صناعية أو ثقافية. وهو مقر للبث الإعلامى لتغطية الحدث. وللصورة هنا أكثر من مغزى. فمجمل ما قام به العرب هو رد فعل أو تفسير لخطوة شارون وذلك دون أن يسألهم أحد. ولم يهم شارون هل يحتفلون أم يحدون. قرروا اقتحام الدراما الإسرائيلية العالمية التى اخرجت وانتجت دون فلسطينيين ودون عرب بالاحتفالات. واختلفوا على سبب الاحتفال، هل السبب هو انتصار المقاومة أم انتصار عملية السلام. واتفق العالم معهم أن هنالك سببًا للاحتفال وأن عليهم أن يقابلوا الحداد الإسرائيلى واحتفالاتهم هم بتزويد العالم بسبب أو بأسباب للاحتفال من نوع «ضرب بنى الإرهاب التحتية». وتقرر الحكومة الإسرائيلية اليوم بناء الجدار حول معاليه ادوميم، ويقول الوزير العمالى رامون أن الإدارة الأمريكية تعارض بناءه ولكنها لن تفعل شيئا بعد فك الارتباط.

لم يسكب هذا الكم من القطر السكرى الدبق على صفحات الصحف فى دولة حديثة على ما اذكر، كما فى هذه الايام فى الصحف الاسرائيلية، ولم يتم استخدام هذا الكم من التعابير القومية المتعصبة من قبل اليمين واليسار حول حداد اليهود ومنع صراع الإخوة وحول حوار الاخوة.. حتى العرب فى أسوأ شطحاتهم الرومانسية القومية لم يعبروا عن رغبتهم فى إعادة إنتاج القبيلة على هذا النحو.



وأنا لا أضيع هنا سطرًا واحدًا حول وصف البيوت والمنازل وعملية الاقتلاع، فالكذب والعهر هنا لا يستحقان حتى التعليق، ولو جاء الكذب من ايلى فيزل المنافق الابدى (نيويورك تايمز ٢١ اغسطس ٢٠٠٥). (اقترح فى هذه المناسبة احتفاليا الغاء جائزة نوبل للسلام فهى خلافا لغيرها من جوائز نوبل جائزة نفاق لا أكثر ولا أقل). من المهم فقط ان نذكر أن الحديث هو عن مستعمرين ومستعمرات. واقدر أن المستعمرين فى الجزائر قد بكوا بعد جيلين، وطوروا حبًا للإقليم الذى استعمروه. ورومانسية المستعمرين العنصريين معروفة فى أفريقيا. ولكن هؤلاء خلف الاسلاك الشائكة، بممارساتهم فى نفى المقيمين فى المكان والرغبة بالحلول مكانهم لم يتصفوا بأى رومانسية لا شكلاً ولا مضمونًا. وقبعوا خلف الاسلاك الشائكة والجدران والبنادق. أما السكان من حولهم فكانوا بأنفسهم لاجئين اقتلعوا من بيوتهم فى قرى ومدن الساحل الجنوبى لفلسطين التى تبعد كيلومترات معدودة عن مخيماتهم. هؤلاء هم الذين اقتلعوا من بيوتهم، وتفكيك المستوطنات على أهميته وضرورته لا يعوضهم عنها. ولكن الدراما التلفزيونية، بما فى ذلك عربيًا، طمست هذه الصورة. وحتى عندما قيل الكلام عن تغييب الفلسطينيين، وعن أن هذه المعركة التى يقوم التلفزيون بتصويرها ليست المعركة الحقيقية، فإن الصور قد تكلمت لغة أخرى. لقد صور التلفزيون لعبة شارون ونقلها للعالم كأنها اللعبة الوحيدة فى المدينة، ولم تغير بعض التعليقات فى نقد هذه الصورة فى الصورة المبثوثة ذاتها: صورة «الثمن الباهظ» الذى يدفعه المجتمع الاسرائيلى، المواجهة بين الجنود والمستوطنين والتعاطف مع الجنود الباكين على مصير المستوطنين واضطرارهم أن يلبوا نداء الواجب، وصورة معاناة الجنود وضبط اعصابهم وانهيار هذه المجندة أو تلك بكاء اما من الحر أو من الكاميرات أو فعلا من ☞



صور التلفزيون لعبة شارون ونقلها للعالم كأنها اللعبة الوحيدة فى المدينة، ولم تغير بعض التعليقات فى نقد هذه الصورة فى الصورة المبثوثة ذاتها: صورة «الثمن الباهظ» الذى يدفعه المجتمع الاسرائيلى



تزف لنا الصحيفة الليبرالية نبأ وصول السيدة افيتال فيرسكن الناطقة بلسان «جمعية رفاه القطط في إسرائيل» إلى كديم لإنقاذ القطط فى مستوطنتى جاتيم وكاديم



منظر المستوطنات الباكيات أو النائحات أو العافرات السم بكل اتجاه.

وسياسيا فرزت الصورة كما خشينا وكأن الدنيا مقسومة بين خيارين أما شارون أو المستوطنين، والخشية أن يختار حتى العرب أحد المعسكرين للتعاطف.. والخوف أن يحاول عربى إثارة الإعجاب بالادعاء أن قلبه يكاد يخونه وهو يشاهد الباكين على رسم درس. وعند العربى ضعف للبكاء على الطلول منذ الأول الثانوى. والمصيبة أنه بدل أن تقاطع فضائية عربية وزارة الخارجية الاسرائيلية يحصل العكس. ولكثرة الطلب كان من ضمن من جهزتهم الخارجية الإسرائيلية للنطق فى الفضائيات العربية شاب بدوى خدم فى الجيش.

وفى خضم محاولتى تجنب رؤية هذا كله، ثم مراجعته قراءةً بعد أسبوع، وجدت نفسى مشدوهاً أمام اختفاء قعر المشهد الإعلامى تماماً، بحيث لا يقف التدهور عند حدٍ، أو مستقر. انفخت القعر. انفزر القاع. انبعجت الارضية. (لم انجر عزيزى القارئ وراء مزاج لا يعبر عنه الا بالعامية. فمع أن فخت تستخدم للسقوف وليس للقيعان، وفزر للأقمشة والجلود، إلا أنها جميعا مصطلحات عربية فصحى كما وردت فى قاموس المحيط وفى تاج العروس). لم يبق لا قعر ولا قاع. وهكذا نقرأ (هآرتس ١٤ اغسطس آب) أن «المدافعين عن الرفق بالحيوان اجتمعوا مع مسؤولين حكوميين لتطبيق خطتهم بشأن إنقاذ الحيوانات البيتية التى سوف تترك فى جوش قطيف. اسم المنظمة «نوح»، تيمنا كما يبدو بفلك نوح الذى بناه من خشب قطرانى كما جاء فى التوراة لإنقاذ زوج من كل دابة تدب على وجه البسيطة، أو زاحف يزحف على بطنه، أو ذى جناحين يطير فى السماء قبل أن يأتى عليها الطوفان.

وحسب أقوال رئيسة المنظمة شيلى جلوزمان لصحيفة هآرتس فإن مكتب رئيس الحكومة قد تبنى الخطة، وتابعت قائلة أن «هنالك مئات القطط وبضع عشرات من الكلاب يجب سحبها من القطاع وإلا فسوف تبقى دون ماء وطعام ومكان للعيش، المهم هنا أن كافة فئات الشعب ومؤسساته تساهم فى هذا الجهد الوطنى الكبير لـإنقاذ الاخوة». وكأن القطط والكلاب لا يجوز ان تعيش عيشة الكلاب والقطط فى غزة المحررة. ومع ان النشيطة المذكورة لا تدرك عما تتحدث الا اننى مضطر مع ذلك للقول أنه لا حدود للسماجة. وقد نشرت اسوشيتيد برس (١٨ اغسطس آب) نبأ عن منظمة أخرى «شاى» ينتظر نشطاؤها من وزارة الأمن اذن دخول القطاع لإنقاذ الحيوانات. أما موقع منظمة «شاى» هذه فيصور نشيطات المنظمة مع الجنود والمجندات على حاجز ايرز فى صورة تاريخية قبل بدء حملتهم لإنقاذ الحيوانات التى سوف يتركها المستوطنون وراءهم.



ويوم ٢٣ آب، أغسطس تعود هآرتس مرة أخرى لتغطى أخبار منقذى الحيوانات المثاليين أولئك، توائم الجنود فى عملية إعادة كائنات حية أخرى إلى الوطن. وهذه المرة فى الضفة الغربية فى مستوطنة كديم. تزف لنا الصحيفة الليبرالية نبأ وصول السيدة افيتال فيرسكن الناطقة بلسان «جمعية رفاه القطط فى إسرائيل» إلى كديم لإنقاذ القطط فى مستوطنتى جاتيم وكاديم وقد عصرت هذه الخطوة النبيلة دموعاً من عينى المستوطنة مارتين اشجارى التى قالت إنها لم تعد تستطيع وحدها إطعام عشرين قطة تجمعت فى ساحة بيتها. والمهم والأهم أن الناطقة المدربة على النطق تقتبس الرمبام (رابى موشى بن ميمون) حكيم اليهودية وفيلسوفها الأول المعروف عربيا باسم موسى بن ميمون الذى كتب بالعربية والذى قال حسب المناضلة أعلاه أنه «لا فرق بين القسوة تجاه الحيوانات والقسوة تجاه البشر». وما زالت هنالك خمسون قطة فى جانيم، ومائة إلى مائتين فى كاديم، والمئات فى جوش قطيف. وتحتاج المنظمة إلى نصف مليون شاقل لتأمين مأوى لها. وقد أصدرت منظمات الرفق بالحيوان نداءات طالبت فيها الجمهور بتبنى الكلاب والقطط وأن تفسح مكانا لهؤلاء القادمين الجدد من المناطق التى تم الانسحاب منها. وعلى ذكر المساواة فى القسوة، لا تقدم الكلاب طلبات لم شمل ولا تطالب القطط بتصاريح أو إقامة مؤقتة أو دائمة وذلك دون أن تثبت يهوديتها. ويبقى أن نسأل لماذا لا يقيم العرب منظمات رفق بكلابهم وقططهم بحيث تصبح مناطقهم لائقة لسكن كلاب وقطط الأسياد، أو لكى تضاف منظمات جديدة إلى قائمة الجمعيات التى تجرى حوارا مع المنظمات الجارة؟ الكرة فى الملعب الفلسطينى لتقديم الجواب. على كل حال عدم وجود مثل هذه الجمعيات حالياً وفر علينا بعض التراشق بالبيانات حول قدرتها ان ترفق بالحيوان لا أقل من زميلاتها الإسرائيليات، وأنها لا تفرق بين قطة وأخرى خلافا للمنظمات الاسرائيلية.. انظروا أعزائى القراء إلى نصف الكأس الممتلئ إذ لم نضطر للمرور بهذه التجربة.

إزاء طوفان الإعلام والفضائيات الحالى وتهديده لإبادة كل ما ليس صورة ذات بعد واحد أو ظلا لصورة، أرى ضرورة لفلك نوح جديد طراز ٢٠٠٥، وأن ندخل فيه زوجا من جمعيات الرفق بالإنسان وأن نختار زوجا على الأقل من الصحفيين المستقيمين لكى نحافظ على هذا الجنس من الطوفان أعلاه، وزوجا من المشاهدين الذين لا تنطلى عليهم الصور التليفزيونية الرائجة لإنقاذ هذا الجنس أيضاً، وزوجا ممن يرفضون قراءة مقال لخافير سولانا ويرفضون اعتبار جائزة نوبل للسلام مهمة ويرفضون المشاركة فى حفلات استقبالهم، وزوجا ممن لا يقرأون كبار الكتاب وهم يكتبون مقالا كلفتهم بكتابته صحيفة عشية وقوع حدث كبير، وزوجا ممن لا يعتبرون المشاركة فى حفل استقبال أمراً مهماً، وزوجاً من أصحاب المعد الحساسة الذين تثير فيهم تصريحات كوفى عنان فى مدح شارون الرغبة بالتقيؤ، وزوجا ممن يعتبرون النفاق والكذب حتى لو كانت مدفوعة الأجر صفات سيئة، وزوجا ممن لا يعتبرون النجاح بأى ثمن قيمة، وناساً طيبين آخرين. ■

محمود محارب



كان العام ٢٠٠٤ عاماً مهماً ومفصلياً فى جملة المسائل الخاصة بالقضية الفلسطينية. ففى هذا العام بلور رئيس الوزراء الإسرائيلى آرئيل شارون خطة فك الارتباط من جانب واحد. وفيه أيضاً حصلت إسرائيل على إنجاز تاريخى، تمثل فى رسالة الضمانات الأمريكية التى عبرت عن تغيير رسمى وخطير فى السياسات الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية، وخاصة فى قضايا الحدود والاستيطان واللاجئين. وفى هذا العام أيضاً توفى الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات، الذى قاد النضال الوطنى الفلسطينى ما يربو على أربعة عقود، ووضع حركة التحرر الوطنى الفلسطينى على عتبة إنشاء الدولة الفلسطينية.

ويتناول هذا المقال سياسة إسرائيل وممارساتها تجاه الفلسطينيين فى هذا العام، ويتابع الشوط الذى وصلت إليه العلاقات الأمريكية الإسرائيلية وتأثير ذلك على الفلسطينيين.



فى ٢٤ يونيو ٢٠٠٢ ألقى الرئيس الأمريكى جورج بوش خطاباً كشف فيه النقاب عن رؤيته لحل الصراع الفلسطينى - الإسرائيلى، وعبر عن تأييده لقيام دولة فلسطينية مستقلة تعيش بجانب إسرائيل بسلام وأمن. ومن أجل تحقيق ذلك طالب الرئيس الأمريكى بظهور «قيادة فلسطينية جديدة ومختلفة». ومن ثم بلورت الإدارة الأمريكية، انطلاقاً من رؤية بوش، من خلال «الرباعية» التى تضم كلاً من الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا والاتحاد الأوروبى والأمم المتحدة، خطة «خارطة الطريق».

فى أكتوبر ٢٠٠٢، عرضت الإدارة الأمريكية، بصورة غير رسمية، مشروع «خارطة الطريق»، على القيادتين الفلسطينية والإسرائيلية. وفى حين قبلت القيادة الفلسطينية خارطة الطريق دون تحفظ، قبلت الحكومة الإسرائيلية بقيادة شارون، الخطة من حيث المبدأ فقط، وقامت بنسف هذا القبول بإضافتها ما يزيد على مائة تعديل من حذف وإضافة وتغيير- تم تصنيفها تحت ١٤ تحفظاً.

فى ١٤ نوفمبر ٢٠٠٤ أنهت الرباعية صياغة «خارطة الطريق»، بيد أنها لم تسلمها إلى القيادتين بصورة رسمية وبشكلها النهائى سوى فى ٣٠ أبريل٢٠٠٣، وذلك بسبب الحرب الأمريكية على العراق ولدوافع داخلية إسرائيلية.

استراتيجية شارون:

يعتبر شارون من أكثر القادة الإسرائيليين وضوحاً فى التعبير عن أفكاره وآرائه السياسية وعن السياسة التى ينبغى على إسرائيل اتباعها لتحقيق أهدافها. ومنذ أن اعتلى سدة الحكم فى إسرائيل، أكد أن الوقت لم يحن بعد لعقد سلام شامل مع الفلسطينيين، واقترح حلاً مرحلياً طويل الأمد يستمر فترة زمنية تربو على عقد ونصف العقد، وسعى لفرض هذا الحل على الشعب الفلسطينى. واجه شارون، كغيره من رؤساء الوزراء الذين سبقوه، معضلة أساسية فشلت إسرائيل فى إيجاد حل لها منذ احتلالها للأراضى الفلسطينية فى العام ١٩٦٧ وحتى الآن، وتنبع هذه المعضلة المزمنة من التناقض القائم بين المطلب الصهيونى فى الضم من ناحية، والحفاظ على إسرائيل كدولة يهودية، من ناحية أخرى. فضم الأراضى الفلسطينية المحتلة يلغى على أرض الواقع إسرائيل كدولة يهودية ويحولها، موضوعياً، إلى دولة ثنائية القومية، يزداد عدد العرب الفلسطينيين فيها بنسبة عالية، ليصبحوا أغلبية كبيرة. أما الانسحاب من الأراضى المحتلة، فإنه يتناقض مع العقيدة الصهيونية.

فى سياق تطبيق قناعته القائمة على رفض الانسحاب إلى حدود الرابع من يونيو ١٩٦٧، وإدراكه خطورة ما يطلق عليه صهيونياً «الخطر الديمغرافى»، سعى شارون إلى إقامة نظام فصل عنصرى فى فلسطين التاريخية. ووفق رؤيته، تنسحب إسرائيل من داخل قطاع غزة ومن ٤٢ بالمائة من الأراضى الفلسطينية المحتلة فى العام ١٩٦٧، وفى المقابل تضم إسرائيل الأراضى الفلسطينية التى أقيمت عليها المستوطنات، وكذلك تضم ما أمكنها من مناطق أخرى فى الضفة الغربية.

وورث شارون من سلفه باراك موقفاً معادياً للرئيس الفلسطينى الراحل ياسر عرفات وسياسة تستهدف فرض الإملاءات على الشعب الفلسطينى. فقد كان باراك قد اعتقد خطأً أن باستطاعته أن يملى حلاً على الشعب الفلسطينى وقيادته يضمن فيه تصفية القضية الفلسطينية وينهى الصراع العربى الإسرائيلى، بدون أن تنسحب إسرائيل انسحاباً كاملاً وشاملاً من الأراضى الفلسطينية المحتلة فى العام ١٩٦٧، وبدون الاعتراف بحق العودة؛ حلاً دائماً يضمن استمرار وجود المستوطنين المستعمرين فى القدس الشرقية، والضفة الغربية فى «كتل استيطانية» يضمها إلى إسرائيل، ويضمن كذلك وجود قواعد عسكرية إسرائيلية فى الضفة الغربية وسيطرة إسرائيلية على الأجواء والمياه الجوفية الفلسطينية؛ حلاً يضمن استمرار السيادة الإسرائيلية، وحيدة أو شريكة، على الحرم الشريف فى القدس.

لقد أدخل باراك الأوهام فى حزبه وفى اليسار الصهيونى والمجتمع الإسرائيلى بصورة عامة، أن بإمكانه فرض الحل على القيادة الفلسطينية فى مؤتمر كامب ديفيد. وعندما فشل فى فرض إملاءاته على القيادة الفلسطينية فى مؤتمر كامب ديفيد، حمّل باراك الرئيس عرفات مسئولية فشل تحقيق أوهامه، وأخذ ينشر فكرة أن الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات لم يعد شريكاً فى عملية السلام.

وتلقف شارون سياسة باراك تجاه الرئيس عرفات وجعلها تحتل المكانة المهمة فى استراتيجيته العامة تجاه الشعب الفلسطينى. وفى هذا السياق شنت حكومة شارون، مدعومة من الإدارة الأمريكية، وفى ظل صمت أو تواطؤ عربى رسمى، حملة واسعة منظمة، وقحة وشرسة، ضد الرئيس الراحل، استمرت عدة سنوات، وهدفت إلى إضعاف الرئيس عرفات وإحداث تآكل مستمر فى مكانته فلسطينياً وعربياً ودولياً لكى يسهل، فى الوقت المناسب، إبعاده أو التخلص منه.

كررت هذه الحملة واجترت مقولات كثيرة أهمها: عرفات ليس شريكاً فى عملية السلام، عرفات عقبة أمام تحقيق السلام وعرفات غير ذى صلة، ولا يوجد شريك فلسطينى لتحقيق السلام. وعلى أرض الواقع قامت سلطات الاحتلال الإسرائيلى بعمليات كثيرة بحق الرئيس الفلسطينى الراحل كان أهمها:

- فى الثالث من ديسمبر من العام ٢٠٠١ فرض الجيش الإسرائيلى حصاراً



أدخل باراك الأوهام فى حزبه وفى اليسار الصهيونى والمجتمع الإسرائيلى بصورة عامة، أن بإمكانه فرض الحل على القيادة الفلسطينية فى مؤتمر كامب ديفيد. وعندما فشل فى فرض إملاءاته على القيادة الفلسطينية فى مؤتمر كامب ديفيد، حمّل باراك الرئيس عرفات مسئولية فشل تحقيق أوهامه





عسكرياً على الرئيس ياسر عرفات داخل مقره فى المقاطعة بمدينة رام الله، بمساندة وتأييد أميركى وصمت عربى رسمى .

- فى ٢٩ مارس ٢٠٠٢، وبعد ثلاثة أيام من منع الرئيس عرفات من المشاركة فى مؤتمر القمة العربية فى بيروت، شن جيش الاحتلال الإسرائيلى أوسع هجوم له على مقر الرئيس عرفات ودمر الجزء الأعظم من «المقاطعة» ولم يبق سوى عدة مكاتب .

عشية العام ٢٠٠٤ نظم شارون أفكاره ورؤيته وعرضها رسمياً على الملأ فى خطابه فى مؤتمر هرتسيليا فى ١٨ ديسمبر٢٠٠٣، والتى باتت تعرف باسم خطة فك الارتباط من جانب واحد .

ساهمت مجموعة من العوامل فى التأثير على شارون لطرح خطته، وأهمها: أولاً: خشيته من أن تواجه إسرائيل وضعاً يسعى فيه المجتمع الدولى إلى فرض حلٍ على إسرائيل، مثل خارطة الطريق، أو المبادرة العربية أو غيرها من المبادرات. ثانياً: فشل إسرائيل فى كسر إرادة الشعب الفلسطينى وتواصل الانتفاضة الفلسطينية، وما تلحقه بإسرائيل من أذى منظور وغير منظور. ثالثاً: خشية شارون مما يعرف صهيونياً «بخطر المسألة الديمغرافية».

وقد جاءت هذه الخطة فى سياق استراتيجية شارون الساعية إلى شطب الاتفاقات السابقة وإلى كسر إرادة الشعب الفلسطينى وتركيعه وتغيير قيادته وإلى وقف المقاومة الفلسطينية بشقيها المسلح والشعبى، وتعزيز الاستيطان فى الضفة الغربية.

ساهمت مجموعة من العوامل فى نجاح شارون فى تجميد خطة خارطة الطريق وجعل خطته «اللعبة الوحيدة» فى المدينة، أبرزها:

أولاً: علاقات إسرائيل القوية والخاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية، فى عالم أحادى القطب تقوده أميركا.

ثانياً: حالة الضعف العربى، واحتدام الصراعات البينية وتعاظم المنافسة الدائرة فيما بينها على التقرب من الإدارة الأمريكية، لكسب رضاها وودها.

ثالثاً: عدم وجود معارضة إسرائيلية فى إسرائيل خارج إطار حزب الليكود واليمين المتطرف الإسرائيلى، وتبنى اليسار الصهيونى خطة شارون دون تحفظ ودون أن يطرح رؤية بديلة يناضل لتحقيقها .

رابعاً: عدم وجود استراتيجية نضالية فلسطينية واحدة تتفق على الهدف الذى يسعى الفلسطينيون لتحقيقه، وتحديد وسائل النضال التى يتوجب اتباعها لتحقيق هذا الهدف.

كان من المفروض أن تواجه خطة فك الارتباط من جانب واحد معارضة من واضعى خطة خارطة الطريق، أو من أوروبا أو من الدول العربية، بيد أن هذا لم يحدث. فبعد فترة تردد قصيرة، دخلت واشنطن فى مفاوضات طويلة مع شارون حول خطته. وسرعان ما تمحورت المفاوضات حول الثمن الذى ستدفعه الإدارة الأمريكية للطرف الذى يجمد خطتها، خطة خارطة الطريق، ويضعها على الرف، ويستبدلها بخطة متضاربة معها.

ومن المفارقات أن العقبة الأساسية التى وقفت أمام خطة فك الارتباط تمثلت فى المعارضة القوية والفعالة داخل إسرائيل وبالذات داخل حزب الليكود الحاكم واليمين المتطرف الإسرائيلى. وفى ظل تبنى خطة شارون دولياً وإقليمياً لم يبق أمام صاحب الخطة سوى أن يمررها عبر عدة محطات مركز حزب الليكود، كتلة حزب الليكود فى الكنيست، الحكومة الإسرائيلية والكنيست. وفى كل محطة من محطات هذه الخطة واحتدام الصراع حولها بين مؤيد ومعارض كان شارون يعزز مكانته على الصعيدين الإقليمى والدولى كرجل «سلام». ليس هذا فحسب، ففى كثير من الأحيان تجندت بعض الدول فى المنطقة والولايات المتحدة الأمريكية لتمرير خطته إسرائيلياً.

خطاب شارون فى هرتسليا

عشية خطاب شارون فى مؤتمر هرتسليا فى ١٨ديسمبر٢٠٠٣، الذى طرح فيه خطة فك الارتباط من جانب واحد، عقدت لقاءات كثيرة ومكثفة فى واشنطن وتل أبيب بين القيادتين الإسرائيلية والأمريكية. هدفت إسرائيل من ورائها الحصول على تأييد وغطاء أمريكى لخطواتها أحادية الجانب، كما أرادت إسرائيل التوضيح

للإدارة الأمريكية أن الخطوات أحادية الجانب المزمع اتخاذها لا تتناقض مع خارطة الطريق وإنما هى بمثابة خطوات أمنية فقط وليست سياسية.

اختار شارون أن يطرح أفكار خطة فك الارتباط من منصة مؤتمر هرتسليا، وهو المؤتمر الذى بات منذ سنوات عديدة العنوان الأهم لتطرح النخب الإسرائيلية برامجها وخططها وأفكارها من خلاله. ويمكن إيجاز أهم النقاط التى وردت فى خطاب شارون كالتالى:

١ ـ لا تزال إسرائيل متمسكة بخارطة الطريق.

٢ ـ تشترط إسرائيل «وقف الإرهاب» قبل التقدم بأية خطوة فى تنفيذ خارطة الطريق، وتشترط كذلك القضاء على منظمات «الإرهاب»، وإجراء إصلاحات فى السلطة الفلسطينية.

٣ ـ إنذار الفلسطينيين بأنهم إذا لم يقوموا باجتثاث «البنية التحتية للإرهاب»، وإجراء إصلاحات شاملة، فإن إسرائيل ستبادر خلال شهور معدودة، إلى القيام بخطوات أحادية الجانب لفك الارتباط، وهى خطوات أمنية محضة وليست سياسية.

٤ ـ يشمل فك الارتباط أحادى الجانب، الذى ستقوم به إسرائيل، إعادة انتشار جديدة للجيش الإسرائيلى فى «خط أمنى» فى الأراضى الفلسطينية، وكذلك يشمل إخلاء مستوطنات. أما المستوطنات التى سيتم نقلها فهى تلك «التى لن تكون داخل إسرائيل فى أى حل دائم مستقبلى، يتم التوصل إليه». ومقابل ذلك ستعزز إسرائيل سيطرتها على أجزاء من الأراضى الفلسطينية المحتلة «التى ستكون جزءاً لا يتجزأ من دولة إسرائيل فى أى حل دائم مستقبلى».

٥ ـ ستسرع إسرائيل فى بناء جدار الفصل بوتيرة عالية.

٦ ـ ستنسق إسرائيل خطواتها أحادية الجانب مع الولايات المتحدة الأمريكية.

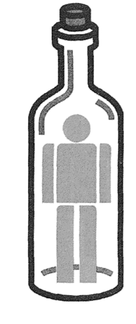
٧ ـ ستزيل إسرائيل المستوطنات العشوائية غير القانونية، وستلتزم كذلك بتجميد الاستيطان وفق التفاهمات مع الولايات المتحدة الأمريكية.

٨ ـ تهدف الخطة إلى الحصول على أعلى درجة من الأمن للإسرائيليين، وأقل درجة احتكاك مع الفلسطينيين.

من الملاحظ أن ردود فعل الإدارة الأمريكية الأولية على خطاب شارون كانت فاترة للغاية، وذلك على الرغم من الاتصالات الإسرائيلية الأمريكية المكثفة قبل إلقاء الخطاب. وقد ركزت ردود الفعل الأمريكية هذه على تأكيد شارون تمسكه بخارطة الطريق وعلى إخلاء المستوطنات العشوائية وعلى التسهيلات الموعودة للفلسطينيين. ووفق المحلل السياسى لصحيفة «هآرتس»، الوف بن، اعتقد كبار المسئولين الأمريكيين أن خطة شارون جاءت لاستهلاك سياسى إسرائيلى داخلى.

واتسم موقف الإدارة الأمريكية بالتلكؤ والتردد فى الأسابيع الأولى التى

إسرائيل والأبارتهايد



بدأت مفاوضات مكثفة بين الجانبين ليس على خارطة الطريق وإنما على خطة فك الارتباط من جانب واحد، وذلك وفق أجندة شارون ووفق شروطه البعيدة جداً عن خارطة الطريق التى استطاع أن يجمدها

تلت خطاب شارون، إلا أن هذه الإدارة أبدت موقفاً حاسماً وقامت بتنسيق واسع مع إسرائيل بخصوص جدار الفصل العنصرى. واحتل موضوع جدار الفصل وطرحه على محكمة العدل الدولية فى لاهاى، الأولوية العليا فى العلاقات الإسرائيلية ـ الأمريكية. فقد جرت مشاورات واجتماعات تنسيقية بين الجانبين لتلافى الأضرار التى قد يلحقها قرار المحكمة الدولية، ليس فقط بإسرائيل وإنما أيضاً بالولايات المتحدة الأمريكية. إذ خشيت الإدارة الأمريكية من وصول قضايا ذات صلة بأمريكا إلى محكمة لاهاى كاحتلالها للعراق أو كانتهاكاتها لحقوق الإنسان فى معسكر غوانتانامو. ولإدراك إسرائيل مخاوف الإدارة الأمريكية من هذا الأمر سعت إلى تجنيد الأخيرة وتشجيعها لوضع كل ثقلها فى معارضة بحث قضية الجدار أمام محكمة العدل الدولية فى لاهاى.

حاولت إسرائيل الطعن فى صلاحية محكمة العدل الدولية فى هذه القضية، مدعية أنها قضية سياسية وليست قانونية، الأمر الذى لقى دعم الإدارة الأمريكية. وفى هذا السياق جرت اجتماعات بين دوف فايسغلاس وكونداليسا رايس، وكذلك بين المستشار القضائى لوزارة الخارجية الإسرائيلية ألن بيكر، ونظيره فى وزارة الخارجية الأمريكية وليام تابت، بالإضافة إلى لقاءات أخرى بين كبار المسئولين فى الدولتين. وقد أشار الجانب الأمريكى خلال هذه اللقاءات، بشكل لا يدع مجالاً للشك، إلى أن الولايات المتحدة تعارض بشدة طرح قضية جدار الفصل على محكمة العدل الدولية، وأنها ستنسق مع إسرائيل الوسائل والإجراءات المناسبة التى يتوجب اتباعها.

وفى فبراير ٢٠٠٤ أخذت الإدارة الأمريكية تبدى اهتماماً ملحوظاً ومتزايداً بـ «خطة فك الارتباط من جانب واحد»، إذ أرسلت العديد من المسئولين للوقوف على تفاصيل الخطة ومضامينها وتأثيراتها السياسية. وفى ١٨ فبراير ٢٠٠٤ وصل ستيف هدلى واليوت ابرامز من البيت الأبيض، ووليام بيرنز من وزارة الخارجية إلى إسرائيل، بهدف تطوير مفهوم مشترك بين الطرفين حول خطة فك الارتباط وللإلمام بالجدول الزمنى لتنفيذ هذه الخطة. ويبدو أن الإدارة الأمريكية، بعدما رجحت، أو تيقنت، أن شارون مصر على المضى قدماً فى تنفيذ ما طرحه فى خطابه، حسمت أمرها ودخلت فى مفاوضات مع القيادة الإسرائيلية حول الخطة. وبمجرد تجاوب الإدارة الأمريكية مع خطة فك الارتباط والشروع بالتفاوض حولها، أحرز شارون إنجازاً سياسياً حقيقياً كان من الصعب تصوره قبل ذلك ببضعة شهور. فقد بدأت مفاوضات مكثفة بين الجانبين ليس على خارطة الطريق وإنما على خطة فك الارتباط من جانب واحد، وذلك وفق أجندة شارون ووفق شروطه البعيدة جداً عن خارطة الطريق التى استطاع أن يجمدها بعد أن جر الولايات المتحدة إلى رؤيته بعيداً عن الرؤية الدولية التى تمثلت فى تلك الخطة. وعلى ضوء هذا الموقف الجديد، استمرت المفاوضات أسابيع طويلة حول خطة فك الارتباط من جانب واحد، وحول الثمن الذى ستقدمه الولايات المتحدة لإسرائيل مقابل تنفيذها.

فى السادس والعشرين من فبراير ٢٠٠٤ تبين من تسريبات الإدارة الأمريكية لصحيفتى «واشنطن بوست» و«نيويورك تايمز» أنها تؤيد خطة شارون ولكن فى الوقت ذاته لم يكن واضحاً فى ما إذا كانت هذه الإدارة ستتسامح مع إسرائيل فى عدة قضايا أهمها: البناء فى الكتل الاستيطانية الكبيرة، عدم تفاوض شارون مع الفلسطينيين، وهل ستلتزم الإدارة بعدم طرح خطط سياسية بديلة لخطة شارون ما دام عرفات على رأس السلطة الفلسطينية.

رسالة الضمانات الأمريكية

تمحورت المفاوضات الإسرائيلية الأمريكية، أساساً، حول مضامين رسالة الضمانات الأمريكية، وأحرزت إسرائيل إنجازاً تاريخياً مهماً فاق جميع التوقعات، بما فى ذلك توقعات الإسرائيليين أنفسهم. فقد استجاب الرئيس الأمريكى جورج بوش فى رسالة أرسلها إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى، على شكل بيان رئاسى، لمعظم المطالب الإسرائيلية، إن لم يكن كلها. ويمكن إيجاز النقاط المركزية فى رسالة الضمانات كالتالى:

١ ـ تبنت رسالة الضمانات خطة فك الارتباط من جانب واحد، ووضعتها على رأس الأجندة السياسية لسنوات طويلة، وجعلتها عملياً، وإن لم يكن رسمياً، الخطة الوحيدة القائمة على الساحة، والمفروضة على جميع الأطراف المحلية والإقليمية والدولية للتعاطى معها، وبذلك، جمدت خارطة الطريق وحولتها إلى جسم محنط تبث الروح فيه فقط من أجل منع طرح مشاريع أخرى. فقد التزم الرئيس الأمريكى بأن الولايات المتحدة ستبذل كل ما فى وسعها لمنع أية محاولة من قبل أى كان لفرض خطة أخرى.

٢ ـ احتل موضوع الإرهاب ومكافحة الإرهاب المكانة الأولى، بديلاً عن الاحتلال والسعى لإزالته. جاء فى رسالة الضمانات أنه على القيادة الفلسطينية أن تقف بحزم ضد الأعمال الإرهابية بما فيها القيام بعمليات مؤثرة ومستمرة من أجل وقف الإرهاب وتفكيك بنيته التحتية وقدراته. ولكى لا يترك مجال للنقاش حول معنى الإرهاب والفرق بينه وبين المقاومة المسلحة، شددت رسالة الضمانات على أنه يجب على الفلسطينيين التوقف عن القيام بأعمال

عسكرية وجميع أشكال العنف ضد الإسرائيليين فى أى مكان. كذلك أكدت الرسالة على أنه لن يتمتع الإسرائيليون والفلسطينيون بالأمن ما لم يجتمعوا هم وكافة الدول فى المنطقة ويوحدوا جهودهم لمحاربة الإرهاب ويفككوا المنظمات الإرهابية.

٣ - تعهد بوش أنه فى أية تسوية سلمية يتوجب أن تكون لإسرائيل حدود آمنة ومعترف بها وأن تكون ناجمة عن مفاوضات بين الأطراف استناداً لقرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨، وفى ضوء الحقائق الجديدة على الأرض، وخاصة وجود المراكز السكانية الإسرائيلية الرئيسة القائمة بالفعل، فإن من غير الواضح أن نتوقع أن تسفر مفاوضات الحل الدائم عن العودة الكاملة والشاملة إلى خطوط الهدنة لعام ١٩٤٩. برر جورج بوش موقفه هذا بقوله إن كل جهود التفاوض السابقة بشأن إيجاد حل على أساس الدولتين توصلت إلى نفس النتيجة.

٤ - رفض بوش فى البيان الرئاسى حق اللاجئين الفلسطينيين فى العودة إلى ديارهم داخل حدود إسرائيل، وتبنى الموقف الإسرائيلى بالكامل بصورة جلية وواضحة، حيث ذكر أن الولايات المتحدة ملتزمة بقوة بأمن إسرائيل ورفاهيتها كدولة يهودية. ومن زاوية يهودية دولة إسرائيل ذكر بوش أنه من الواضح أنه فى إطار حل متفق عليه، وعادل وواقعى لمسألة اللاجئين الفلسطينيين، وكجزء من أى حل دائم، فإن هذا الحل سيتحقق من خلال إنشاء دولة فلسطينية وتوطين اللاجئين الفلسطينيين فيها وليس فى إسرائيل.

٥ - لم يعارض البيان الرئاسى إنشاء جدار الفصل، وقبل تعهد حكومة إسرائيل أن يكون الجدار أمنياً، بدلاً من جدار سياسى، وأن يكون مؤقتاً بدلاً من دائم، وألا يلحق ضرراً بقضايا الوضع النهائى بما فى ذلك الحدود النهائية.

٦ - تضمن البيان الرئاسى المطالبة بأن تكون لإسرائيل حدود آمنة ومعترف بها وكذلك بحدود ذات مقدرة للدفاع عنها، وهى المرة الأولى أيضاً التى تقبل الولايات المتحدة تبنى مثل هذه الصيغة.

وثيقة فك الارتباط من جانب واحد

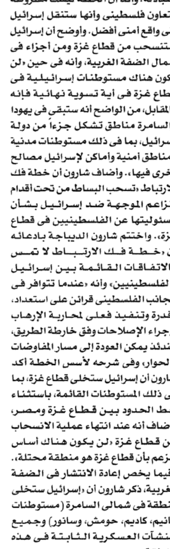
جاءت وثيقة فك الارتباط على شكل رسالة وجهها شارون إلى بوش فى ١٤ أبريل ٢٠٠٤. أكد شارون فى ديباجة الوثيقة أن إسرائيل ملتزمة بالعملية السلمية وتتطلع نحو تسوية متفق عليها، على قاعدة مبدأ دولتين لشعبين: دولة إسرائيل كدولة للشعب اليهودى ودولة فلسطينية للشعب الفلسطينى. ويبرر شارون فك الارتباط من جانب واحد بقوله أن إسرائيل توصلت إلى الاستنتاج بأنه ليس ثمة شريك فلسطينى اليوم يمكن التقدم معه فى عملية سلمية متبادلة. وأكد أن الخطة ليست مشروطة بتعاون فلسطينى وأنها ستنقل إسرائيل إلى واقع أمنى أفضل. وأوضح أن إسرائيل ستنسحب من قطاع غزة ومن أجزاء فى شمال الضفة الغربية، وأنه فى حين «لن تكون هناك مستوطنات إسرائيلية فى قطاع غزة فى أية تسوية نهائية فإنه بالمقابل، من الواضح أنه ستبقى فى يهودا والسامرة مناطق تشكل جزءاً من دولة إسرائيل، بما فى ذلك مستوطنات مدنية ومناطق أمنية وأماكن لإسرائيل مصالح أخرى فيها». وأضاف شارون أن خطة فك الارتباط «تسحب البساط من تحت أقدام المزاعم الموجهة ضد إسرائيل بشأن مسئوليتها عن الفلسطينيين فى قطاع غزة». واختتم شارون الديباجة بادعائه أن «خطة فك الارتباط لا تمس بالاتفاقات القائمة بين إسرائيل والفلسطينيين»، وأنه «عندما تتوافر فى الجانب الفلسطينى قرائن على استعداد، وقدرة وتنفيذ فعلى لمحاربة الإرهاب وإجراء الإصلاحات وفق خارطة الطريق، عندئذ يمكن العودة إلى مسار المفاوضات والحوار» وفى شرحه لأسس الخطة أكد شارون أن إسرائيل ستخلى قطاع غزة، بما فى ذلك المستوطنات القائمة، باستثناء خط الحدود بين قطاع غزة ومصر، وأضاف أنه عند انتهاء عملية الانسحاب من قطاع غزة «لن يكون هناك أساس للزعم بأن قطاع غزة هو منطقة محتلة». وفيما يخص إعادة الانتشار فى الضفة الغربية، ذكر شارون أن «إسرائيل ستخلى منطقة فى شمالى السامرة (مستوطنات غانيم، كاديم، حومش، وسانور) وجميع المنشآت العسكرية الثابتة فى هذه المنطقة».

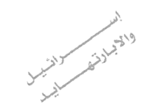
وبالنسبة لجدار الفصل، أكد شارون أن إسرائيل ستواصل بناءه وفق قرارات الحكومة ذات الصلة، وسيأخذ المسار بالحسبان الاعتبارات الإنسانية».

الواقع الأمنى بعد الإخلاء

بعد أن تنسحب إسرائيل من داخل قطاع غزة، فإنها ستحاصره براً وبحراً وجواً وفق خطة فك الارتباط. فقد جاء فى الوثيقة أن إسرائيل «ستشرف وتحافظ على الغلاف الخارجى البرى، وستسيطر بشكل حصرى على المجال الجوى لغزة، وستواصل إجراء نشاطات عسكرية فى المجال البحرى لقطاع غزة». علاوة على ذلك فإن قطاع غزة، وفق الخطة «يتوجب أن يكون منزوعاً من السلاح الذى لا يتوافق وجوده مع الاتفاقات القائمة»، كذلك ستحتفظ إسرائيل لنفسها «بحق الدفاع عن النفس، بما فى ذلك القيام بالخطوات الوقائية والرد «واستخدام القوة ضد الأخطار التى تنشأ داخل قطاع غزة».

وفيما يخص الضفة الغربية، كرر شارون «حق إسرائيل فى الدفاع عن النفس، «وحق الرد»، وحق استخدام القوة ضد الأخطار التى تنشأ فى المنطقة المخلاة». أما فى باقى مناطق الضفة فقد أكد أن «العمليات الأمنية الجارية، ستتواصل»، ووعد فى الوقت ذاته أن تعمل إسرائيل على تقليص نقاط التفتيش فى عموم الضفة.







أحرزت إسرائيل إنجازا تاريخيا مهما. فقد استجاب بوش فى رسالة أرسلها إلى شارون، لمعظم المطالب الإسرائيلية، إن لم يكن كلها

تمنح خطة فك الارتباط أربع دول دوراً أمنياً، هى الولايات المتحدة وبريطانيا ومصر والأردن. فبعد أن تحصل هذه الدول على موافقة إسرائيل وبعد التنسيق معها، يسمح لها بمساعدة وتدريب قوات الأمن الفلسطينية، «بغرض محاربة الإرهاب والحفاظ على الأمن العام». وشملت خطة فك الارتباط ألا يكون هناك وجود أمنى فى الضفة والقطاع لأية دولة من دون التنسيق مع إسرائيل والحصول المسبق على موافقتها.

وفى ما يخص منطقة حدود قطاع غزة مع مصر، تؤكد الخطة على استمرار الوجود العسكرى الإسرائيلى على طول هذه الحدود (محور فيلادلفى وفق التسمية الإسرائيلية)، وتشير إلى إمكانية توسيعها، الأمر الذى قد يعنى هدم مئات بل آلاف المنازل الفلسطينية. ولم تستثن الخطة أن تقوم إسرائيل بإخلاء المنطقة الحدودية المذكورة، بيد أنها ربطت ذلك واشترطته بالواقع الأمنى وبمقدار التعاون المصرى فى خلق تسوية مأمونة أخرى. وتضيف الخطة انه عندما تنشأ الظروف لإخلاء هذه المنطقة ستكون إسرائيل على استعداد لفحص إمكانية إقامة ميناء بحرى ومطار فى قطاع غزة، وفقاً للترتيبات التى ستقرر مع إسرائيل.

وفى ما يخص الأملاك الثابتة فى المستوطنات الإسرائيلية بعد الانسحاب منها تقترح الخطة إقامة هيئة دولية، بموافقة إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، تكون مهمتها تسلم الملكية على هذه المستوطنات، حيث ستبقى هذه الملكية تحت إشراف تلك الهيئة، وتقدير عموم الأملاك يقع ضمن مهمات الهيئة أيضاً. والهدف من ذلك احتفاظ إسرائيل لنفسها بحق المطالبة بأخذ القيمة الاقتصادية للأملاك التى ستبقى فى المنطقة بالحسبان. وبالنسبة للبنى التحتية والترتيبات المدنية، تؤكد الخطة أن البنى التحتية للمياه والكهرباء والمجارى والاتصالات، التى تخدم الفلسطينيين ستبقى، وان إسرائيل ستسمح باستمرار تزويد الفلسطينيين بالكهرباء والمياه والغاز والوقود وفق الترتيبات القائمة. كذلك تؤكد الخطة أن الترتيبات الاقتصادية السارية حالياً بين إسرائيل والفلسطينيين ستبقى على ما هى عليه، وتشمل حركة العمال والبضائع والنظام المالى والضرائب والنظام الجمركى والبريد والاتصالات.

وبخصوص المنطقة الصناعية «إيرز» الواقعة فى أقصى شمال قطاع غزة، تشترط الخطة إبقاءها على ما هى عليه بشرطين: إجراء

ترتيبات أمنية مناسبة، واعتراف صريح من الأسرة الدولية بأن استمرار وجود المنطقة الصناعية بشكلها الحالى، «لن يعتبر استمراراً للسيطرة الإسرائيلية على المنطقة». على أية حال لم تنتظر حكومة إسرائيل تحقق شرطيها، وقررت إخلاء المنطقة الصناعية ونقلها إلى مناطق عديدة داخل إسرائيل، فى أعقاب حدوث عمليات فدائية فى المنطقة الصناعية.

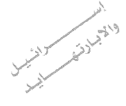
وبما يخص معبر إيرز، الواقع داخل قطاع غزة فى أقصى شماله، تؤكد الخطة أن هذا المعبر سينقل إلى داخل الأراضى الإسرائيلية فى جدول زمنى محدد. أما بخصوص المعابر الدولية، بين قطاع غزة ومصر وبين الضفة الغربية وشرق الأردن، فتؤكد الخطة أن الترتيبات القائمة ستبقى سارية المفعول. وتشير الخطة إلى أن إسرائيل معنية بنقل معبر رفح الواصل بين قطاع غزة ومصر، إلى نقطة المثلث الحدودى بين قطاع غزة ومصر وإسرائيل، وذلك بعد التنسيق مع مصر. أما بالنسبة للجدول الزمنى لتنفيذ خطة فك الارتباط، فمن المقرر، وفق الخطة، أن تنجز حتى نهاية العام ٢٠٠٥.

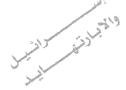
وتستخلص الوثيقة فى النهاية أن إسرائيل تتوقع دعماً واسعاً لخطة فك الارتباط وهذا الدعم حيوى من أجل دفع الفلسطينيين لتنفيذ المطلوب منهم عملياً فى مجال مكافحة الإرهاب وتنفيذ الإصلاحات وفق خارطة الطريق.

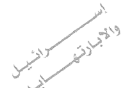
خطة فك الارتباط

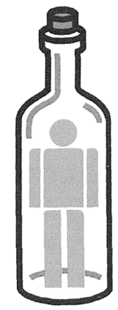
فى أعين أصحابها

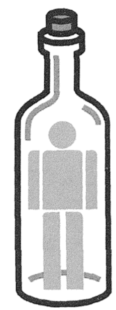
فى أكتوبر ٢٠٠٤، كشف مهندس خطة فك الارتباط ومبلور العلاقات الإسرائيلية الأمريكية بخصوص خطة فك الارتباط الدوافع الكامنة وراء طرح الخطة والأهداف المرجوة منها، وذلك فى حوار طويل أجرته معه صحيفة «هآرتس». فقد ذكر فايسغلاس أن هدف الخطة التصدى للخطط السياسية المطروحة وتجميدها وطرح الإرهاب على أنه المشكلة الأساسية، وتجسيد الادعاء الإسرائيلى أنه لا يوجد شريك فلسطينى ووقف «التنازلات» الإسرائيلية. وحول سؤال ما هى أهمية فكرة فك الارتباط أجاب فايسغلاس: فك الارتباط هى..... زجاجة الفورملين التى تدخل داخلها رؤية الرئيس كى تتجمد فترة طويلة جداً. خطة فك الارتباط هى فى الحقيقة فورملين. انها تزود كمية الفورملين المطلوبة كى لا تكون هناك مسيرة سلمية مع الفلسطينيين... انها تمكن إسرائيل من الوقوف براحة فى حالة مرحلية يتم خلالها إبعاد أى ضغط سياسى قدر الإمكان. انها تمنح شرعية لادعائنا أنه لا تفاوض مع الفلسطينيين. يوجد هنا قرار أن نفعل الحد الأدنى المطلوب من أجل الحفاظ على وضعنا السياسى، وهذا القرار يثبت نفسه. انه يمكن الأمريكيين من مخاطبة العالم الهائج والمائج والقول له ماذا تريدون؟ ماذا تريدون؟ كما أنها ترغم العالم على العمل بفكرتنا نحن، بالسيناريو الذى كتبناه نحن. انها تضع الفلسطينيين تحت ضغط عظيم. انها تزج بهم فى زاوية يكرهون أن يوضعوا بها...»











رفض بوش فى البيان الرئاسى حق اللاجئين الفلسطينيين فى العودة إلى ديارهم داخل حدود إسرائيل، وتبنى الموقف الإسرائيلى بالكامل بصورة جلية وواضحة

الممارسات الإسرائيلية

جدار الفصل

تعود فكرة بناء جدار فاصل بين الضفة الغربية وبين إسرائيل إلى سنين عديدة مضت، إلا أن التفكير بشكل جدى وعملى لبناء جدار فاصل بدأ فى ولاية حكومة رابين، إذ طلب رابين من وزير الشرطة فى حكومته، موشيه شاحال، إعداد خطة مفصلة لبناء سور فاصل بين الضفة الغربية وإسرائيل ليس بهدف محاربة المقاومة الفلسطينية، إنما بهدف رسم حدود سياسية. وزير الأمن فى تلك الحكومة، اسحق مردخاى، أبدى معارضة شديدة لتلك الخطة، ما أدى إلى تجميدها وحذفها من جدول أعمال الحكومة.

فى العام ٢٠٠١، وجراء اندلاع انتفاضة الأقصى وتزايد العمليات داخل الخط الاخضر، أسس عضو الكنيست عن حزب العمل، حاييم رامون، حركة داخل صفوف حزبه بهدف إعادة إحياء فكرة إقامة جدار فاصل، وأدرجت حكومة باراك هذا الموضوع على جدول أعمالها، فأقامت لجاناً مختصة لدراسة وتخطيط بناء الجدار. ولكنَّ تقديم موعد الانتخابات العامة، عام ٢٠٠١، اجل النظر فى الموضوع.

يقسم جدار الفصل الضفة الغربية إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: منطقة أمنية شرقية على طول الغور بمساحة ١٢٣٧ كيلومترا مربعا، أى ما يعادل ٢١,٩٪ من مساحة الأراضى الفلسطينية، وتضم هذه المساحة ٤٠ مستوطنة إسرائيلية. القسم الثانى: منطقة أمنية غربية بمساحة ١٣٢٨ كيلو مترا مربعا، أى ما يعادل ٢٣,٤٪ من مساحة الأراضى الفلسطينية، وهذا يعنى أن كلتا المنطقتين ستضمان ٤٥,٣٪ من مساحة الأراضى الفلسطينية. أما المنطقة الثالثة والتى تبلغ ٥٤,٧٪ من الأراضى الفلسطينية والتى تضم المدن الفلسطينية الكبرى، فستقسم إلى ٨ مناطق و٦٤ معزلاً (غيتو) فلسطينياً. اى ما تم الحديث عنه من قبل حكومة شارون، وبتأييد أمريكى لإعطاء دولة مؤقتة للفلسطينيين على مناطق «ا» و«ب».

وفقا لتقديرات الجيش الإسرائيلى، ستبلغ تكلفة الجدار ١,٨ مليار شيكل، بتكلفة ١٠ ملايين شيكل للكيلومتر الواحد.

سيتكون الجدار من العناصر التالية:

أسلاك شائكة لولبية، وهى أول عائق فى بعض الأراضى من الجدار.

خندق بعرض أربعة أمتار فى بعض الأراضى وعمق خمسة أمتار، يأتى مباشرة عقب الأسلاك.

شارع اسفلتى بعرض ١٢ متراً، بغرض عمليات المراقبة والاستطلاع.

يليه شارع مغطى بالتراب والرمل الناعم بعرض ٤ أمتار لكشف آثار المتسللين.

ثم الجدار، وهو جدار اسمنتى يعلوه سياج معدنى إلكترونى بارتفاع أكثر من ثلاثة أمتار، مركب عليه أجهزة إنذار إلكترونية وكاميرات وأضواء كاشفة.

وتوجد هذه المنشآت نفسها فى الجانب الآخر للجدار.

خططت إسرائيل لبناء الجدار على ثلاث مراحل أساسية: المرحلة الأولى (ا)، تمتد بطول حوالى ٣٦٠ كلم، من قرية سالم أقصى شمال الضفة الغربية حتى بلدة كفر قاسم جنوبا. المرحلة الثانية (ب) تمتد على طول ٤٥ كلم تقريبا من قرية سالم وحتى بلدة تياسير على حدود غور الأردن. أما المرحلة الثالثة (ج)، فتمتد من مستوطنة «الكنا» حتى منطقة البحر الميت، وسيفصل الجدار فى مرحلته الثالثة بين غور الأردن وتجمعات المواطنين الفلسطينيين فى قرى ظهر الجبل.

المرحلة (ا)

فى أواخر عام ٢٠٠٣ تم الانتهاء من بناء المرحلة (ا)، حيث التف الجدار حول جنين، طولكرم، قلقيلية (الأكثر تضررا) واقترب من سلفيت حيث انتهى فى قرية مسحة شمال غربى سلفيت.

المرحلة (ب)

المرحلة الثانية فى بناء الجدار تحيط بالجانب الشرقى من محافظات جنين إلى طوباس، وبالتحديد من قرية زبوبا شمال جنين إلى حاجز تياسير شرق طوباس. ويمتد طول الجدار فى هذه المرحلة ٤٥ كلم. المرحلة الثانية تشمل أيضاً بناء جدار حول مدينة القدس المحتلة. مسار الجدار حول القدس يرسم خارطة جديدة للمدينة. ويظهر من الخرائط أن الهدف الأساسى وراء رسم هذا المسار هو «خنق» الأحياء الفلسطينية داخل ممر ضيق محاط بالأحياء اليهودية الجديدة. وسوف يسد الجدار الفراغات الإسكانية بين الأحياء اليهودية إلى أن تقوم وزارة الإسكان الإسرائيلية بملئها بأحياء يهودية جديدة. يفصل الجدار بين القدس الشرقية وبين الضفة الغربية، ويعزل بذلك ٣٠٠ ألف مواطن فلسطينى مقيم فى منطقة القدس عن باقى الضفة. الـ

٣٠٠ ألف فلسطينى المقيمون فى منطقة القدس فى الجانب الإسرائيلى من الجدار يشملون ٥٠ ألفاً من سكان الضفة الغربية.

خط مسار الجدار فى القدس يفصل جبل جيلو عن الضفة الغربية ويضمه إلى القدس. من هناك يرسم الجدار تواصلا جغرافيا إسرائيلياً حتى جبل أبو غنيم. وشمالاً يقطع الجدار حى صور باهر، بعد ذلك يمتد ليحاصر حى الشيخ سعد وعرب السواحرة الخاضعة لسلطة بلدية القدس. ويمتد الجدار ليقطع قرية أبو ديس قاطعا فى بعض الأحيان حدائق وحواكير البيوت وفاصلا بين بيوت أفراد العائلة الواحدة وقاطعا بعض الشوارع عرضا.

المرحلة الثالثة (ج)

تمتد المرحلة الثالثة من قرية مسحة التى انتهت عندها المرحلة الأولى لتحيط بقرى الساوية ودير بلوط ولتمتد شرقا إلى قرى بديا، صرطا، قراوة بنى حسان إلى الشمال الغربى من سلفيت، إلى الشمال فى عزون، ولتمتد إلى أعلى الشمال لتصل إلى كفر قدوم فشرقا قليلا إلى قوصين، فالجنوب الشرقى إلى دير استيا ثم شرقا إلى كفل حارس إلى شمال مستوطنة ارئيل. يحيط المستوطنة الأخيرة جدار لم يكتمل نهائيا، وفى حال اكتماله فإنه سيشكل إصبعاً حقيقيا ومرئيا فى خاصرة الضفة الفلسطينية، كما سيعزز العزل الذى فرضه على القرى والبلدات التى أصبحت إلى الداخل منه.

تواصل المرحلة الثالثة، وهى الأطول فى الجدار، امتدادها إلى الجنوب من ارئيل والشمال من سلفيت لتعزل قرى دار أبو بصل، عزبة أبو آدم، خربة سوسة لتصل إلى الجنوب الغربى وتصادر أراضى قرى رنتيس، شقبا، قبية، شبتين، دير قديس، المدية ونعلين، وتمتد إلى الجنوب الشرقى لتحيط بقرى بيت عور التحتا، صفا، بيت سيرا، خربثا المصباح، بيت عور الفوقا، بيت لقيا، الطيرة، بيت عنان، بيت دقو، بيت إجزا، قطنة، خرائب أم اللحم، بدو، بيت سوريك، إلى الشمال لتحيط بـ خربة كفر شيان، بير نبالا، الجيب، بيت إكسا، بيت حنينا البلد، شعفاط، وأجزاء من مخيم قلنديا إلى الشمال، ليخلق جيتو جديداً على شكل إصبع فى الشمال الشرقى من رام الله، هذا الجيتو يعزل قرى بيتين، وأراضى تابعة لمخيم سلواد فى الشمال، ودير دبوان فى الشرق، ورمون ودير جرير فى الشمال الشرقى.

ثم يلتف الجدار شرقاً حول قرى الطيبة قضاء رام الله، ورمون، وإلى الشمال يتخذ خطاً مستقيماً متجهاً عازلاً إلى الغرب من أريحا(بدو المعرجات، فصايل، خربة المراجم، دوما، جفا النون، خربة انا، الجفتلك، مرج نعجة، الزبيدات، الحديدية، خربة حمصة، خربة الراس الأحمر فى الشمال إلى الشرق من نابلس، وإلى الشرق من طوباس يعزل الجدار قرى خربة يرزة، خربة عاطوف، العقبة، المالح، الفارسية، خربة تل الحمة، كردلة، بردلة، عين البيضا، وابريق الملاصقة لطوباس. بين محافظة رام الله ومدينة القدس يخلق الجدار المزيد من الغيتوات والمعازل ويحاصر فى شكل لافت القرى الفلسطينية الخالصة بين المدينتين أهمها بيت إكسا، بيت عور الفوقا، بيت حنينا، بلدة الشيخ جراح وغيرها. الجدار فى مرحلته الثالثة مخطط له الامتداد والالتفاف حول مدينة الخليل، وسيصل طول الجدار ١٨٦ كم، أى أطول من الخط الأخضر حول المدينة الذى يبلغ ١٥٥ كلم. ما سيؤدى إلى ترك عشرات القرى والبلدات والخرب خارج الجدار وتمثل نسبة ٣٢,٤٨٪ من المساحة الإجمالية للمحافظة.

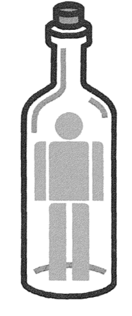
الاستيطان ٢٠٠٤

مثلها مثل حكومات إسرائيل السابقة والتى تولت الحكم بعد البدء فى عملية السلام، أعلنت حكومة شارون أن سياستها الرسمية تقضى بعدم بناء أية مستوطنة جديدة فى الأراضى المحتلة. ورد ذلك فى البرنامج الأساسى لحكومة شارون وفى تصريحات رسمية عديدة حول هذا الموضوع. لم تأت حكومة شارون بجديد عندما أعلنت أنها ستراعى، مثلها مثل سابقاتها، متطلبات «النمو الطبيعى» لسكان المستوطنات. مصطلح «النمو الطبيعى للمستوطنين» شكل حجة لممارسات استيطانية غير محدودة ومتعددة الأشكال لضم المزيد من المساحات وتوسيع المستوطنات وشق الشوارع الخاصة بالمستوطنين. حجم الأراضى التى ضمت إلى المستوطنات وكمية الوحدات السكنية التى أضيفت لها تفوق بكثير أى «نمو طبيعى» ممكن للمستوطنين. فى بعض المستوطنات تم بناء آلاف الوحدات السكنية الجديدة مع العلم أنه توجد فى تلك المستوطنات عشرات الشقق الخالية من السكان.

توسيع الاستيطان وبناء وحدات سكنية جديدة لم يتوقف أيضا خلال سنة ٢٠٠٤. وقد أصدرت حركة «السلام الآن» الإسرائيلية فى هذا الصدد تقريرين فى العام ٢٠٠٤ يبينان حركة البناء والتوسع فى المستوطنات فى الضفة الغربية وقطاع غزة.

وحسب هذه التقارير ضمت إسرائيل حتى يونيو ٢٠٠٤ ما يقدر بـ٤٥٥ ألف متر مربع من الأراضى الفلسطينية بهدف توسيع حدود المستوطنات. حتى هذه الفترة أضيف للمستوطنات فى قطاع غزة ما يزيد على ١٩٠ ألف متر مربع من الأراضى المخصصة للبناء. كما خصص قسم كبير من الأراضى بهدف تأهيل مساحات زراعية جديدة.

كانت مستوطنة «بنى عتسمون» (عتسمونة) هى المستوطنة التى شهدت التوسع الأكبر حيث أضيف لها ١١٣ ألف متر مربع من الأراضى لأغراض زراعية. توسع كبير سجل أيضا فى مستوطنة «قطيف»، وكان هدف التوسع زيادة الأراضى الزراعية. فى مستوطنة «نافية دكاليم» تم تحسين مناطق جديدة وضمها إلى المستوطنة بهدف إقامة منطقة سكنية جديدة. كما تمت إقامة سبعة بيوت مؤقتة (كرافانات) فى مستوطنة نتسريم.



ضمت إسرائيل حتى يونيو ٢٠٠٤ ما يقدر بـ٤٥٥ ألف متر مربع من الأراضى الفلسطينية بهدف توسيع حدود المستوطنات. كما أضيف للمستوطنات فى قطاع غزة ما يزيد على ١٩٠ ألف متر مربع من الأراضى المخصصة للبناء

المستوطنات القائمة فى الضفة الغربية، والتى من المفترض إزالتها حسب خطة الانفصال، شهدت أيضاً توسعا فى حدودها. ففى مستوطنة «شانور» أضيفت أربعة بيوت مؤقتة خلال النصف الأول من السنة.

فى باقى المستوطنات فى الضفة الغربية تم ضم ما يقدر بـ٢٦٤ ألف متر مربع على النحو التالى: غوش عتصيون ٣٤ ألف متر مربع، منطقة بنيامين ٦٤ ألف متر مربع، جبل الخليل ١٩٠٠ متر مربع، شومرون ١٣٨ ألف متر مربع، عرفوت هيردين ١٠٠٠٠ متر مربع.

تواصلت حركة البناء فى المستوطنات بقوة خلال سنة ٢٠٠٤. وقد أصدرت حكومة شارون، التى التزمت أمام الإدارة الأمريكية بتجميد حركة البناء فى المستوطنات، فى آب من العام ٢٠٠٤ عطاءات لبناء ١٠٠١ وحدة سكنية فى سبع مستوطنات فى الضفة.

ويبين تقرير حركة «السلام الآن» الصادر فى أيلول ٢٠٠٤ ما يلى:

فى ٥٠ موقعاً استيطانياً هناك حركة بناء، أو توسيع أو تأهيل بنى تحتية جديدة تتجاوز حدود البناء فى المستوطنات.

حتى أغسطس ٢٠٠٤ تم وضع ٥٠ بيتاً مؤقتاً فى المستوطنات المختلفة.

البؤر الاستيطانية غير القانونية ٢٠٠٤

يقصد بالبؤرة الاستيطانية حيز جغرافى يتم السيطرة عليه بشكل اعتباطى، عادة على قمة تلة، يضم مبنى أو عدة مبان مؤقتة أو دائمة، دون الحصول على التراخيص والتصاريح القانونية اللازمة لإقامتها. وتكون البؤرة منفصلة عن أية مستوطنة فى محيطها، وتدار بشكل مستقل على يد المستوطنين القاطنين فيها.

بلغ عدد البؤر الاستيطانية غير القانونية حتى آخر ٢٠٠٤، ٩٩ بؤرة. ٥٢ منها أقيمت بعد عام ٢٠٠١، أى بعد تولى ارئيل شارون منصب رئيس الحكومة. خلال عام ٢٠٠٤ أقيمت أربع بؤر جديدة، كما تم توسيع مساحة أربع بؤر إضافية قائمة. وفى معظم البؤر نفذت أعمال بناء لبيوت ثابتة بدل المؤقتة.



إقامة البؤر الاستيطانية تتطلب شق شوارع وطرق جديدة. خلال سنة ٢٠٠٤ تم شق سبع شوارع جديدة كهذه نتج عنها تدمير وإتلاف أشجار زيتون ومحاصيل زراعية فلسطينية.

كما تم خلال سنة ٢٠٠٤ تفكيك وإخلاء ست بؤر استيطانية. الحكومة الإسرائيلية تعلل عدم إزالة بؤر أخرى بحجة تواصل «الإرهاب» الفلسطيني.

فى تشرين الأول ٢٠٠٤ صدر تقرير عن البؤر الاستيطانية أعدته المحامية طالية ساسون وذكر فيه ما يلى:

معظم الوزارات ساعدت بشكل كبير البؤر الاستيطانية غير القانونية. وزارة التربية والتعليم حرصت على إقامة روضات وصفوف تعليم فى هذه البؤر ومولت عمل الحاضنات فيها. شركة الكهرباء ووزارة الطاقة حرصتا على وصل البؤر بالكهرباء، وساهمت الدولة بشق الطرق. وتقدر المساعدات الحكومية التى حولت إلى البؤر الاستيطانية غير القانونية بعشرات ملايين الشيكلات.

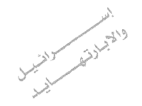
حتى السنتين الأخيرتين، ساهم الجيش الإسرائيلى ووزارة الدفاع فى إقامة البؤر الاستيطانية غير القانونية. وحتى اليوم يواصل الجيش توفير الحماية لهذه البؤر بحجة أن عليه الدفاع عن كل مواطن إسرائيلى فى «الأراضى».

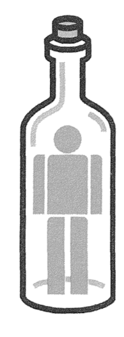
«تقرير البؤر الاستيطانية: الحكومة ساعدت، الجيش غض الطرف» - هآرتس ٢٠٠٤/١٠/٢١

الطرق الممنوعة فى الضفة الغربية

تمارس إسرائيل منذ اندلاع انتفاضة الأقصى سياسة فصل عنصرى فيما يتعلق باستعمال الشوارع وشبكة الطرق فى الضفة الفلسطينية. والحديث هنا يدور عما يقارب ٤٧ شارعا رئيسيا وفرعيا تفرض على الفلسطينيين فى الضفة قيود عديدة فى استعمالها. ابسط هذه القيود تتمثل فى تأخير وعرقلة المسافرين وأكثرها تعسفا وعنصرية يتمثل فى المنع التام من استعمال بعض هذه الشوارع.

نظام الطرق الممنوعة فى الضفة الغربية يشبه إلى حد كبير نظام الابارتهايد الذى كان متبعا فى جنوب أفريقيا حتى العام ١٩٩٤. ففى كلا النظامين يرتبط حق استعمال شبكة الطرق بالانتماء القومى للمسافر، إلا أن هناك فرقاً أساسياً بين النظامين: فنظام الابارتهايد الجنوب أفريقى أسس على تشريع قانونى واضح يظهر ويفسر هيكلية النظام وأساليب تطبيقه والعقوبات المترتبة على مخالفته. أما النظام الإسرائيلى فلم يؤسس على نص قانونى أو تشريع عسكرى أو حتى على قرار رسمى. فجنود الاحتلال الإسرائيلى وأفراد حرس الحدود يطبقون هذا النظام معتمدين بشكل كامل على التعليمات الشفوية. وعلى عكس الابارتهايد فإن







ساهم الجيش الإسرائيلى ووزارة الدفاع فى إقامة البؤر الاستيطانية غير القانونية. وحتى اليوم يواصل الجيش توفير الحماية لهذه البؤر بحجة أن عليه الدفاع عن كل مواطن إسرائيلى فى «الأراضى»



نظام الشوارع الممنوعة فى الضفة الفلسطينية يطبق بشكل تعسفى وعشوائى.

الطرق الممنوعة نهائيا

يشمل هذا النوع من الطرق تلك التى تقوم إسرائيل بمنع المركبات الفلسطينية من السفر عليها بشكل تام. فى بعض هذه الطرق يطبق المنع التام بشكل واضح وعلنى عن طريق حاجز عسكرى يجيز المرور للمركبات الإسرائيلية فقط، فمثلا الشارع بين حاجز بيت فوريك وبين مفرق حوارة هو شارع محظور أن يسافر الفلسطينيون عبره بالرغم من كونه يوصل إلى قرى: بيت فوريك، بيت دجن، سالم ودير الحطب. وفى طرق ممنوعة أخرى يطبق المنع التام عن طريق العوائق المادية المذكورة مثل العوائق الترابية والخنادق وما شابه.

فى بعض الطرق طبق المنع ليس فقط على السفر على هذه الطرق وإنما أيضاً على قطعها بوساطة المركبات، ما يؤدى إلى منع الفلسطينيين من السفر فى الطرق المسموح استعمالها. فى هذه الحالات يمكن أن يصل فلسطينى حتى مفترق طرق يشمل طريقا ممنوعا عندها يضطر إلى النزول من السيارة واجتياز المفترق مشيا على الأقدام ومن ثم مواصلة السفر بسيارة أخرى. مثال على ذلك بين جنين والقرى الواقعة شرقها يفصل طريق ممنوع يوصل إلى المستوطنات «غنيم» و «كديم». نتيجة لذلك لا يستطيع سكان قرى: جلبون، فقوعة ودير أبو ضعيف وقرى أخرى السفر من بيوتهم إلى جنين وبالعكس.

ويبلغ عدد الطرق الممنوعة نهائيا لسفر المركبات الفلسطينية فى الضفة الغربية ١٧ طريقا، وتمتد هذه الطرق على طول ١٢٠ كيلومترا.

الطرق الممنوعة جزئيا

تشمل هذه الفئة الطرق التى يسمح للفلسطينيين بالسفر عليها إذا كان بحوزتهم تصريح سفر خاص. يسمى هذا التصريح «رخصة تنقل خاصة للحواجز الداخلية فى يهودا والسامرة»، ويتم إصداره فى مكاتب الإدارة المدنية عبر قيادات التنسيق والارتباط. فى مكاتب التنسيق والارتباط تصدر أيضاً تصاريح مرور لخطوط الباصات التى تسافر بين المدن والأراضى المحاصرة. هذه التصاريح تلغى عندما يرى الجيش أن هناك «توترا» أمنياً فى المناطق، وبذلك تمنع الباصات من التنقل والسفر فى الطرق الممنوعة.

فى أنحاء الضفة الغربية هناك اليوم عشرة شوارع من هذا النوع ويصل طولها الإجمالى ٢٤٥ كيلومتراً.

الطرق ذات الاستعمال المحدد

تشمل هذه الفئة الشوارع التى يمكن الوصول إليها عن طريق الحواجز العسكرية فقط، وذلك بسبب قيام الجيش الإسرائيلى بسد باقى الشوارع الفرعية التى توصل إلى الشارع الممنوع. لا يطلب من الفلسطينيين إظهار أى تصريح عند عبورهم هذه الحواجز، لكن يضطر العابرون إلى الخضوع لفحوصات مختلفة. يمكن أن تستغرق هذه الفحوصات ساعات طويلة بسبب قلة الجنود فى الحاجز بالنسبة لحركة المرور. نتيجة لذلك يضطر الكثير من السائقين إلى تجنب المرور على هذه الحواجز. فى هذه الطرق تنتشر قوات شرطة كبيرة لفرض قوانين السير على الفلسطينيين فارضة عليهم غرامات كبيرة. وأحيانا يضع الجيش قيودا إضافية للحركة على هذه الشوارع مثل السماح بمرور الباصات ووسائل النقل العام فقط.

تشمل هذه الفئة من الشوارع الممنوعة بعض الطرق الرئيسية فى الضفة الغربية مثل شارع (٦٠) الممتد من شمال الضفة حتى جنوبها. عدد الشوارع المصنفة تحت هذه الفئة عام ٢٠٠٤ هو ١٤ شارعا يمتد طولها ما يقارب ٣٦٥ كيلومتراً.

أحدث نظام الطرق الممنوعة لحركة تنقل الفلسطينيين فى الضفة الغربية تغيرا جذريا، وبدل التنقل والسفر على الشوارع الرئيسية الموصلة بين المدن والمحافظات المختلفة، بحيث يضطر معظم الفلسطينيين اليوم إلى التنقل عبر شوارع وطرق بديلة، طويلة وشاقة. هذا النظام اجبر الكثير من الفلسطينيين على التنازل عن السفر بمركباتهم الخاصة واتكالهم على وسائل النقل العمومى وذلك لسببين: الأول والأهم هو منع استعمال المركبات الخاصة فى الكثير من الطرق، والسبب الثانى يعود إلى وعورة الطرق البديلة وصعوبة سفر السيارات الخاصة عليها.

نظام الطرق الممنوعة عطل بشكل كبير نظام الحياة فى الضفة الغربية والاقتصاد ونظام التعليم ونظام الصحة الذى يعتمد بشكل أساسى على حرية الحركة، فأى تقييد لهذه الحركة يؤثر فى هذه الأنظمة تأثيرا فادحا.

منذ بداية الانتفاضة، سجل مركز «بيتسيلم»، ٣٩ حالة وفاة لمدنيين فلسطينيين لم يتمكنوا من الحصول على العلاج الطبى بسبب منع أو تأخير مرورهم عبر الحواجز العسكرية.

لكل إنسان الحق فى التنقل بحرية داخل بلده، هذا الحق تم الاعتراف به فى المادة ١٣ فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان والذى أقر فى الأمم المتحدة عام ١٩٤٨. فى سنة ١٩٦٦ أكدت الجمعية العمومية فى الأمم المتحدة على حق حرية الحركة فى المادة ١٢ فى المعاهدة

الدولية المتعلقة بالحقوق المدنية والسياسية. هذه المعاهدة تلزم قانونيا كل الدول الموقعة عليها وبضمنها إسرائيل التى أقرتها عام ١٩٩١. إسرائيل تتجاهل هذا الالتزام بدعوة عدم سريان مفعول هذه المعاهدة على أعمالها فى الأراضى المحتلة، وذلك لأن الإطار القانونى الملائم هو القانون الإنسانى الدولى.

هــــدم المــــــنــــازل

«هذه المنازل كان يجب أن تهدم وتخلى منذ أمد طويل... لا بد من إخلاء ٣٠٠ متر من القطاع على جانبى الحدود... ٣٠٠ متر مهما كان عدد المنازل، دون نقاش» قال ميجور جنرال يوم طوف سامية (القائد السابق للقيادة الجنوبية فى الجيش الإسرائيلى).

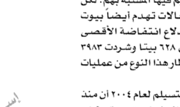
قامت إسرائيل منذ عام ١٩٦٧ باتباع سياسة هدم بيوت الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية، وخلال انتفاضة الأقصى دمرت إسرائيل ما يقارب ٤١٠٠ بيت.

تنقسم عمليات هدم البيوت التى ينفذها جيش الاحتلال الإسرائيلى إلى ثلاثة أنواع: الأول والأكثر شيوعا يندرج تحت مسمى «عمليات التعرية». وقد تم تنفيذ القسم الأكبر من هذه العمليات فى منطقة جنوب قطاع غزة وتحديدا فى منطقة رفح الحدودية وفى مخيمات اللاجئين المحيطة بها، وأيضاً فى منطقة شمال الضفة الغربية خاصة فى الأراضى المحيطة بالمستوطنات أو المحاذية للشوارع المخصصة للمستوطنين وقوات الجيش. وتم تنفيذها أيضاً فى شمال القطاع فى منطقة بيت حانون، بيت لاهيا ومخيم جباليا. منذ بداية الانتفاضة وحتى تشرين الثانى ٢٠٠٤ هدم جيش الاحتلال الإسرائيلى فى إطار عمليات التعرية فى قطاع غزة ما يقارب ٢٥٤٠ بيتاً أوت ٢٣٩٠٠ شخص.



النوع الثانى من عمليات هدم البيوت هو هدم البيوت التى بنيت دون ترخيص. تقوم إسرائيل بهدم البيوت غير المرخصة فى الأراضى «C» والقدس الشرقية، أى فى الأراضى الخاضعة للإدارة المدنية الإسرائيلية. وفقا لمعطيات الإدارة المدنية، هدمت إسرائيل بين السنوات ٢٠٠١-٢٠٠٣ فى الضفة الغربية ٧٦٨ مبنى غير مرخص. ووفقا لمعطيات بلدية القدس، منذ بداية ٢٠٠١ وحتى فبراير ٢٠٠٤ هدمت إسرائيل ١٦١ مبنى غير مرخص فى القدس الشرقية.

النوع الثالث من عمليات الهدم يختص بالهدم كآلية عقاب لعائلات وجيران أفراد فلسطينيين نفذوا أو يشتبه بأنهم قاموا بتنفيذ عمليات ضد الجنود والمدنيين الإسرائيليين. العمليات



الإسرائيلية فى هذا الإطار موجهة لهدم البيوت التى يقيم فيها المشتبه بهم. لكن فى كثير من الحالات تهدم أيضاً بيوت مجاورة. منذ اندلاع انتفاضة الأقصى هدمت إسرائيل ٦٢٨ بيتا وشردت ٣٩٨٣ فلسطينيا فى إطار هذا النوع من عمليات الهدم.

وذكر تقرير بتسيلم لعام ٢٠٠٤ أن منذ اليوم الأول من العام ٢٠٠٤ وحتى آخر يوم من هذا العام هدمت قوات الاحتلال الإسرائيلية ١٣٥٧ بيتا فى قطاع غزة وشردت جراء ذلك ٨٧٠٠ مواطن.

عمليات هدم البيوت فى إطار «عمليات التعرية» هى عمليات شديدة الفظاعة. ففى معظم الحالات لا يتم إنذار ساكنى البيوت سلفا بعملية الهدم. فى كثير من الأحيان يفاجأ أصحاب البيوت بالجرافات وهى عند مدخل البيت. لا يحصل سكان البيت فى العادة على وقت كاف لإخراج حاجياتهم من البيت قبل هدمه. خلال عمليات الهدم فى قطاع غزة قتل ١٢ فلسطينياً على الأقل جراء هدم البيوت على رؤوسهم.

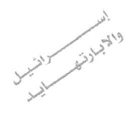
وخلال انتفاضة الأقصى جددت إسرائيل وبصورة أكثر قسوة سياسة هدم البيوت كآلية عقاب. القرار الرسمى لتجديد هذه السياسة اقر فى جلسة المجلس الأمنى-السياسى المصغر المنعقدة بتاريخ ٢٠٠٢/٧/٣١، وذلك فى أعقاب العملية التفجيرية التى نفذها مواطنان فلسطينيان فى الجامعة العبرية فى القدس. عمليا تم العمل مجددا بهذه السياسة منذ النصف الثانى من تشرين الأول ٢٠٠١ خلال مداهمات جيش الاحتلال الإسرائيلى لمناطق «A» فى الضفة الغربية.

بين تشرين الأول ٢٠٠١ وآب ٢٠٠٢ هدم الجيش الإسرائيلى ٤٣ منزلا وفى الفترة الممتدة من ٢٠٠٤/١/١ وحتى ٢٠٠٤/١٢/٣١ قامت قوات الجيش الإسرائيلى بهدم ١٨١ منزلا فى الضفة الغربية وقطاع غزة تاركة آلاف الفلسطينيين دون مأوى.

الأسرى والمعتقلون

اعتبرت وزارة شئون الأسرى والمحررين الفلسطينيين فى تقرير سنوى نشرته فى يناير ٢٠٠٥، عام ٢٠٠٤ كأسوأ أعوام الحركة الأسيرة الفلسطينية منذ ثلاثين عاما. إذ شهد عام ٢٠٠٤ تدهورا خطيرا ومتواصلا فى وضعية السجناء وشروط احتجازهم على كافة المستويات.

شهد عام ٢٠٠٤ ارتفاعا فى عدد الأحكام المؤبدة المفروضة على الأسرى الفلسطينيين. فقد وصل عدد الأسرى المحكومين بحكم مؤبد إلى ٤٤٤ سجيناً. وقد سجل الأسير عبد الله البرغوثى الرقم القياسى فى عدد الأحكام المؤبدة إذ فرض عليه ٦٧ حكما مؤبدا.







نظام الطرق الممنوعة عطل بشكل كبير نظام الحياة فى الضفة الغربية والاقتصاد ونظام التعليم ونظام الصحة الذى يعتمد بشكل أساسى على حرية الحركة



سياسة الاغتيالات

سياسة الاغتيالات، أى إعدام شخص دون التحقيق معه ودون تقديمه للمحاكمة وسماع أقواله، ليست سياسة جديدة على الحكومة الإسرائيلية. فالحكومات الإسرائيلية المتعاقبة تبنت هذه السياسة منذ السنوات الأولى للصراع العربى-الإسرائيلى. عشرات القياديين الفلسطينيين ومئات المقاتلين الفلسطينيين قتلوا بهذه الطريقة داخل الأراضى المحتلة أو على أراضى دول عربية أو أجنبية.

بالنسبة لانتفاضة الأقصى فقد قامت إسرائيل باستعمال سياسة الاغتيالات بعد ٤٥ يوماً من اندلاع المواجهات. المستهدف الأول كان ناشطاً فى حركة فتح تم اغتياله بإطلاق صواريخ من مروحية اباتشى كانت تحلق فى سماء بيت ساحور.

منذ ذلك الحين صعدت إسرائيل من سياسة الاغتيالات بشكل متواصل، ولم تتردد فى استعمالها ضد قيادات سياسية رفيعة المستوى فى الحركات والأحزاب الفلسطينية.

إن القتل خارج نطاق القانون يعتبر انتهاكا صارخا لحقوق الإنسان، والقانون الدولى الإنسانى والعرفى وخاصة اتفاقية جنيف الرابعة بشأن حماية الأشخاص والمدنيين فى وقت الحرب والمؤرخة فى ١٢ أغسطس ١٩٤٩. بالرغم من ذلك تبنت الحكومة الإسرائيلية قرارا رسميا بهذا الصدد يجيز لقوات الجيش تنفيذ هذه السياسة وفقا لاعتباراتها الأمنية.

طبقت قوات الاحتلال الإسرائيلية سياسة الاغتيالات خارج نطاق القانون لاستهداف النشطاء والفاعلين فى انتفاضة الأقصى، وقد طالت هذه السياسة العديد من المدنيين الفلسطينيين الذين تصادف وجودهم فى مكان الحدث.

الشهداء والجرحى حتى العام ٢٠٠٤

تكاد تتفق معظم الإحصاءات الرسمية الفلسطينية وغير الرسمية على أن عدد الشهداء بلغ ٣٨٠٠ شهيد سقطوا خلال الفترة ما بين ٢٠٠٠/٩/٢٩ وحتى ٢٠٠٤/١٠/٢١ وذلك فى الضفة الفلسطينية وقطاع غزة، ومن هؤلاء الشهداء ما يبلغ نسبته ٨٢٪ من المواطنين العزل، يضاف إليهم ٨٢ شهيداً لم يتم تسجيلهم بسبب الإجراءات الإسرائيلية، بالإضافة إلى إصابة ٤٣٥٦٩ مواطناً بجروح مختلفة فى الفترة المشار إليها.

وأشارت التقارير المتعلقة بهذا الشأن إلى أن أماكن إصابة الشهداء تظهر النية الإسرائيلية الواضحة فى القتل، فهناك ٨٤٪ من



الشهداء أصيبوا فى الأجزاء العليا من الجسم، حيث أصيب ٦٩٩ منهم فى منطقة الرأس والعنق، و٤٨٥ منهم بشظايا رصاص فى جميع أنحاء الجسم، إضافة إلى حقيقة أخرى تتمثل فى أن أكثر من ٥٩٪ من هؤلاء الشهداء سقطوا بعد أن أصيبوا بجراح برصاص حى، و٢٢٪ منهم بقذائف مدفعية، و ٥٨,٢٪ منهم نتيجة منعهم من الوصول إلى المستشفى، و١,٥٪ منهم أصيبوا برصاص مطاطى والاختناق جراء استنشاق الغاز المسيل للدموع.



كما بلغ عدد الضحايا من المرضى جراء الإعاقة على الحواجز العسكرية الإسرائيلية ١٢١ شهيداً، ما بين طفل وسيدة وشيخ مسن من مرضى القلب والكلى والسرطان، و٤٨ شهيداً قضوا جراء اعتداءات المستوطنين اليهود على المواطنين الفلسطينيين، و٣٦ شهيداً من أفراد الطواقم الطبية والدفاع المدنى، وتسعة من الضحايا هم من الإعلاميين والصحافيين، و٢٢٠ من أبناء الحركة الرياضية.

أما إجمالى عدد الجرحى فقد أفاد التقرير المذكور عن إصابة ٤٣٥٦٩ فلسطينياً، بالإضافة إلى ٨٤٣٥ آخر تلقوا علاجاً ميدانياً، وبلغ عدد الطلبة والطالبات والموظفين الذين أصيبوا برصاص الاحتلال ٤٧٢١، وأن ٢٥٠٠ من هؤلاء الجرحى أضحوا يعانون من إعاقات دائمة.

ساهمت عدة عوامل فى التأثير على رئيس الوزراء الإسرائيلى آرئيل شارون لطرح خطته «فك الارتباط من جانب واحد»، وأبرزها:

١ - خشيته من أن تواجه إسرائيل وضعاً يسعى المجتمع الدولى إلى فرض حل على إسرائيل والمتمثل فى خارطة الطريق .

٢ - فشل إسرائيل فى كسر إرادة الشعب الفلسطينى وتواصل الانتفاضة وما تلحقه بإسرائيل من أضرار منظورة وغير منظورة.

٣ - خشية شارون مما يعرف صهيونيا: بالخطر الديمغرافى .

وقد انسجمت خطة فك الارتباط من جانب واحد مع استراتيجية شارون الساعية إلى إقامة نظام فصل عنصرى فى الأراضى الفلسطينية، تقوم إسرائيل بمقتضى هذه الاستراتيجية بتفكيك الاحتلال والاستيطان من داخل قطاع غزة وبتركيبه وتعزيزه فى الضفة الغربية المحتلة. فشارون يسعى إلى ضم الأراضى الفلسطينية التى أقيمت عليها «الكتل الاستيطانية» إلى إسرائيل، وكذلك ضم ما أمكنه من الأراضى الفلسطينية المحتلة غير المكتظة بالسكان.

من أجل تحقيق أهدافه، أولى شارون أهمية قصوى لعلاقاته مع الولايات المتحدة الأمريكية بحيث أنه نسق كل خطوة يخطوها مع الإدارة الأمريكية. وفى ظل هذه العلاقة وتحت سمع وبصر وحماية الولايات المتحدة الأمريكية، قامت الحكومة الإسرائيلية بتنفيذ سياسة عدوانية تسعى،على أرض الواقع، إلى إقامة نظام فصل عنصرى، وشمل ذلك: بناء جدار الفصل، تعزيز الاستيطان، وزيادة الاستيطان «العشوائى»، وشق الطرق لاستعمال المستوطنين وحصار الفلسطينيين ومنعهم من استعمال الكثير من الطرق وهدم البيوت ...

لقد ساهمت مجموعة من العوامل فى نجاح شارون فى تجميد خطة خارطة الطريق، وجعل خطته «اللعبة الوحيدة فى المدينة»، أهمها: علاقة إسرائيل مع أمريكا، والضعف العربى، وعدم وجود معارضة إسرائيلية حقيقية لشارون خارج حزبه، ولعدم وجود استراتيجية نضالية فلسطينية موحدة تتفق على الهدف الذى يسعى الفلسطينيون لتحقيقه، وعلى وسائل النضال التى يتوجب اتباعها لتحقيق هذا الهدف .

وفى ظل تبنى خطة شارون دولياً وإقليمياً، لم يبق أمامه سوى تمريرها وتنفيذها إسرائيلياً . ومن غير المتوقع، بل من المستبعد جداً، أن يتمكن اليمين المتطرف فى إسرائيل المتمثل فى المعارضين داخل حزب «الليكود»، وحزبى «الوحدة الوطنية» و «المفدال» و«المستوطنين»، من عرقلة أو تأجيل أو منع تنفيذ خطة فك الارتباط فى العام ٢٠٠٥ .

فالمجتمع الإسرائيلى بغالبيته العظمى يدرك أن خطة فك الارتباط حققت لإسرائيل مكاسب كثيرة أبرزها رسالة الضمانات الأمريكية . ■



ديوان الطرب

سيد درويش

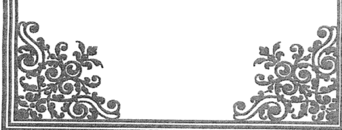
ما بين مولده فى ١٧ مارس ١٨٩٢ ووفاته فى ١٥ سبتمبر ١٩٢٣، حقق سيد درويش للغناء والموسيقى العربية مالم يحققه فنان آخر خلال العصر الحديث لتتأكد مقولة أن الغناء كان قبل سيد درويش للآذان والجسد وأصبح من بعده للنفس والروح. وكان سيد درويش بحق فنان الشعب الذى عبر عن فئاته خاصة الفقير منها.

وتنشر «وجهات نظر» بعض ما شدا به سيد درويش وتضمنه الكتاب الخاص به (وهو من جزءين) صادر عن دار الشروق ٢٠٠٣ بالتعاون مع مركز توثيق التراث بمكتبة الإسكندرية ضمن مشروع موسوعة أعلام الموسيقى العربية.

أهو دا اللى صار

أهو دا اللى صار وادى اللى كان ... مالكش حق تلوم عليه
تلوم عليه إزاى يا سيدنا ... وخير بلادنا ماهوش فى إيدنا
قول لى عن أشياء تفيدنا ... وبعدها ابقى لوم عليه
بدال ما يشمت فينا حاسد ... إيدك فى إيدى وقوم نجاهد
واحنا نبقى الكل واحد ... والأيادى تكون قوية
يا مصر يا أم العجايب ... سعدك أصيل والخصم عايب
خلى بالك م الحبايب ... دولا أنصار القضية

محمد يونس القاضى





انتفاضة الأقصى

رواية إسرائيلية أخرى

صالح محمد النعامى

منذ اندلاعها فى أواخر أيلول سبتمبر من العام ٢٠٠٠، حاولت ماكينة الدعاية الإسرائيلية تصوير انتفاضة الأقصى على أنها الرد «الإرهابى» الفلسطينى على عروض السلام السخية التى طرحتها الدولة العبرية قبيل اندلاع الانتفاضة. ورفضت إسرائيل الرسمية الربط بين اندلاع الانتفاضة وبقاء مظاهر الاحتلال كمفجر لها، وحاولت نزع الشرعية عن حق الشعب الفلسطينى فى النضال ضد هذا الاحتلال. وفى المقابل ادعت إسرائيل أن لديها الحق فى استنفاد كل ما لديها من قوة عسكرية وتفوق تقنى كاسح من أجل حسم المواجهة خلال الانتفاضة لصالحها. واعتبر المستويان العسكرى والسياسى فى إسرائيل أن الحرب ضد الفلسطينيين فى الانتفاضة تكتسب نفس أهمية حرب العام ١٩٤٨ التى على أثرها كان مولد إسرائيل. فى نفس الوقت حرص قادة الدولة على تجاهل الآثار الكارثية التى تركتها الانتفاضة على المجتمع الإسرائيلى ونسيجه الداخلى، وعكف قادة الدولة على امتداح «قدرة» هذا المجتمع على الصمود خلال الانتفاضة، وادعوا أنه بفضل هذا الصمود لم يستطع الفلسطينيون إملاء مواقفهما على إسرائيل. فى إسرائيل صدر مؤخراً كتابان ينسفان الرواية الرسمية من الأساس: كتاب «أكاذيب عن السلام حرب باراك وشارون ضد الفلسطينيين»، للمؤرخة والمحققة الإسرائيلية تانيا راينهارت. وكتاب «الحرب السابعة» لمؤلفيه افى سيخاروف، مراسل الشئون الفلسطينية والعربية للإذاعة الإسرائيلية باللغة العبرية، وعاموس هارئيل المراسل العسكرى لصحيفة «هآرتس». فى كتابها تطرقت راينهارت بشكل أساسى إلى الظروف التى كانت سائدة قبل الانتفاضة والعلاقة الوثيقة بين هذه الظروف باندلاعها، وهو الأمر الذى واظبت إسرائيل الرسمية على إنكاره. أما كتاب «الحرب السابعة» فقد عنى بشكل أساسى بتسليط الأضواء على طبيعة الأحداث أثناء الانتفاضة: القمع الإسرائيلى والرد الفلسطينى وتأثيرات الانتفاضة على المجتمع الإسرائيلى والنظام السياسى فى الدولة العبرية.

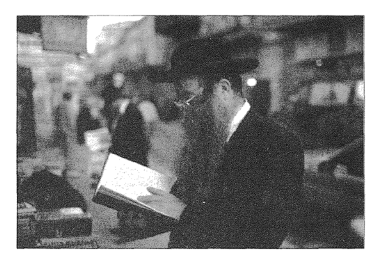
فى كتابها تؤكد راينهارت أن الظروف التى سادت قبيل اندلاع انتفاضة الأقصى لم تدع أمام الفلسطينيين أى مجال إلا المبادرة لشن الانتفاضة. وتؤكد أن الحكومات الإسرائيلية التى تعاقبت منذ التوقيع على اتفاقية أوسلو واصلت دعم المشروع الاستيطانى فى الضفة الغربية وقطاع غزة، ولم تدع أمام الفلسطينيين سبيلاً إلا محاولة استخدام العمل المسلح لوقف الاستيطان. وتؤكد راينهارت أن الفلسطينيين، لم يخوضوا غمار انتفاضة الأقصى، إلا بعد أن تحرروا من الوهم الذى زرعته اتفاقيات أوسلو التى وقعت فى العام ١٩٩٣، حيث اعتقدوا أن احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة الذى بدأ فى العام ١٩٦٧ يوشك على نهايته، وآمن قطاعات واسعة من الشعب الفلسطينى بأن اتفاقات أوسلو، ستؤدى إلى انسحاب إسرائيلى من المناطق المحتلة وإقامة دولة فلسطينية. لكن الأمور لم تسر على هذا المنوال. وحسب راينهارت فإن الفلسطينيين صعقوا عندما اكتشفوا أن القيادة السياسية لمعسكر اليسار الصهيونى التى كانت تتولى مقاليد الأمور فى الدولة العبرية قبيل وعند اندلاع انتفاضة الأقصى حولت روح أوسلو التصالحية إلى وسيلة جديدة أكثر إحكاماً لمواصلة الاحتلال.وتشير إلى أن إسرائيل بعد أوسلو واصلت تعزيز الاستيطان اليهودى فى الضفة الغربية على اعتبار أنه الوسيلة المثلى لتصفية حق العودة للاجئين الفلسطينيين. وترى راينهارت أن أى زعيم إسرائيلى يتطلع إلى المصالحة مع الفلسطينيين على المستوى الرمزى كان يتعين عليه بداية، من وجهة نظرها، الاعتراف بمسئولية إسرائيل عن نشوء قضية اللاجئين. لكنها تستدرك قائلة أن إسرائيل لم تحظ حتى الآن بزعيم كان معنياً حقاً بإنهاء النزاع. وفى سبيل التشديد على هذه المسألة تحديداً تشدد راينهارت فى مقدمة الكتاب، من دون أى تردد على أن الأرض التى قامت عليها دولة إسرائيل تمت السيطرة عليها بواسطة تطهيرها عرقياً من سكانها الأصليين . الفلسطينيين. وتضيف «لو أن إسرائيل توقفت عما اقترفته (من تطهير عرقى) فى عام ١٩٤٨ لكان من الممكن التعايش مع ذلك، لكنها واصلت التطهير العرقى وتعاظم بعد التوقيع على «أوسلو»، وفى خضم الانتفاضة. تؤكد راينهارت أن إسرائيل استغلت انتفاضة الأقصى لممارسة اكبر قدر من القمع ضد المدنيين الفلسطينيين من أجل إجبارهم على الفرار. وتشير إلى أن جميع القادة العسكريين اعتبروا الحرب التى يخوضونها ضد الانتفاضة تعتبر مكملة للحرب التى خاضتها الدولة العبرية فى العام ١٩٤٨. وتضيف «لما نجحت إسرائيل فى العام ١٩٤٨ بتشريد نصف الفلسطينيين من أرضهم، فإنها خلال انتفاضة الأقصى قررت استكمال المهمة وطرد البقية». تؤكد راينهارت أن المستويين السياسى والعسكرى فى الدولة العبرية استندا إلى هذا المنطلق لتبرير الإفراط غير المسبوق فى استخدام القوة العسكرية فى مواجهة المدنيين الفلسطينيين. وتشدد على أن قادة الجيش كانوا يهدفون إلى التطهير العرقى. وتضيف أنه لا يمكن تفسير سياسة إسرائيل المنهجية فى إصابة المدنيين الفلسطينيين كدفاع عن النفس أو كرد فعل تلقائى على الإرهاب. وتؤكد إن ذلك هو نوع من ممارسة التطهير العرقى، أى عملية يجرى فيها طرد مجموعة اثنية من مناطق تتطلع مجموعة اثنية أخرى للسيطرة عليها.

البرفيسورة تانيا راينهارت
إصدار: منشورات «سفرى تل أبيب» - تل أبيب، ٢٠٠٥ .

שקרים על שלום
הפרופ' טניה ריינהרט
בהוצאת ספרי תל אביב, 2005

«الحرب السابعة»
عاموس هارئيل وافى سخاروف
يديعوت احرنوت، ٢٠٠٤، ٢٨٩ صفحة

המלחמה השביעית
עמוס הראל ، אבי יששכרוף
ידיעות אחרנות،2005



وتنوه إلى انه لما كانت فلسطين مكان يحظى باهتمام عالمى كبير، فإنه يستحيل على قادة الدولة العبرية اقتراف تطهير عرقى عبر القيام بعمليات ذبح جماعى للفلسطينيين وإخلاء الأراضى. وبدلاً من ذلك يقود الجيش الإسرائيلى عملية مثابرة هدفها إجبار الفلسطينيين، رويداً رويداً، على الموت أو الهرب لكى ينجوا بجلودهم. وتشدد راينهارت على أن إسرائيل حرصت دوماً على استدراج الفلسطينيين للمواجهات من أجل تحقيق مكاسب على الأرض من خلالها. فإسرائيل هى التى كانت دائما تبادر إلى إفشال تفاهمات التهدئة والهدنة مع الفصائل الفلسطينية عبر المبادرة بشن عمليات عسكرية من أجل إفشال التهدئة ووضع حد للهدنة. وفى شهادة هامة تؤكد راينهارت أن الفلسطينيين لم يمنحوا البتة أية فرصة لتحويل نضالهم إلى مقاومة مدنية، وهو ما كانوا راغبين به مرات كثيرة. وتنوه راينهارت إلى ما بات معروفاً وهو حقيقة أن الجيش الإسرائيلى أعد مخططات للقضاء على السلطة الفلسطينية وعلى مؤسسات المجتمع الفلسطينى قبل اندلاع انتفاضة الأقصى فى سبتمبر من العام ٢٠٠٠.

مبدأ التواريخ غير المقدسة

من ناحيتهما يشير سيخاروف وهارئيل فى «الحرب السابعة» إلى أن أحد الأسباب التى دفعت الفلسطينيين للتشبث بانتفاضة الأقصى هو حقيقة يأسهم من إمكانية الحصول على ثمار من العملية التفاوضية. فعلى الرغم من تحرر معظم سكان الضفة والقطاع بالتدريج من السلطة الإسرائيلية المباشرة، وذلك كجزء من الاتفاقات التى وقعتها قيادة منظمة التحرير مع الحكومة الإسرائيلية، إلا أن مصالح الفلسطينيين ظلت مرتبطة بالجيش الإسرائيلى. فالاتفاقيات الموقعة لم تؤد إلى تمتع الفلسطينيين بحرية الحركة بين مناطق تواجدهم فى الضفة الغربية وقطاع غزة. وعلى الرغم من التحسن المحدود للأوضاع الاقتصادية، فإن الازدهار الموعود تحقق جزئياً فقط.. فقد خسر عشرات آلاف الفلسطينيين أماكن عملهم فى إسرائيل جراء سياسة الإغلاق التى اتبعتها إسرائيل منذ حرب الخليج عام ١٩٩١ (ووضعت الإغلاقات صعوبات كبيرة جداً أمام التنقل بين القطاع والضفة). وعندما عاد العمال الفلسطينيون إلى إسرائيل فى فترات هدوء نادرة، وجدوا بأن عمالاً من رومانيا والصين وتايلاند احتلوا أماكن عملهم.

وينوه المؤلفان إلى أن تشكيل السلطة الفلسطينية لم يحل دون توقف مسلسل الإهانات التى يتعرض له المواطن الفلسطينى منذ خروجه من بيته وحتى عودته إليه. بالإضافة إلى كل ذلك، فقد اعتمدت الدولة العبرية مبدأ «التواريخ غير المقدسة». ووفق هذا المبدأ أعاقت إسرائيل مراراً وتكراراً تسليم مناطق وعدت السلطة بتسليمها وفق الاتفاقيات الموقعة، وذلك جراء خلافات محددة أو رداً على عمليات المقاومة. وفى مقابل كل ذلك فقد استغلت إسرائيل الاتفاقيات السياسية مع السلطة فى تطوير مشروعها الاستيطانى الذى نما بشكل هائل. ويكشف الكتاب عن حقيقة لافتة للنظر، فقد تضاعف عدد المستوطنين خلال العقد الذى تلا التوقيع على اتفاق أوسلو فى المناطق من حوالى ١١٥ ألفاً إلى ٢٣٠ ألف مستوطن. ويؤكد المؤلفان أن أعداداً متزايدة من المدنيين الفلسطينيين قتلوا «برصاص طائش يطلقه جيش الاحتلال قبل اندلاع انتفاضة الأقصى، فى حين اكتفت قيادة جيش الاحتلال فى أحسن الأحوال بـ «الإعراب عن أسفها». لكن لم تكن ممارسات جيش الاحتلال القمعية فقط هى التى كان يكابدها الفلسطينيون قبل اندلاع الانتفاضة. فالمستوطنون وتحت حماية الجيش يقومون بعمليات عربدة فى بلدات وقرى الفلسطينيين، وكثيراً ما أسفرت هذه العمليات عن إزهاق أرواح مزيد من الفلسطينيين.

مسئولية باراك

تؤكد راينهارت أن رئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود باراك الذى اندلعت انتفاضة الأقصى فى عهده هو الذى يتحمل الجزء الأساسى من المسئولية عن اندلاع الانتفاضة لعدم جديته فى التوصل لتسوية سياسية مع الشعب الفلسطينى، على الرغم من الضجيج الذى أثاره حول تحركاته السياسية. وتضيف راينهارت أنه بخلاف الانطباع الذى حاول رسمه حول نفسه، وساعدته فى ذلك وسائل الإعلام الإسرائيلية المتجندة، فأن باراك لم يتطلع فى قرارة نفسه إلى تحقيق مصالحة مع الفلسطينيين. وتؤكد أنه خلال مؤتمر «كامب ديفيد» الذى سبق اندلاع انتفاضة الأقصى ماطل باراك ولم يكن جدياً فى التوصل للتسوية السياسية. وتذهب راينهارت إلى أبعد من ذلك عندما تؤكد أن باراك «بادر إلى هذه القمة بهدف إفشالها متعمداً، من أجل أن يثبت أن الفلسطينيين هم الطرف الرافض، وهم الذين يتحملون المسئولية عن إهدار فرصة تاريخية للتوصل لتسوية سياسية للصراع الفلسطينى الإسرائيلى». ترى راينهارت أن الذى يؤكد صحة ما تذهب إليه هو حقيقة حرص باراك على التباهى دائماً بأنه هو «الذى كشف الوجه الحقيقى لعرفات». وتقدم راينهارت الأدلة على أن باراك خلال مؤتمر «كامب ديفيد» خطط لجعل المؤتمر فرصة لتجريد الفلسطينيين من الحقوق التى يكفلها لهم القانون الدولى و قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالقضية الفلسطينية. وتضيف أن نقطة التحول الحاسمة فى كامب ديفيد تمثلت فى مطالبة باراك بأن يوقع الطرفان على «اتفاق نهائى» يترافق مع إعلان فلسطينى بشأن «نهاية النزاع». وتؤكد أنه لو أن الفلسطينيين وقعوا على إعلان كهذا لكانوا سيفقدون بشكل تلقائى الحق بالمطالبة بتطبيق قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن لاحقاً. وتشرح راينهارت قائلة إن الأساس القانونى للمفاوضات بين الفلسطينيين وإسرائيل كان ولا يزال قرارات الأمم المتحدة، وخصوصاً قرار ٢٤٢ الذى اتخذ (من قبل مجلس الأمن) فى ٢٢ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٦٧ وطالب بانسحاب القوات الإسرائيلية المسلحة من المناطق التى احتلت فى حرب الأيام الستة. إلى جانب ذلك فأن من حق الفلسطينيين المطالبة بتطبيق قرارات مجلس الأمن التى سبقت ذلك وخصوصاً قرار ١٩٤ الذى صدر فى ١١ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٨، و الذى يتطرق إلى حق العودة للاجئين الفلسطينيين وقرارات أخرى اتخذت على مدار السنوات. وتؤكد أن الفلسطينيين احسنوا صنعاً عندما لم يستجيبوا لطلب باراك. وتضيف أنه لو استجاب الفلسطينيون لطلب باراك وأعلنوا عن «نهاية النزاع»، ووقعوا على اتفاق نهائى، عندها يكون الاتفاق الجديد هو، بصورة رسمية، الأساس القضائى الملزم لأى تسوية سياسية مستقبلية وتفقد قرارات الأمم المتحدة التى سبقته مفعولها. وتؤكد راينهارت أن باراك طرح فى قمة «كامب ديفيد» مواقف متطرفة من كل قضايا الحل الدائم التى

☜

كانت على جدول البحث.وتدحض بشدة المزاعم التى حاولت وسائل الإعلام الإسرائيلية تكريسها على أساس أنها حقائق وتتعلق باستعداد باراك لـ «تقسيم القدس». فباراك لم يقدم أكثر من استعداد إسرائيل لدراسة الوفاء بتعهد إسرائيلى قديم يتعلق بإعادة «أبو ديس» للفلسطينيين. وتؤكد أن الحكومات الإسرائيلية حرصت أثناء التفاوض مع العرب على اتباع منهجية محددة تقوم على أساس: سحب تعهدات سابقة وعرضها كما لو أنها اختراقات جديدة فى العملية التفاوضية، وهذا هو جوهر السياسة التى انتهجتها إسرائيل منذ أوسلو. وتؤكد راينهارت أن باراك خلال مؤتمر كامب ديفيد تبنى موقفاً بالغ التطرف من مصير المسجد الأقصى، لم يجرؤ على تبنيه حتى غلاة المتطرفين فى حزب الليكود. وتضيف راينهارت أنه منذ العام ١٩٦٧حرصت الحكومات الإسرائيلية على عدم المطالبة بالسيطرة اليهودية على المسجد الأقصى، وباستثناء عدد من الحركات المسيحانية الهامشية التى طالبت بالسيطرة اليهودية عليه، وعلى الأخص منظمة «أمناء جبل الهيكل»، فأنه حتى الحركات اليمينية لم تدع للسيطرة على المسجد الأقصى. وتضيف راينهارت أنه حتى وقت قريب اعتبر مصطلح «جبل الهيكل» جزءاً من القاموس المسيحانى لمتدينين أصوليين متطرفين». لكن المفاجأة التى تشير إليها راينهارت تتمثل فى حقيقة أن باراك رئيس الوزراء العمالى العلمانى، الذى يقف على رأس اليسار الصهيونى، هو الذى بادر إلى تغيير موقف الدولة العبرية من مصير المسجد الأقصى، حيث حول باراك السيطرة على المسجد الأقصى خلال مفاوضات كامب ديفيد إلى قضية مركزية. وتشير راينهارت إلى نقطة بالغة الأهمية فى سلوك باراك الذى كان له الدور فى إجبار الفلسطينيين على القنوط من أى رهان على التسوية السياسية مع الدولة العبرية، ألا وهو اتباع الخداع. وتؤكد راينهارت أن لباراك سجلاً حافلاً فى ممارسة الخديعة فى التعامل مع العرب. وتضرب مثال على ذلك هو حقيقة تعمده إفشال المفاوضات بين سوريا والتى سبقت مؤتمر «كامب ديفيد». ويقدم الجنرال أورى ساغيه، الرئيس السابق لشعبة الاستخبارات العسكرية فى الجيش الإسرائيلى والذى كان عضواً بارزاً فى الوفد الإسرائيلى فى المفاوضات مع سوريا المزيد من الأدلة على أن باراك هو الذى احبط فرصة التوصل لتسوية سياسية مع سوريا، حيث تراجع باراك- فى اللحظة الأخيرة - عن التفاهمات التى توصل إليها ساغيه نفسه مع عدد من الجنرالات السوريين والمتعلقة بخطط الانسحاب من هضبة الجولان. وتعتبر راينهارت أن باراك هو الوجه الآخر لشارون، وتقدم عدداً كبيراً من الأدلة على ذلك. وتؤكد أن سجل التعاون بين باراك وشارون يعود إلى خدمة باراك كقائد بارز فى الجيش. وتشير إلى وثيقة نشرها الصحافى أمير أورن فى صحيفة هارتس فى يناير ١٩٩٩، وهى عبارة عن مذكرة شخصية وجهها، فى مارس (آذار) ١٩٨٢، إيهود باراك الذى كان يشغل فى ذلك الوقت منصب رئيس شعبة التخطيط فى هيئة أركان الجيش، إلى شارون الذى كان يشغل منصب وزير الدفاع شارون، وذلك فى سياق الاستعدادات التى كانت إسرائيل تقوم بها لغزو لبنان. فى هذه المذكرة يحضّ باراك شارون على تضليل الحكومة، وتجاوز قرارها، وتوسيع نطاق الغزو المرتقب إلى درجة «شن هجوم واسع النطاق على سورية». راينهارت تعتبر أن الوثيقة «تكشف عن جانب خطير فى شخصية باراك، هو جانب الاستعداد (غير المحدود) للمشاركة فى مؤامرة غايتها أن تخدع ليس فقط الأعداء وإنما أيضًا المواطنين والجنود والقيادة المنتخبة». وتشير راينهارت إلى أن باراك يقدر الفهم العسكرى لأرئيل شارون ، فكلاهما استمرار جلىّ لأبى سلالة الجنرالات السياسيين موشيه ديان.

وتصب راينهارت مجدداً جام غضبها على وسائل الإعلام التى تناست وتجاهلت ما تعرفه من تفاصيل إشكالية فى شخصية باراك وجديته ومصداقيته.

شيطنة عرفات

على الرغم من توقيع قيادة منظمة التحرير على اتفاقيات أوسلو، وعلى الرغم من اعترافها الرسمى بدولة إسرائيل، إلا أن المسئولين عن تقديم التقييمات الإستراتيجية للحكومة سواء كانوا فى شعبة الاستخبارات العسكرية المعروفة بـ «أمان»، أو فى جهاز المخابرات الداخلية «الشاباك» ظلوا يشككون فى نوايا قيادة المنظمة. سيخاروف وهارئيل يؤكدان أن التقييمات الاستراتيجية التى على أساسها تبلور الحكومات الإسرائيلية سياساتها الخارجية تأثرت بالمواقف الأيديولوجية للذين يصوغونها، سيما المسئولين عن قسم الأبحاث فى شعبة الاستخبارات العسكرية، الذى كان يديره الجنرال عاموس جلعاد، الذى قاد توجهاً داخل المؤسسة الأمنية الإسرائيلية لشيطنة عرفات. جلعاد ونظراؤه فى جهاز «الشاباك» قالوا أنه رغم التوقيع على اتفاقيات أوسلو، فإن الفلسطينيين لا يعترفون حتى بحدود ١٩٦٧ كحدود لدولة إسرائيل، ويبدون اهتماماً باستمرار التآمر عليها من خلال فلسطينيى العام ١٩٤٨. وحسب هذه التقييمات فإن عرفات يحاول الاحتفاظ من خلال مطالبته بحق عودة اللاجئين إلى داخل دولة إسرائيل بـ «قنبلة ديموجرافية» هدفها النهائى إبادة الدولة.فعرفات بالنسبة لأصحاب هذه التقييمات يريد أن يحرم إسرائيل من أكبر إنجاز حققته الحركة الصهيونية وهو تحقيق تفوق ديموجرافى لليهود بين نهر الأردن وحوض البحر الأبيض المتوسط. خلاصة هذه التقييمات كانت تصل إلى نتيجة مفادها أن احتمال التوصل لتسوية سياسية دائمة مع الفلسطينيين تبدو متدنية جداً. من ناحيتها تشير راينهارت إلى أن المشهد السياسى فى الدولة العبرية أبان الانتفاضة تميز بالتأثير الهائل للمؤسسة الأمنية على دائرة صنع القرار فى الدولة. وعلى الرغم من أنها تؤكد أن المستويين السياسى والعسكرى فى إسرائيل كانا دائما متداخلين ويصعب وضع حدود فاصلة بينهما، إلا أن انتفاضة الأقصى دلت على أن العسكر زادوا من تأثيرهم على عملية صنع القرار. وتقتبس راينهارت أقوال أحد أعضاء الكونجرس الأمريكى الذى زار إسرائيل، وعلق على شبكة العلاقات بين المستويين الأمنى والسياسى، قائلاً «إن الذى يقرر فى إسرائيل الاستراتيجيات وسلم الأولويات القومى، باعتبارهما موضوعاً يقف فى صلب الإجماع الوطنى ليس هيئات منتخبة وإنما أشخاص فى البزات العسكرية.. وجميع حكومات إسرائيل السابقة أولت اهتماماً هائلاً للاقتراحات التى طرحها الجيش، على اعتبار أنه يمثل «الحكومة الدائمة».

زيارة شارون الاستفزازية للأقصى

فى الفصل الأول من «الحرب السابعة»، يؤكد سيخاروف وهارئيل أن ارئيل شارون، الذى كان زعيماً للمعارضة اليمينية، يتحمل مسئولية كبيرة عن اندلاع انتفاضة لإصراره على دخول المسجد الأقصى، وتجاهله بشكل تظاهرى الحساسية المطلقة التى ينظر بها المسلمون والفلسطينيون على وجه الخصوص إلى دخول اليهود إلى باحة الحرم، سيما عندما يدور الحديث عن شارون الذى ينظر إليه كمجرم حرب قاس، و جزار صبرا وشاتيلا وكذلك أحد الذين شاركوا فى حروب الاستنزاف الدامية فى الخمسينيات ضد الفلسطينيين فى قطاع غزة، فهو عدو الشعب الفلسطينى. رفض شارون التحذيرات التى قدمها قادة الأجهزة الأمنية والشرطة من النتائج الوخيمة للزيارة. يرى المؤلفان أن موقف شارون



ترى راينهارت أن أى زعيم إسرائيلى يتطلع إلى المصالحة مع الفلسطينيين على المستوى الرمزى كان يتعين عليه بداية، من وجهة نظرها، الاعتراف بمسئولية إسرائيل عن نشوء قضية اللاجئين



هذا يجعله مسئولاً عن شلال الدماء الذى خلفته هذه الزيارة. يوجه المؤلفان انتقادات لاذعة لرئيس الوزراء الإسرائيلى فى ذلك الوقت ايهود باراك الذى خضع لشارون ووافق على إتمام الزيارة.



ويوضح سيخاروف وهارئيل أن طريقة تعامل قوات الاحتلال الوحشية مع المظاهرات السلمية التى نظمها الفلسطينيون لدى اندلاع الانتفاضة، دفعت الفصائل الفلسطينية للانتقال من وسائل الاحتجاج المدنى إلى العمليات المسلحة وحسب المؤلفين فقد حرصت قيادة جيش الاحتلال على التسبب فى قتل أكبر عدد من المدنيين الفلسطينيين الذين يشاركون فى التظاهرات السلمية. ويستند سيخاروف وهارئيل إلى تقرير مراقب الدولة للعام ٢٠٠٣، الذى أكد انه طوال الفترة الممتدة من الانتفاضة الأولى وحتى انتفاضة الأقصى «لم يبذل الجيش الإسرائيلى جهودا حقيقية لتطوير وسائل أقل فتكا لتفريق المظاهرات التى ينظمها المدنيون الفلسطينيون. وكان جيش الاحتلال يتذرع بعدم استخدام الوسائل الأقل فتكاً مثل الغاز المسيل بالدموع بأنه «يملك كميات قليلة منها!!!». وحتى استخدام العيارات المطاطية التى كان جيش الاحتلال يدعى أنها من الوسائل «غير الفتاكة»، فقد تبين أنها تؤدى إلى الوفاة. وحسب شهادة قائد إحدى كتائب الاحتياط فى جيش الاحتلال فقد كان جيش الاحتلال يسارع إلى استخدام الذخيرة الحية بدون أن يكون هناك أى دواعى ميدانية تبرر ذلك. وفى الشهر الأول من انتفاضة الأقصى أطلق جنود الاحتلال ٨٥٠ ألف عيار من الذخيرة الحية على الفلسطينيين. عدد من الوزراء فى حكومة باراك من بينهم امنون شاحاك الذى كان فى السابق رئيساً لهيئة أركان الجيش اتهم قيادة الجيش بتجاوز تعليمات الحكومة والإسراف فى قتل الفلسطينيين بدون مبرر. يقول أحد الجنود الذين خدموا فى الضفة الغربية أثناء اندلاع الانتفاضة «هذه الحرب غير الأخلاقية أدت إلى فضح إسرائيل». ويؤكد المؤلفان أن الجنود منحوا تراخيص للقتل، حيث كانت تأتيهم تعليمات لقتل الأطفال والنساء من خلف الكواليس. إنها حرب إبادة شاملة للإنسان والنبات والمزروعات والتراث، حرب لم يكن لها ضوابط.

ويشير سيخاروف وهارئيل إلى أن هناك علاقة وثيقة بين طريقة انسحاب جيش الاحتلال من جنوب لبنان فى العام ٢٠٠٠، وبين حرص الدولة العبرية على ممارسة أكبر قدر من القوة لقمع الانتفاضة. وحسب المؤلفين فإنه فى التحقيقات الداخلية التى أجرتها قيادة المنطقة الشمالية فى جيش الاحتلال فى أعقاب الانسحاب من جنوب لبنان ،أشار عدد من كبار الضباط لثغرات فى عملية تنفيذ الانسحاب. هؤلاء الضباط وصفوا الانسحاب بأنه «هروب مع ذيل بين الساقين». ويشير زخاروف وهارئيل إلى أن أكثر ما أثار حفيظة قادة جيش الاحتلال وزعماء الأحزاب السياسية اليمينية والدينية كان الخطاب التى ألقاها أمين عام حزب الله الشيخ حسن نصر الله بتاريخ ٢٦ أيار من العام ٢٠٠٠فى المهرجان الذى أقامه حزب الله احتفاءً بانتصار المقاومة فى بلدة بنت جبيل جنوب لبنان. نصر الله الذى كان المتحدث الرئيسى فى المهرجان ، توجه للعالم العربى قائلاً: «إخوانى الأعزاء، أقول لكم: إسرائيل التى لديها سلاح نووى أضعف من بيت العنكبوت». المؤلفان يؤكدان أن خطاب نصر الله ترك آثاراً بعيدة المدى على الوعى الجمعى للعرب والمسلمين. وقادة الجيش الإسرائيلى ورؤساء الأجهزة الاستخبارية توصلوا لقناعة مفادها أنه يتوجب العمل على إزالة الآثار الكارثية التى تركها الانسحاب من جنوب لبنان، وبعث الحياة من جديد فى قدرة الردع الإسرائيلية فى مواجهة العالم العربى. فى إسرائيل أدركوا أن الفلسطينيين سيجدون فى نجاح المقاومة الإسلامية اللبنانية فى تحرير جنوب لبنان بالقوة نموذجاً يقتدى، ومثل الانتصار على الجيش الإسرائيلى كسابقة لم تحدث فى تاريخ الصراع، تجربة يتوجب اتباعها. من هنا فقد اعتبرت الدولة العبرية أن أحد أهم الأسباب التى حثت الفلسطينيين على خوض غمار انتفاضة الأقصى كان بلا شك الانتصار غير المسبوق للمقاومة الإسلامية فى جنوب لبنان. فى إسرائيل أخذوا يؤكدون أن الفشل فى مواجهة انتفاضة الأقصى يعنى دمار الدولة، على اعتبار أنه بخلاف جنوب لبنان، فإن إسرائيل لا يمكنها أن تنسحب من الضفة الغربية التى تمثل العمق الاستراتيجى لها. من هنا اعتبر رئيس أركان الجيش الإسرائيلى السابق موشيه يعلون انتفاضة الأقصى بأنها «المعركة الأهم منذ الإعلان عن الدولة العبرية فى العام ١٩٤٨».

العمليات الاستشهادية

وروح المجتمع الفلسطينى

يرى سيخاروف وهارئيل أن انتقال الفلسطينيين لتنفيذ العمليات الاستشهادية كان ضرورة يمليها واقع ميزان القوى بين الجانبين. فالاختلال الهائل فى موازين القوى العسكرية بين الفلسطينيين ودولة إسرائيل، دفع حركات المقاومة الفلسطينية إلى الاعتماد على العمليات الاستشهادية، حيث أصبح الاستشهاديون «قنابل بشرية» للرد على فعل طائرات الإف ١٦ ودبابات الميركفاة. العمليات الاستشهادية كانت الفعل المقاوم الفلسطينى الأبرز الذى ترك آثاره على المجتمع الإسرائيلى. فالعمليات الاستشهادية حصدت أرواح معظم الإسرائيليين الذين قتلوا أثناء الانتفاضة. تقريباً طالت العمليات الاستشهادية كل المرافق التى يتوجه إليها الإسرائيلى العادى. فقد تم تفجير حافلات النقل والمطاعم والملاهى والفنادق. يؤكد المؤلفان أن الاستشهاديين ومرسليهم نجحوا فى بث الذعر والإحباط الجماعى داخل طبقات كثيرة فى المجتمع الإسرائيلى. كان للعمليات الاستشهادية الدور الأساسى فى تغيير أنماط حياة الجمهور الإسرائيلى. فقد قلل الإسرائيليون من الخروج لمرافق الترفيه والتسوق. وفى نفس الوقت أصبح الطلب هائلاً على شركات الحراسة الخاصة، وأصبح بالإمكان رؤية الحراس وعناصر الأمن فى كل زاوية. وقفز عدد العاملين فى شركات الحراسة الخاصة بشكل كبير ليصل إلى ٦٥٠٠٠ حارس. فى نفس الوقت قلل الإسرائيليون من استخدام المواصلات العامة. كان للعمليات تأثير سلبى هائل على السياحة، التى تعتبر من أهم المرافق الاقتصادية فى الدولة. فقد انخفض عدد السياح بشكل لم يحدث حتى فى أثناء حرب الأيام الستة، حيث انخفض عدد السياح بنسبة ٦٨٪. يرسم سيخاروف وهارئيل صورة قاتمة للأوضاع الاجتماعية فى الدولة فى ذروة تنفيذ العمليات الاستشهادية فى الأعوام ٢٠٠١ و٢٠٠٢ و٢٠٠٣. فقد تحولت الدولة إلى دولة جنازات، حيث أقيمت الجنازات للقتلى فى كل مكان ومنطقة من مناطق الدولة. ويقتبس المؤلفان عن تقرير أعده جيش الاحتلال حول تأثير العمليات الاستشهادية، حيث أشار التقرير إلى أن الإسرائيليين أخذوا يشعرون أنهم أصبحوا أهدافا متحركة. وحسب التقرير فإنه حتى تموز ٢٠٠٤ تم تنفيذ ١٣٣ عملية استشهادية ، بالإضافة إلى مئات المحاولات الإضافية الفاشلة. عدد العمليات الاستشهادية وعدد المحاولات لتنفيذها أصبح يقترب من تسجيل رقم عالمى. ويعقد المؤلفان مقارنة بين ظاهرة العمليات الاستشهادية لدى حركات المقاومة الفلسطينية، وبين نفس الظاهرة لدى المتمردين التاميليين فى سيريلانكا. ويشيران إلى أنه فى الوقت الذى نفذ فيه التاميل مائة وستين عملية انتحارية خلال عشر سنوات، فإن الفلسطينيين نفذوا خلال أقل من أربع سنوات ١٣٣ عملية استشهادية ومئات المحاولات لتنفيذ مثل هذه العمليات. يرفض المؤلفان الربط بين الاستعداد لتنفيذ عمليات

الحكومات الإسرائيلية حرصت أثناء التفاوض مع العرب على اتباع منهجية محددة تقوم على أساس: سحب تعهدات سابقة وعرضها كما لو أنها اختراقات جديدة فى العملية التفاوضية



استشهادية وبين حقيقة كون منفذى هذه العمليات من المسلمين. ويؤكدان أنه على مر التاريخ تم استخدام العمليات الاستشهادية عندما كان هناك اختلال فى موازين القوى. ويحمل سيخاروف وهارئيل الواقع الذى خلقه الاحتلال المسئولية عن دفع الشباب الفلسطينى لتفجير أنفسهم من أجل ضمان المس بجنود الاحتلال ومستوطنيه. فبالنسبة للشباب الذين نفذ العمليات الاستشهادية فإن الموت أفضل بكثير من مواصلة العيش تحت نير الاحتلال. ويرى المؤلفان أن قدرة الاستشهاديين على المس بالمجتمع الإسرائيلى على هذا النحو أيقظت المشاعر فى العالم العربى. يستند المؤلفان إلى مقابلات أجرياها فى سجون الاحتلال مع عدد من قادة الأذرع العسكرية فى حركات المقاومة الذين اعتقلوا على خلفية دورهم فى التخطيط للعمليات الاستشهادية وتجنيد الاستشهاديين. وحسب هؤلاء القادة فإن لجوء حركات المقاومة الفلسطينية إلى استخدام هذا العدد الكبير من الاستشهاديين لم يكن فقط بسبب توفر عدد كبير من المتطوعين لتنفيذ هذه العمليات، بل بسبب «المزايا الميدانية» للعمليات الاستشهادية، مقارنة بوسائل المقاومة الأخرى. فالاستشهادى يتحكم بتوقيت عمل القنبلة التى يحملها أو الحزام الذين يضعه على جسمه، إلى جانب قدرته على اختيار توقيت التنفيذ، بحيث يؤدى إلى إحداث أقصى ضرر ممكن، فضلاً عن صعوبة إلقاء القبض على مخرب منفرد يخبئ قنبلة على جسده. وفوق كل ذلك، فإنه من الصعب جداً ردع الشباب الذى ينوى تنفيذ عمليات استشهادية، فالدافعية النفسية التى يتسلح بها الاستشهاديون تجعل من محاولة ردعهم مجرد عبث، إذ أنهم يقدمون على الموت طواعية وباختيارهم.



الفشل فى مواجهة الاستشهاديين

يشير المؤلفان إلى أنه على الرغم من نجاح المخابرات الإسرائيلية فى جمع المعلومات الاستخبارية التى قادت فى كثير من الأحيان إلى إحباط العمليات الاستشهادية قبل تنفيذها، إلا أن الجهود التى بذلتها إسرائيل لردع الفلسطينيين ومنعهم من الانضمام لمنفذى العمليات الاستشهادية قد باءت بالفشل الكبيرة. فى جلسة عاصفة فى صيف العام ٢٠٠٢، وإزاء تفاقم الضرر الناجم عن العمليات الاستشهادية، قررت الحكومة الإسرائيلية العمل ضد عوائل الاستشهاديين. المنطق وراء هذا القرار كان يقول أنه إذا كان من الصعب ردع الاستشهادى نفسه، لأنه أصلا اختار الموت، فيتوجب ردع عائلته، والإثبات للمجتمع الفلسطينى أن العقاب الإسرائيلى لا ينتهى بموت الاستشهادى. من هناك قررت الحكومة الإسرائيلية الشروع بتدمير منزل كل استشهادى بأثر رجعى، وتقرر أيضاً تدمير منزل كل من يثبت أنه قام بتجنيد الاستشهاديين وإرسالهم لتنفيذ العمليات. على مدى عامين قام جيش الاحتلال بتدمير مائتين وسبعين منزلا لعائلات الاستشهاديين ومرسليهم. الرسالة الإسرائيلية للاستشهادى قبل تنفيذ العملية أن عائلته ستعيش فى العراء بعد موته،وسيكون هو مسئولا عن تشتيتها. ينقل المؤلفان عن الجنرال إسحاق ايتان الذى كان قائداً للمنطقة الوسطى فى جيش الاحتلال ومسئولاً عن قواته فى الضفة الغربية قوله أن هذه السياسة أتت نتائج عكسية تماماً. يجزم ايتان أن سياسة تدمير منازل الاستشهاديين أججت مشاعر الانتقام فى المجتمع الفلسطينى، وفاقمت من خطر العمليات الاستشهادية.

الذى يصيب سخاروف وهارئيل بالإحباط هو حقيقة أن المقاومين الفلسطينيين الذين التقيا بهم خلف القضبان والذين يقضون أحكاما بالسجن المؤبد بعد إدانتهم بالمشاركة فى التخطيط للعمليات الاستشهادية وتجنيد الاستشهاديين غير نادمين إطلاقا على ما قاموا به. ويقولان أنه من خلال المقابلات التى اجرياها مع هؤلاء المقاومين الذين يعيشون ظروف قاهرة فى السجن تبين لهما أن لدى هؤلاء : إيمان كامل بضرورة الاستمرار فى الصراع ضد الاحتلال ورفض قاطع للتعبير عن أدنى ندم. تواصل العمليات الاستشهادية جعل اليأس يتسلل إلى نفوس قادة الأجهزة الأمنية أنفسهم. ويقتبس المؤلفان جزءاً من الكلمة التى ألقاها افى ديختر رئيس جهاز «الشاباك» أمام مؤتمر «هرتسليا» فى كانون من العام ٢٠٠٣ حيث أكد أن أجهزة الأمن الإسرائيلية فشلت فى حماية الإسرائيليين من العمليات الاستشهادية. أحد القادة الكبار فى «الشاباك» يعبر عن صور اليأس من إمكانية النجاح فى مواجهة الاستشهاديين، قائلاً «الصراع بالمنتحرين لن ينتهى إلى الأبد لأنه أشبه بـ تفريغ البحر بملعقة».



ويرى سيخاروف وهارئيل أنه بعد فشل وسائل الفعل العسكرى التقليدية ممثلة فى عمليات المداهمة والاعتقال، إلى جانب المخاطر الجمة التى يتعرض لها الجنود أثناء محاولتهم أسر المقاومين الفلسطينيين، بالذات أولئك الذين على علاقة بالعمليات الاستشهادية، قررت إسرائيل تغيير الوسائل التى اتبعتها المخابرات والجيش فى مواجهة حركات المقاومة، وكان الانتقال إلى عمليات التصفية، والاعدام بدون محاكمة. يشير سيخاروف وهارئيل إلى أن عمليات التصفية استهدفت فى البداية المقاومين الذين يقومون بتجنيد الاستشهاديين وإرسالهم، والذين يقومون بتصنيع العبوات والأحزمة الناسفة. وجه الشبه بين العمليات الاستشهادية التى ينفذها المقاومون الفلسطينيون وأحداث الحادى عشر من سبتمبر فى نيويورك وواشنطن وفرت لإسرائيل فرصة نادرة لتبرير سياسة التصفية وإضفاء شرعية عليها، أو على الأقل ضمان تأييد القطب الأوحد فى العالم لهذه السياسة. يؤكد سيخاروف وهارئيل أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر زادت من الانسجام بين شارون والرئيس الأمريكى بوش. ووصل الأمر إلى حد أن بوش اعتبر أن حرب إسرائيل ضد المقاومة الفلسطينية هو جزء من الحرب التى تخوضها الولايات المتحدة ضد «الإرهاب العالمى». هذا الفهم لم يكن حكراً على بوش، بل أصبح يتبناه عدد من كبار الكتاب فى الولايات المتحدة، وعلى رأسهم توماس فريدمان الذى كتب بعيد قيام إسرائيل بشن حملة «السور الواقى» فى أبريل من العام ٢٠٠٢ والتى هدفت إلى تصفية البنى التنظيمية لحركات المقاومة فى الضفة الغربية، قائلا «لنتيجة الحرب الدائرة الآن بين الإسرائيليين والفلسطينيين سيكون تأثير حاسم على أمن كل أمريكى وأيضاً على أمن الحضارة كلها». فريدمان دعا العالم إلى دعم إسرائيل فى حربها ضد «الانتحاريين»، قائلاً إذا نجح إرهاب الانتحاريين فى إسرائيل مثل اختطاف الطائرات فسيأتى اليوم الذى ينفجر فيه انتحارى متحزم بحزام نووى. يقول سيخاروف وهارئيل أن الإدارة الأمريكية منحت شارون تصريحاً مفتوحاً بالقتل، و طالما أنه من الممكن تبرير الخطوات الإسرائيلية المتصاعدة، كأنها حرب ضد «الإرهابيين» فإن الإدارة الأمريكية لن تعترض. معظم دول العالم اكتفت باحتجاجات هشة على عمليات التصفية، فشارون عملياً حصل على ترخيص للقتل قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر كان الأمريكيون يكثرون من انتقاداتهم لعمليات التصفية، لكن بعد ذلك انقلبت الأمور رأساً على عقب.

الاغتيالات: نتائج عكسية

يؤكد سيخاروف وهارئيل أن إحدى النتائج العكسية والسلبية جداً لسياسة الاغتيالات أنها أدت إلى ذواب الفوارق بين التنظيمات الفلسطينية. ويؤكدان أنه بسبب هذه السياسة أصبحت الحركات العلمانية الفلسطينية تتجه

الذى يقرر فى إسرائيل الاستراتيجيات وسلم الأولويات القومى، باعتبارهما موضوعاً يقف فى صلب الاجماع الوطنى ليس هيئات منتخبة وإنما أشخاص فى البزات العسكرية

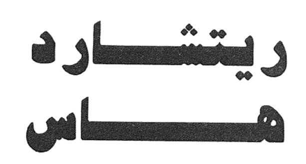


نحو تنفيذ العمليات الاستشهادية، بعد أن كانت العمليات الاستشهادية حكراً على حركتى حماس و«الجهاد». فقد أصبحت الحركات العلمانية مثل «فتح» و«الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» تنفذ عمليات استشهادية. نقطة التحول الفارقة فى آليات عمل حركة «فتح» فى المجال المقاوم كانت عندما قامت إسرائيل باغتيال رائد الكرمى قائد جناحها العسكرى فى مدينة «طولكرم» فى شباط ٢٠٠٢. حتى هذا التاريخ لم تقم «فتح» بأى عملية استشهادية، لكن بمجرد أن وقعت عملية الاغتيال، رد الجناح العسكرى لـ «فتح»، المعروف بـ «كتائب شهداء الأقصى» بسلسلة من العمليات الاستشهادية المؤلمة. ومنذ ذلك الوقت أصبحت العمليات الاستشهادية أداة النضال الأكثر اعتماداً لدى الجناح العسكرى لـ «فتح»، الأمر دفع شخصيات قيادية برغماتية لخوض غمار العمل المسلح، وتحديداً أمين عام سر اللجنة الحركية العليا لـ «فتح» مروان البرغوثى الذى كان ينظر إليه فى إسرائيل على أنه من «الحمائم» فى الساحة الفلسطينية، والذى يقضى حالياً حكماً بالسجن المؤبد فى السجون الإسرائيلية، بعد إدانته بالتمويل والتخطيط وإصدار الأوامر لتنفيذ عمليات استشهادية. وقد وصل الأمر إلى حد أن عدد الإسرائيليين الذين يقتلون فى العمليات الاستشهادية التى تنفذها «فتح» أكبر من عدد الإسرائيليين الذى يقتل فى العمليات التى تنفذها «حماس». ينقل كل من سيخاروف وهارئيل عن وزير الدفاع الإسرائيلى فى عهد حكومة شارون الأولى بنيامين بن اليعازر قوله أنه يعتبر موافقته على اغتيال الكرمى كانت خطأ حياته، لأنه سمح بانضمام «فتح» للعمليات الاستشهادية بكل قوة. وكرد على عمليات الاغتيال نجح عناصر من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى اغتيال الوزير إسرائيلى الجنرال رحبعام زئيفى رداً على اغتيال أمين عام الجبهة أبو على مصطفى.

مولد خطة «فك الارتباط»

يؤكد المؤلفان أن شارون الذى يعتبر «أبو المشروع الاستيطانى» فى الضفة الغربية وقطاع غزة أدرك بسرعة أنه على الرغم من التفوق الطاغى للقوة العسكرية الإسرائيلية فإن الدولة العبرية ليس بإمكانها مواصلة المواجهة على هذا النحو. فقد اتضح عدم مقدرة الجمهور الإسرائيلى على تحمل تبعات المواجهة المتواصلة. شارون الذى كان يتبجح ويتعهد لكل ناخبيه فى اليمين، بأنه سيفرط بتل أبيب فى حال فرط بنتساريم (مستوطنة نائية تقع إلى الجنوب من مدينة غزة)، وصل إلى قناعة مفادها أن عليه تفكيك جميع مستوطنات قطاع غزة وأربعة مستوطنات نائية فى شمال الضفة الغربية، وكانت هذه بداية قصة خطة «فك الارتباط». بالنسبة لشارون كانت خطة «فك الارتباط» آلية لإدارة الصراع لا حله. فإلى جانب إدراكه عجز جيشه عن تحقيق نصر حاسم على الانتفاضة، خشى شارون أيضاً أن يؤدى التجند العالمى لخطة «خارطة الطريق» التى قدمتها الولايات المتحدة واللجنة الرباعية إلى سحب البساط من تحت أقدامه وإجباره إلى تقديم «تنازلات» لا يقبل بها. فقام شارون من ناحية بالإعلان عن خطة فك الارتباط، وفى نفس الوقت طرح شروط تعجيزية من أجل الموافقة على خطة «خارطة الطريق». شارون اشترط أن تقوم السلطة الفلسطينية بنزع أسلحة حركات المقاومة وتفكيك بنيتها التحتية والقضاء على كل مظاهر التحريض على الدولة العبرية قبل خوض غمار خطة «خارطة الطريق». اعتبر شارون أن خطة «فك الارتباط» تحسن من الواقع الديموغرافى لصالح اليهود، إذ أن إسرائيل ستتخلص من مئات الآلاف من الفلسطينيين الذين سيتم القذف بهم فى الكيان الفلسطينى الذى سينشأ فى قطاع غزة بعد تنفيذ خطة «فك الارتباط».

قصارى القول فإنه يمكن تلخيص ما جاء فى «أكاذيب حول السلام» و«الحرب السابعة» بالقول أنه بسبب انعدام الجدية الإسرائيلية فى التوصل لتسوية سياسية حقيقية، فقد كان من الطبيعى والمنطقى والمطلوب أن تندلع انتفاضة الأقصى. ■



ريتشــارد هــاس

عبـد الـرءوف الـريـدى

■■ كان لقائى الأول مع ريتشارد هاس فى أوائل عام ١٩٨٩، وكان قد عين لتوه عضواً بمجلس الأمن القومى بالبيت الأبيض كمساعد لرئيس الجمهورية لشئون الشرق الأوسط فى عهد الرئيس جورج بوش الأب. ومنذ هذا التاريخ استمرت صلتى به كما أصبحت صداقة بيننا، إلى جانب كونها صداقة عمل.

طوال سبعة عشر عاماً أى منذ خطوته الأولى فى البيت الأبيض تقلب ريتشارد فى مناصب عديدة داخل وخارج الإدارة إلى أن أصبح أخيراً مديراً (President) للمجلس الأمريكى للعلاقات الخارجية بنيويورك، خلفاً للزلى جلب الذى كان المعلق الرئيسى للشئون الخارجية فى جريدة نيويورك قبل أن يتولى إدارة المجلس لمدة عشرة أعوام.

أول مناسبة اشتهر فيها هاس كانت تلك الصورة التى ظهر فيها إلى جانب الرئيس بوش الأب عندما أطلق تصريحه الشهير بأن غزو صدام للكويت هو خط على الرمال مآله حتماً إلى الزوال. وقد عمل ريتشارد بصورة وثيقة مع رئيسه المباشر برنت سكوكروفت مستشار الأمن القومى وبطبيعة الحال مع الرئيس بوش نفسه وكان هو الذى ينسق تدفق وعرض المعلومات حول عملية تحرير الكويت ويرفعها مباشرة إلى الرئيس بوش مما أوجد علاقة حميمة بينه وبين الرئيس بوش الأب منذ ذلك التاريخ.

أذكر لريتشارد تعاونه هنا فى هذه الفترة، حيث كان مناصراً لفكرة إلغاء الديون الأمريكية العسكرية (سبعة بلايين دولار) على مصر، كما كان عنصراً فعالاً فى الحصول على تأييد الولايات المتحدة لانتخاب الدكتور بطرس بطرس غالى أميناً عاماً للأمم المتحدة.

كان الرئيس بوش يريد أن يرشح لهذا المنصب المرحوم صدر الدين خان الذى كانت تربطه به صداقة شخصية منذ كان بوش يشغل منصب مندوب الولايات المتحدة الدائم لدى الأمم المتحدة وعندما كان بوش يأتى إلى جنيف كان ينزل ضيفاً على صدر الدين.

وبعد أن أعلنا عن ترشيحنا للدكتور غالى وبدأنا العمل على جلب تأييد الدول الكبرى وخاصة الولايات المتحدة دخل ريتشارد على الرئيس فى مكتبه البيضاوى، وقال له، اسمح لى يا سيادة الرئيس أن أختلف معك فى تأييدك لصدر الدين خان لمنصب أمين عام الأمم المتحدة... لأن ذلك سيعنى إغضاب مصر التى تشارك معنا فى تحرير الكويت وتقدم لهذا المنصب شخصية معروفة على الساحة الدولية... بعكس صدر الدين خان الذى لم يكن معروفاً للرأى العام الدولى فضلاً عن الرأى العام الأمريكى، ولن يتفهم الشعب الأمريكى، لماذا تؤيد الولايات المتحدة مرشحاً جنسيته الرسمية أنه إيرانى رغم أنه لا يعيش فى إيران، وأننا نفضله على هذا المرشح المصرى المعروف فى العالم. وقد فكر بوش ملياً فيما قاله ريتشارد ثم اتخذ قراره بعدم ترشيح صدر الدين ولكنه فكر فى ترشيح شخص آخر من مصر وهو الدكتور عصمت عبد المجيد الذى تربطه به صداقة منذ الفترة التى عمل فيها كلاهما كمندوبين دائمين لبلديهما فى بداية السبعينيات. وكان الدكتور عصمت عبد المجيد فى وقتها مرشحاً لمنصب أمين عام جامعة الدول العربية وكانت فرصته فى الحصول على هذا المنصب مضمونة تماماً.

اتصلت بالدكتور عصمت وقتها لاستطلاع رأيه واتفقنا على أن الأفضل له أن يستمر فى ترشيح نفسه لمنصب أمين عام جامعة الدول العربية عملاً بالمثل القائل «عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة»، وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً أمام دكتور بطرس غالى.. وكان تأييد الولايات المتحدة له هو العامل الحاسم فى حصوله على المنصب عام ١٩٩١، كما كان غياب هذا التأييد هو العامل الحاسم أيضاً فى عدم التجديد له لفترة ثانية عام ١٩٩٦.

بعد انتهاء رئاسة بوش الأب خرج ريتشارد من الإدارة وعمل لمدة ثمانية أعوام أى طوال فترة الإدارة الديمقراطية برئاسة كلينتون خارج الإدارة وكنت بدورى قد عدت إلى القاهرة بعد انتهاء فترة عملى فى واشنطن وأصبحت انشغالاتى كلها فى المجتمع المدنى المصرى، ومن ذلك كان الإسهام فى إنشاء المجلس المصرى للشئون الخارجية، وكان ريتشارد قد أصبح رئيساً للدراسات الاستراتيجية للشئون الخارجية فى معهد بروكنجز وزار مصر فى هذه الفترة

The opportunity: America's Moment to Alter History's course
(الفرصة: خطة أمريكا لتغيير مسار التاريخ)
Richard Haass
Perseus publishing, $25.00, 2005

عدة مرات، وعقدنا معه لقاءات فى المجلس المصرى، وكانت آراؤه مازالت تتجه صوب فكر الجمهوريين، ولكنه لم يكن من مجموعة المحافظين الجدد. وربما كان ذلك من أسباب اختيار كولين باول له وزير الخارجية فى إدارة بوش الابن الأولى بعد ذلك ليعمل معه فى الخارجية الأمريكية، وكان باول منذ البداية يعمل على إحاطة نفسه بمجموعة من غير المحافظين الجدد الذين لم يكن يثق بهم كما أنهم لم يكونوا يثقون به. وقد عين باول ريتشارد رئيساً لمجلس التخطيط السياسى فى الخارجية الأمريكية... وبهذه الصفة عدت والتقيت معه بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ضمن وفد المجلس المصرى للشئون الخارجية فى واشنطن... وهو فى منصبه الجديد، كما كان هو المسئول عن العملية السياسية فى أفغانستان بعد غزو أمريكا وإسقاط طالبان، وكان ريتشارد يتعاون مع الأخضر الإبراهيمى مستشار أمين عام الأمم المتحدة الذى كان اللاعب الأول فى ترتيب الساحة السياسية الأفغانية، والتى انتهت إلى تشكيل الحكومة الأفغانية الحالية بقيادة حميد كرزاى.

لم يبق ريتشارد فى الخارجية الأمريكية إلا عامين ونصفاً تقريباً... ثم خرج ليشغل بعد ذلك منصباً مرموقا يتطلع إليه الكثيرون، وكان يتنافس عليه العديد من العاملين فى مجال الشئون الخارجية، وهو منصب مدير «President» المجلس الأمريكى للعلاقات الخارجية فى نيويورك... والذى يعتبر أهم مؤسسة مهتمة بالشئون الخارجية فى المجتمع المدنى الأمريكى، وقد تم اختيار ريتشارد من بين قائمة ضمت شخصيات دبلوماسية وأكاديمية بارزة وفى اعتقادى أن هذا المنصب هو الذى سيؤهل ريتشارد يوماً لشغل منصب كبير آخر فى أية إدارة جمهورية مقبلة... كأن يصبح مثلاً مستشار الرئيس للأمن القومى، وذلك بحكم خلفيته الأكاديمية وخبرته العملية.. وينضم بذلك إلى هذه المجموعة التى تضم هنرى كيسنجر وماك جورج باندى وزبيجو برجنسكى وكونداليزا رايس..



لم يتوقف ريتشارد عن الكتابة والتأليف فى السياسة الخارجية... فهو أساساً قادم من مجتمع هارفارد الأكاديمى... ويأتى كتابه الأخير بعنوان «الفرصة» أو «أمريكا وتغيير مسار التاريخ» الذى صدر منذ شهور قليلة فى نيويورك واهتمت به دوائر الفكر الاستراتيجى والشئون الخارجية فى الولايات المتحدة وفى العالم، ليصبح واحداً من أهم الكتب التى صدرت مؤخراً فى السياسة الخارجية الأمريكية ويحتل موقعاً على قائمة أهم الكتب التى تقرأ حالياً فى مجال السياسة الخارجية.

يتسم كتاب ريتشارد هاس «الفرصة» بالابتعاد عن الأيديولوجية التى يتسم بها فكر المحافظين الجدد الذين جاءوا مع بوش الابن وكانت وزارة الدفاع بقيادة رامسفيلد هى قلعتهم الحصينة.. كان هذا الفريق يضم بول ولفوتس نائب وزير الدفاع الذى أصبح الآن رئيساً للبنك الدولى ودوجلاس فايث وكيل وزارة الدفاع الذى ترك منصبه وعاد لممارسة المحاماة... وريتشارد بيرل الذى رأس المجلس الاستشارى بوزارة الدفاع ثم اضطر للاستقالة حتى لا يجمع بين عمله كمستشار لشركات تتعامل وتتعاقد مع وزارة الدفاع وبين رئاسته لمجلس الدفاع... وكان منهم بطبيعة الحال جون بولتون الذى أبعدته كونداليزا رايس عن دائرة صنع القرار فى الخارجية الأمريكية وأرسلته إلى الأمم المتحدة كمندوب دائم ليغرق وسط أكوام الورق والاجتماعات التى لا تنتهى!! تلك هى المجموعة التى فقدت بريقها وغرقت فى مستنقع العراق ثم فقدت نفوذها بعد أن فقدت مصداقيتها لأنها هى التى زجت بأمريكا إلى الحرب على العراق دون أن تكون لديها خطة واضحة لما يمكن تحقيقه، ودون أن يكون لديها التقدير السليم لتداعيات الحرب أو خطة للخروج إذا سارت الأمور على غير ما تشتهى Exit Strategy.

يأتى كتاب ريتشارد هاس كأطروحة مناقضة للأطروحات الأيديولوجية للمحافظين الجدد، والفارق بين الفكرين كبير... ففكر المحافظين الجدد يذهب إلى أن الولايات المتحدة وحدها من حقها أن تدير شئون العالم حسب رؤيتها وليس على الآخرين إلا أن يلحقوا بها وقد ظهر هذا الفكر بجلاء أثناء الفترة السابقة على حرب العراق... وهناك من المقولات على لسان هؤلاء المحافظين الجدد ما صار مثلاً... «سنذهب إلى العراق بالأمم المتحدة أو بدونها»... «لسنا مستعدين لأن نرهن مستقبل أمريكا على إذن من الآخرين»، وغير ذلك من مقولات تتسم بالغرور والغطرسة... أما الفكر البراجماتى الذى يدعو إليه ريتشارد هاس والذى أتاح له كتابه الجديد الفرصة لأن يشرحه بالتفصيل، فهو يقوم على أن الولايات المتحدة والتى لا ينكر عليها أحد مركز القيادة، عليها أن تعمل مع الآخرين للتعامل مع المشاكل التى تواجهها وتواجه العالم معها. وأن الفرصة متاحة الآن أمامها لتعديل مسار التاريخ بما يناسبها ويناسب العالم أيضاً، وأن هذا الخيار ليس فى الواقع مجرد خيار بل إنه فى حكم «الضرورة» إذا كانت الولايات المتحدة ترغب فى أن تحقق لنفسها وللعالم حالاً أفضل مما هو عليه الآن وتتفادى الوصول بالعالم إلى أخطار كبرى يمكن أن تهددها وتهدد البشرية جمعاء.

يأتى الكتاب فى أعقاب الحرب الأمريكية على العراق وما سببته هذه الحرب من أضرار كبيرة لأمريكا وبصورتها مما أشاع فى العالم موجة العداء لأمريكا anti-americanism فضلاً عن إزهاق الأرواح والخسائر الاقتصادية.

رغم ذلك فإن هاس يعتقد أن الولايات المتحدة إزاء فرصة نادرة لها وللعالم معها إذا غيرت من أسلوبها وأخذت تتعاون مع الدول الرئيسية الأخرى. فعندئذ سيكون بإمكانها أن تشكل ما سيكون عليه العالم فى القرن الحادى والعشرين، وأن تجعل من هذا القرن قرناً يتسم بالسلام والرخاء والحرية لأغلب دول وشعوب العالم فى نفس الوقت الذى تحتل فيه الولايات المتحدة المكانة الأولى فى العالم (American Primacy). إما ذلك وإما أن تتدهور أحوال العالم وتفقد الولايات المتحدة سيطرتها وتسود حالة من الفوضى والانفلات ويصبح العالم مرتعاً لانتشار أسلحة الدمار الشامل ويزداد عدد الدول المنهارة أو المفلسة Failed States كما ينتشر الإرهاب وعدم الاستقرار.. أما الاحتمال الثالث فهو أن تصبح هذه الحقبة - أى حقبة القرن الحادى والعشرين- مجرد حقبة انتقالية نحو حرب باردة جديدة تكون هذه المرة بين الولايات المتحدة والصين!



هاس يعتقد أن الولايات المتحدة إزاء فرصة نادرة لها وللعالم معها إذا غيرت من أسلوبها وأخذت تتعاون مع الدول الرئيسية الأخرى





ويناقش هاس الدول التى يتعين على الولايات المتحدة أن تتعاون معها... وهو يعتقد أن هذه الدول تختلف باختلاف الموضوع والنزاع، وتلعب كل من الصين والهند دوراً هاماً رغم أنهما ليستا ضمن مجموعة الدول السبع أو الثمانى الكبرى... فلو أن هناك قضية مثلاً فعلاً فى أمريكا اللاتينية فستعين التعاون مثلاً مع البرازيل والمكسيك... وبطبيعة الحال إذا كانت هناك قضية تتعلق بمنطقتنا فإن مصر ستكون من بين الدول التى يتعين التعاون معها وهكذا... كما يتحدث عن الأمم المتحدة ويعطى اهتماماً خاصاً لمجلس الأمن ولكنه لا يعتقد أن الولايات المتحدة يمكن أن تخضع مصالحها الحيوية لقرار من الأمم المتحدة.

ثم يتحدث هاس عن أسباب أو انتشار الروح العدائية لأمريكا فى العالم... وهو لا يعتقد أن هذه الكراهية تعود إلى كون الولايات

ريتشارد هاس

المتحدة دولة قوية يحسدها العالم، ولكنها تعود إلى سياسات أمريكا.. وخاصة فى العراق وفى فلسطين وتأييد إسرائيل وكذلك إلى الأسلوب الذى يتسم بالغرور والعنجهية لإدارة بوش الابن.. وبالتالى فليست كراهية العالم لأمريكا شيئاً دائماً غير قابل للتغيير ولكنه شىء يمكن تغييره بتغيير السياسات. ثم ينتهى هاس إلى القول أن إدارة بوش مدعوة الآن لتبنى أفكار وسياسات خلاقة وأن يكون لديها مفهوم مرن لفكرة السيادة أو تقبل درجة أقل من السيادة، وذلك من أجل التكامل وللتعامل مع مشاكل الإرهاب وانتشار الأسلحة النووية ومكافحة الأمراض وضحايا النزاعات الداخلية لمواجهة هذه الأخطار جميعاً بأسلوب أفضل مما تتبعه حالياً أى بأسلوب يتسم بالتعاون لا بالانفراد بالقرار.

وقد عالج هاس عدداً من القضايا المحددة.. وربما كان من أهمها قضية الإرهاب ويرى أن الولايات المتحدة يجب أن تعمل مع الآخرين على وصم أى عمل يستهدف قتل المدنيين بأنه إرهاب، وذلك بغض النظر عما إذا كان قد تم قبول أو تم التغاضى عن أعمال من هذا النوع فى الماضى وليس من شك فى أن هاس يقصد هنا موضوع مقاومة الاحتلال، فالولايات المتحدة هى التى شجعت وسلحت ودربت الجماعات الإسلامية على مقاومة الاحتلال فى أفغانستان... وكان الرئيس ريجان يصف هذه الجماعات بأنها جماعات المحاربين من أجل الحرية Freedom fighters.. وكم من المدنيين الأبرياء فقدوا أرواحهم فى هذه الحرب التى انتهت بهزيمة الاتحاد السوفيتى ثم تفكيكه بعد ذلك. إن هاس لا يريد أن يشير إلى هذا الفصل من تاريخ أمريكا القريب... لأن أحداث أفغانستان فى عقد الثمانينيات كانت هى فى الواقع الحضانة الكبرى لجماعات التطرف الإسلامى التى ظهرت بعد ذلك، وهو لا يريد أن يجعل من تأييد أمريكا لحرب تحرير أفغانستان من الاحتلال السوفيتى مثالاً تقاس عليه مقاومة الاحتلال الإسرائيلى فى فلسطين أو الاحتلال الأمريكى للعراق. ولعل هذا الموضوع بالتحديد هو الذى يقف عقبة أمام كل محاولات تعريف الإرهاب فى الأمم المتحدة... أعنى الوضع بالنسبة لمقاومة الاحتلال التى نعتبرها نحن حقاً مشروعاً كما كانت حقاً مشروعاً أيام احتلال النازى لأوروبا وأيام احتلال السوفييت لأفغانستان ويعتبرونها هم الآن إرهاباً.

ويشير هاس إلى أن شحنة الكراهية إزاء الولايات المتحدة فى العالم الإسلامى هى بالأساس موجهة ضد سياسات الولايات المتحدة وليست ضد الولايات المتحدة كبلد أو كشعب.. ومن هذه السياسات بطبيعة الحال تأييد الولايات المتحدة لإسرائيل وحرب العراق والتواجد الأمريكى فى شبه الجزيرة العربية، وهو يعتقد أن مقاومة الإرهاب لا تتطلب التعامل بالوسائل الأمنية فقط بل تتطلب أيضاً إعادة النظر فى سياسات الولايات المتحدة فى فلسطين والعراق.

ويتحدث هاس مجدداً عن الثمن الذى تدفعه الولايات المتحدة نتيجة صورتها السلبية فى العالم العربى والإسلامى كدولة داعمة لإسرائيل. إن هذه الصورة فضلاً عن أنها تجعل الحكومات العربية متحرجة فى الظهور بمظهر التعاون مع الولايات المتحدة فإنها أيضاً تقلل من مصداقية الولايات المتحدة وقدرتها على إقناع العالم العربى بموضوع الإصلاح الديموقراطى، وهو بذلك يرى أن تعمل الولايات المتحدة على معالجة هذه الصورة من خلال العمل على حل هذه المشاكل. يرى فى انسحاب إسرائيل من غزة نقطة يمكن البناء عليها من أجل تنفيذ خطة الطريق لحل المشكلة الفلسطينية... وإقامة دولة فلسطينية، هذا عن فلسطين أما بالنسبة للعراق فهو قد انتقد فى أكثر من موضع قرار الحرب على العراق... واعتبر أنه قرار كلف الولايات المتحدة كثيراً... وشق صفوف الحلفاء وهو يرى ضرورة أن تعمل الولايات المتحدة على وضع استراتيجية للخروج من العراق exit strategy .

أما بالنسبة للديمقراطية فى العالم العربى فهو فى الوقت الذى يرى أهمية تشجيع البلاد العربية على الإصلاح إلا أنه لا يعتقد أنه سيكون من الحكمة أن ترهن الولايات المتحدة سياساتها فى المنطقة على موضوع الإصلاح، ويتحدث عن موضوع انتشار الأسلحة النووية ويشير إلى أن هناك الآن أمر واقع ينبغى تقبله وهو وجود ثلاث دول نووية فعلاً هى الهند وباكستان وإسرائيل.. وأنه لا سبيل لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء أى إلى إرغام هذه الدول على التخلى عن أسلحتها النووية.. ولكن ينبغى العمل الآن على منع ظهور دول نووية أخرى. ويشير فى هذا إلى كل من كوريا الشمالية وإيران، وهو يقر بوجود معايير مزدوجة، فهو لا يبدو قلقاً من وجود أسلحة نووية فى يد إسرائيل ولكنه لا يقبل بوجود هذه الأسلحة فى يد إيران. والواقع أن هذا الفكر أصبح سائداً فى الغرب، وقد ذكر أحدهم لى أثناء مناقشة حامية معه أن الخوف من الأسلحة النووية هو فى الأساس خوف ممن توجد هذه الأسلحة فى أيديهم... ولعل هذا ما يفسر الصمت المطبق إن لم يكن الصمت المدوى إزاء امتلاك إسرائيل للأسلحة النووية ووسائل إيصالها... وهو ما كان ومازال للغرب دور كبير فيه بما قدمته فرنسا وإنجلترا وما تقدمه أمريكا من دعم لإسرائيل فى مجال إقامة قاعدتها العلمية والعسكرية لإنتاج هذه الأسلحة... وكذا الصمت عن فكرة جعل منطقة الشرق الأوسط منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل بينما يجرى التركيز على امتلاك إيران للتقنية النووية، ويصل الأمر إلى حد التهديد بالقيام بعمل عسكرى ضد إيران... هذه المعايير المزدوجة هى أمر مسلّم به فى الغرب.

وأكتب هذه السطور فى أعقاب سماعى لخطاب الرئيس الإيرانى أحمدى نجاد فى الجمعية العامة للأمم المتحدة والذى خصصه لإثبات أن الغرب يتبع معايير مزدوجة... ولكنها للأسف صرخة فى واد...



وفى حديثه عن المستقبل فإن هاس لا يمانع أن تقوم الولايات المتحدة بحروب وقائية أو مانعة... ولكنها لا يجب أن تكرر تجربة العراق... التى لم يكن هناك دليل على أنها تحوز أسلحة دمار شامل... ويعتقد أنه حتى يمكن للولايات المتحدة أن تحصل على تأييد دولى لحرب مانعة فيجب أن يكون هناك الدليل «الإيجابى» وليس مجرد عدم وجود دليل على «البراءة».

ويفرق هاس بين ما هو قانونى legal وبين ما هو مشروع legitimate والمشروعية عنده هى تقبل مجموعة الدول الرئيسية لقرار الحرب أو غيره من القرارات الهامة بغض النظر عما إذا كان الموضوع قانونياً... ولعل مثال إسرائيل وإيران هنا فى موضعه... فإثراء اليورانيوم أمر قانونى طبقاً لمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية ولكنه بالنسبة للغرب غير مشروع لأن الذى سيقوم به هى حكومة إيران التى لا يرضى عنها الغرب... فهو أمر قانونى ولكنه غير مشروع!!

ويختم هاس كتابه بفصل عنوانه «الضرورة»... ويقول أنه عنوان كان يمكن أن يكون بديلاً للعنوان الذى استخدمه وهو «الفرصة»... يقترح فى هذا الفصل ضرورة ان تعدل الولايات المتحدة من سياساتها القائمة على الانفرادية وان



هاس لا يمانع أن تقوم الولايات المتحدة بحروب وقائية أو مانعة... ولكنها لا يجب أن تكرر تجربة العراق... التى لم يكن هناك دليل على أنها تحوز أسلحة دمار شامل



تعمل بالتعاون مع القوى الرئيسية الأخرى فى العالم.

وبالرغم من أن هاس يحاول فى كتابه أن يوضح المزايا الكبرى التى تكمن فى أسلوب العمل الجماعى والتعاون كبديل عن أسلوب العمل المنفرد فإن الكتاب أيضاً يعكس الخوف من أن تفلت شئون العالم وتنحدر الإنسانية إلى مصير مظلم.. وهو يقول أنه مالم تقع تغيرات جوهرية فى السياسة الخارجية الأمريكية، فإنه سيكون من شبه المحتم أن نشهد العودة إلى عالم يقوم على سياسات توازن القوى، وستكون هذه القوى منشغلة إحداها بالأخرى بحيث لا يتسنى لها مجتمعة أن تتعامل مع المشاكل الناجمة عن العولمة ومن تزايد عدد الدول الصغرى والمتوسطة غير القادرة على مواجهة تحديات البقاء.

ومما يقلق هاس أن الولايات المتحدة مضغوطة عسكرياً overextended وأنها تعانى من عجز مالى فضلاً عن العجز المتزايد فى ميزانها التجارى. وذلك بالإضافة إلى أخطار الإرهاب واحتمالات وقوع أسلحة دمار شامل فى أيدى منظمات إرهابية ووجود آلاف الأسلحة النووية فى دول أخرى وخاصة فى روسيا فضلاً عن تهديدات نضوب مصادر الطاقة فى العالم... وفى كل ذلك يحوم خطر الصين فى الأفق.

وباختصار فإن الاحتمالات الثلاثة المطروحة هى التعاون أو التصادم أو الفوضى والانفلات.

ويعتقد هاس أنه لا توجد دولة واحدة أيا كانت قوتها قادرة على أن تتعامل وحدها مع التحديات عابرة القارات التى يعيشها العالم الآن... مثل هذه السياسة محكوم عليها بالفشل.. صحيح أن الولايات المتحدة لا تحتاج لإذن من أحد لكى تأخذ تصرفاً ما ولكنها تحتاج إلى دعم الآخرين حتى تنجح.. وكما أن العزلة Isolation ليست خياراً. فلا توجد دولة واحدة قادرة على أن تتفادى نتائج العولمة وأن تتعامل وحدها مع مشاكل عالم يقوم على الترابط والتشابك والاعتماد المتبادل.

وفى اعتقادى أن إدارة بوش الحالية وبعد أن اكتشفت الطريق المسدود الذى أوصلتها إليه سياسات المحافظين الجدد القائمة على الغرور والغطرسة والعمل الانفرادى، قد بدأت فى تعديل سياساتها بالفعل بأسلوب لا يظهر فيه التراجع أو فقدان ماء الوجه... وربما قد بدأت هذه السياسات المعدلة فى تحقيق بعض النجاح.. حيث يبدو أنه قد تم التوصل إلى اتفاق فى المحادثات السداسية التى تجرى فى الصين من أجل إقناع كوريا الشمالية بالتخلى عن أسلحتها النووية والعودة إلى معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية مقابل حصولها على ضمانات من الولايات المتحدة وقد لعبت الصين دوراً هاماً فى هذه المحادثات... كما تعمل الولايات المتحدة الآن بصورة أوثق مع أوروبا فى معالجة الملف الإيرانى كما كان هناك تعاون أوثق مع فرنسا فى الملف اللبنانى - السورى وهكذا...

ربما أيضاً جاء إعصار كاترينا كتذكير للولايات المتحدة بأنه لا توجد قوة لا تقهر فى هذه الدنيا..

والواقع أن هاس.. وهو أحد الذين عملوا مع جورج بوش الأب وجورج بوش الابن ولا يمكن أن يصفه أحد بأنه من الحمائم فهو محسوب فى النهاية على التيار الجمهورى... فإنه يقدم هذا الكتاب فى وقت تحتاج فيه أمريكا بالفعل إلى أن تسمع عن خطايا المحافظين الجدد الذين أدخلوها فى نفق العراق المظلم، وأن تسمع ذلك من شخص له مؤهلاته التى لاشك فيها كجمهورى مخلص.

مما يحسب للديمقراطية الأمريكية أنها تتيح بل وتشجع على وجود مثل هذا المناخ الحر الذى تتصارع فيه الآراء كما توجد فيه الآليات التى تسمح بتعديل المسار... والذى ربما كانت إدارة بوش الآن تعمل على تحقيقه بهدوء.

وفى الختام تبقى كلمة: لم تعد السياسات الأمريكية بحكم تأثيرها على العالم مجرد شأن أمريكى.. بل أصبحت شأناً عالمياً... وبالنسبة لنا فى عالمنا العربى أصبحت عاملاً مؤثراً سلبياً أو إيجابياً وإن كان الأغلب بالسلب... وهو ما يحتم علينا ليس فقط أن نتابع ما يجرى على الساحة الفكرية الأمريكية بل أن نعمل أيضاً على التأثير فيها... ولا ينبغى أن تشغلنا عن ذلك قضايانا الداخلية مهما ألحت علينا، خاصة أنه بالنسبة لمصر فإن تشابك الداخل مع الخارج هو من حقائق الحياة. ■

موسيقى وكتب وفن وثقافة في مكان واحد

شبكة المحمول الأولى في مصر وأكبر سلسلة منتجات ترفيه في العالم

موبينيل توقع اتفاقية تعاون مع سلسلة محلات

فيرجين ميجا ستور العالمية بمصر



المهندس عثمان سلطان المدير التنفيذى والعضو المنتدب لموبينيل والسيد جان كلود طرباية المدير الإقليمى لفيرجن ميجا ستور اثناء المؤتمر الصحفى

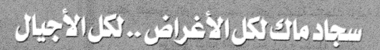
بدأت موبينيل شبكة المحمول الأولى في مصر التعاون مع سلسلة محلات فيرجين ميجا ستور في حدث شد أنظار جميع رواد سيتى ستار بمدينه نصر و في حضور كبار مسئولى الشركتين و عدد كبير من الصحفيين ورجال الإعلام تم توقيع عقد تعاون بين الشركتين الكبيرتين وقعه عن موبينيل الأستاذ/ عثمان سلطان العضو المنتدب للشركة و عن سلسلة فيرجين ميجا ستور السيد / جان كلود طرباية المدير الإقليمى لفيرجين ميجا ستور وسط توقعات مؤكده بأن الجانبين سوف يكمل كل منهما الآخر بحيث يكون الرابح النهائى هم العملاء الذين سوف يستمتعون بالفكر الجديد الذى تمثله محلات فيرجين ميجا ستور العالمية التى تمزج التسوق مع الترفيه مع الثقافة تحت سقف محل واحد يمتد على أكثر من 2200 متر مربع به العديد من الأقسام لبيع شرائط الكاسيت وأسطوانات الموسيقى وأسطوانات ال DVD والكتب والألكترونيات والتليفونات المحمولة والوسائط المتعدده ال Multimedia والألعاب وغيرها من تكنولوجيا الترفيه.

و بعد توقيع العقد أكد السيد عثمان سلطان أن هذا التعاون يأتى استجابة من موبينيل للإتجاه المتنامى منذ سنوات بحيث لا يقتصر المحمول على نقل الصوت بل ينتشر بصورة متزايده في مختلف مجالات الحياه اليومية.

و أوضح أنه ليس مصادفة أن رعاية الفن و الثقافة كانت و لا تزال أحد الأنشطه الرئيسية التى تحرص موبينيل على دعمها ورعايتها في إطار مسئوليتها الإجتماعية.

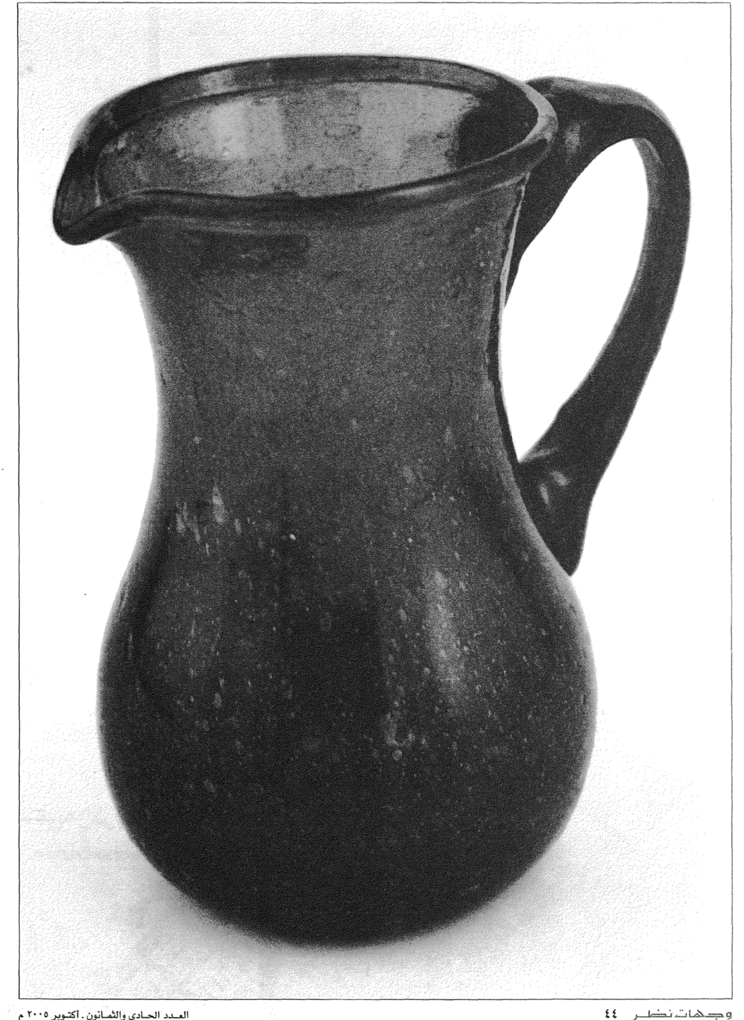
ومن ناحية أخرى عبر السيد / كلود طرباية المدير الإقليمى لفيرجين ميجا ستور عن سعادته ببدء عمل سلسلة فيرجين في مصر ، و أكد أن فيرجين سوف تفتح ثلاثة محلات على الأقل في القاهرة ومحل في الأسكندرية ومحل في شرم الشيخ.

و أعرب عن سروره بالتعاون مع موبينيل التى وصفها بأنها شركة رائده موضحا أن الجمهور هو أهم ماتحرص موبينيل على إرضائة و هو أيضا الأساس الذى ترتكز عليه سلسلة فيرجين في عملها.


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال



www.maccarpet.com
واجد في مراكز بيع بواقي التصدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
BIENVENUE



جبـل الجليد الغـــــارق

عــز الـــدين نجـــيب

■■ ثقافتنا مثل جبل الجليد العائم، لا يمثل الجزء المنظور منه غير الثُمن، والسبعة أثمان الباقية غارقة تحت الماء، وهذا الجزء المنظور مستعار فى أغلبه من الثقافة الأوروبية والعالمية على امتداد قرن واحد من الزمان، فيما يمتد عمر بقية الجبل الغارق سبعين قرنًا، وهى التى تشكل فى الحقيقة شخصية الشعب المصرى حتى اليوم فى جوهرها العميق.. من أسلوب حياة، ومزاج فنى، ونظرة إلى الوجود، وعلاقة بالغيب.

والفنون اليدوية المتوارثة (أو الحرف التقليدية) تمثل أهم عناصر هذا الجبل الثقافى الغارق، وباتت معرضة بشكل متسارع للتآكل والذوبان حتى أوشكت على الفناء، فى غياب أى قاعدة معرفية أو توثيق علمى تقوم به الدولة لأنماط هذه الحرف وخصائصها ودوافعها ورموزها، وربما نصحو ذات يوم - بعد جيل أو جيلين على الأكثر - لنكتشف أنها قد محيت تماماً من أرض الواقع ومن الذاكرة الثقافية على السواء!

من هنا تأتى أهمية الموسوعة التى تتبناها جمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة عن الحرف التقليدية فى مصر، وقد صدر مؤخراً الجزء الثانى منها بدعم من صندوق التنمية الثقافية، بعد أن قام بالبحث العلمى على امتداد عام تقريباً فريق من الخبراء البارزين والباحثين المتخصصين فى الفنون التراثية الشعبية، الذين غطت دراساتهم الميدانية جميع الأقاليم المصرية، فوق المادة العلمية المستخرجة من عشرات المراجع التاريخية عبر العصور، وخرجت الموسوعة فى مستوى طباعى يليق بمحتواها ورسالتها، وهى جهد مؤسسى تنوب فيه الجمعية عن وزارة الثقافة المنوط بها القيام بمثل هذا المشروع القومى.

موسوعة الحرف التقليدية فى مصر جمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة بالتعاون مع مؤسسة أغاخان للخدمات الثقافية

تصوير: مجدى أمين

أربع عائلات حرفية

تتركز دراسات هذا الجزء حول أربع عائلات حرفية وهى: الفخار وشقيقه الخزف، والزجاج بالنفخ وشقيقه الزجاج المعشق بالجص، والنسيج من كليم وسجاد وأقمشة، والأزياء الشعبية للنساء والرجال فى الريف والبادية والحضر.

وكان الجزء الأول قد صدر عام ٢٠٠٤ بنفس الأسلوب متضمناً أربع عائلات حرفية أخرى هى: النجارة العربية (وخاصة الخرط الخشبى)، والتطعيم بالأصداف والعظام، ومشغولات الخيامية، والحلى الشعبية، وأنجز ذلك الجزء بدعم مالى من مؤسسة أغاخان للخدمات الثقافية.

إن الثقافة المادية (وهو المصطلح الذى يطلقه علماء الفلكلور على الحرف اليدوية التقليدية) إبداع تشكيلى يلبى احتياجاً علمياً فى الحياة اليومية، لذا فهى ترتبط بمزاج الشعب وقيمه وعاداته وعقائده، ليستخدم فى المسكن والمشغل والملبس، فى المعيشة والعبادة والزينة، ملبية احتياجات الطقس والنفس على السواء، ومن ثم لا يمكن الفصل فيها بين ما هو نفعى وما هو جمالى، بين ما هو مادى وما هو معنوى، بهذا المعنى فهى تنبع من مخزون متراكم عبر آلاف السنين من الإبداع الحرفى التشكيلى، الذى بدأ منذ أن عرف الإنسان المصرى تشكيل الفخار ونسيج الثوب والبساط وبناء البيت ودار العبادة وزخرفتها، وإذابة الزجاج وتشكيله، والتعرف على المعادن وصياغتها، ورسم حروف اللغة المستمدة من عناصر الحياة والطبيعة.. ثقافتنا الممتدة منذ حضارة مصر القديمة هى - فى بنيتها الأساسية - ثقافة تشكيلية بصرية، كوعاء احتوى بداخله اللغة والتاريخ والأسطورة والمعتقد والفكر وأنماط الحياة والنظر فى الوجود والكون وفى شئون الدنيا كذلك، وجاءت الحضارات التالية - من قبطية وإسلامية، بل حتى عبر موجات الاستعمار الأجنبى لمصر - لتتراكم فيها طبقات الإبداع الحرفى، مستوعبة بداخلها ملامح الثقافات الوافدة، حتى باتت نسيجاً واحداً كثيف الخيوط.

منهج تحرير الموسوعة بنى فوق هذا الأساس، الذى يمثل عاموداً أخذ كل مساحة الباب الأول، تحت عنوان «وحدة الزمان والمكان والعقيدة»، كمرتكز ضرورى يجمع بين تاريخ كل حرفة وبيئتها الجغرافية وعقائدها الدينية والفلسفية كدوافع لوجودها واستمرارها، وأيضاً كثوابت حدودية تحيط بساحة الإبداع البشرى، وفى الأدوار العليا المتتابعة فوق ذلك العامود خصص باب لكل حرفة، وتم تقسيم كل باب إلى حجرات لبحث أوضاع الحرفة من الزوايا التالية: التعريف المرجعى للحرفة، تطورها التاريخى، أنماطها الفنية، الخامات والأدوات والآلات المستخدمة فيها، المراحل التقنية لإنتاجها، الركائز الثقافية التى تقوم عليها (بما تشمله من معتقد دينى أو سحرى أو معرفى)، الوظائف النفعية لكل منتج، العناصر الجمالية فى الطرز الحرفية (مع إرجاعها إلى أصولها فى الطبيعة أو فى المعتقد أو فى الأشكال الهندسية أو فى أنماط الحضارات الأخرى عبر الاحتكاك الثقافى معها)، كشاف بالمصطلحات المستخدمة فى الأدوات وفى التقنيات وفى المنتجات، بل حتى فى التعبيرات الاصطلاحية الدارجة على ألسنة الحرفيين أثناء العمل، جهود الإحياء والتطوير للحرفة (سواء الرسمية أو الأهلية)، أبرز الأسطوات والمعلمين فيها ماضياً وحاضراً، وأخيراً: التحديات التى تواجه استمرارها.

تاريخ الفخار والخزف

فى باب الفخار والخزف - الذى سنتخذ منه نموذجاً ودليلاً لفهم بنية هذا الكتاب - تميز الموسوعة بين الكلمتين المترادفتين على أنهما شئ واحد، فتوضح



أن الأولى هى صناعة الأوانى الفخارية المفرغة، ومادتها هى طمى الأنهار أو تراب الطفلة بعد أن يضاف إليهما الماء، وتشكل العجينة يدوياً على القرص الدوار (الدولاب) ثم تجفف تحت الشمس وتحرق فى الفرن. أما الخزف فهو نفس المنتج الذى تم حرقه (على أن تكون قد استبعدت منه الشوائب الضارة وأضيفت إليه مواد معينة مساعدة) ثم يتم تكوينه وزخرفته. بعد الحرقة الأولى. بطلاء زجاجى هو الجليز ثم يحرق ثانية. ويتقصى البحث مختلف التعريفات فى معاجم اللغة العربية مثل المعجم الوجيز والمصباح المنير.

وينتقل بنا هذا الباب إلى التطور التاريخى للحرفة، لنصل فى العمق إلى عصر المعادن الذى سبق بداية التاريخ، متكاملة مع غيرها من الحرف، ويقارن بين فخار البدارى - الذى تميز بالحافة السوداء للآنية - وبين الفخار الأحمر ذى الرقبة الضيقة والقعر المستوى، وبين الفخار المزخرف الذى يصنع من عجينة نقية صافية اللون ويمتاز بفلطحة وسطه واستواء حافته وقصر رقبته وزخرفته بخطوط بنفسجية شديدة السمرة وبعناصر مأخوذة من الأشجار والحيوانات والطيور وتموج المياه، وهكذا ينتقل البحث بين العصور والأقاليم المختلفة إلى عهد إخناتون ومدينته «أخيتاتون» التى حفلت بمصانع للحرف المختلفة مثل الزجاج الملون، ثم إلى العهد البطلمى والرومانى فالقبطى الذى تأثر بكل ما سبق، إلى جانب ظهور الحس العقائدى المسيحى والطابع الشرقى الذى ساد ثقافة مصر بعد تغلغل السمات الهللينية، لينتقل من هذا كله إلى العصر الإسلامى الذى شهد المزيد من أوجه الإبداع الفنى ومن التطوير للخامات والزخارف الخارجية، ويركز هذا العرض التاريخى على أنماط الفخار والخزف فى سامراء والمدائن والرى وسوس ونيسابور والفسطاط، وكيف منحت شهرة واسعة لكل من الخزف الإيرانى والعراقى والمصرى، حيث كانت مدينة الفسطاط ملتقى ومحكاً حضارياً رائعاً بين الحضارات..

وهكذا يتجول بنا البحث بين العصور الإسلامية المتتالية، من الفاطمى إلى المملوكى فالعثمانى، وصولاً إلى مواقع الإنتاج فى العصر الحديث عبر أقاليم مصر من أقصاها إلى أقصاها.

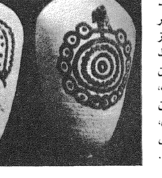
وبعد أن يستعرض الخامات والمواد المستخدمة فى الفخار والخزف، بمكوناتها الطبيعية والكيماوية فى الطينات والطلاءات والأكاسيد التى تنتج ألواناً مختلفة، يتجه إلى الأدوات بدءاً من القرص الدوار (الدولاب) والأحواض والمصافى والأفران وأنواع الوقود والحريق بدرجاته، ثم ينطلق إلى شرح المراحل التقنية للعمل، بدءاً من كيفية الحصول على الخامات والأدوات، وانتهاء بخروج المنتج النهائى، مروراً بثلاث عشرة مرحلة متعاقبة فى العمل، حتى ليمكن للقارئ الذى يهوى هذه الحرفة أن يتعلم أصولها النظرية كى يكون قادراً على ممارستها بنفسه.

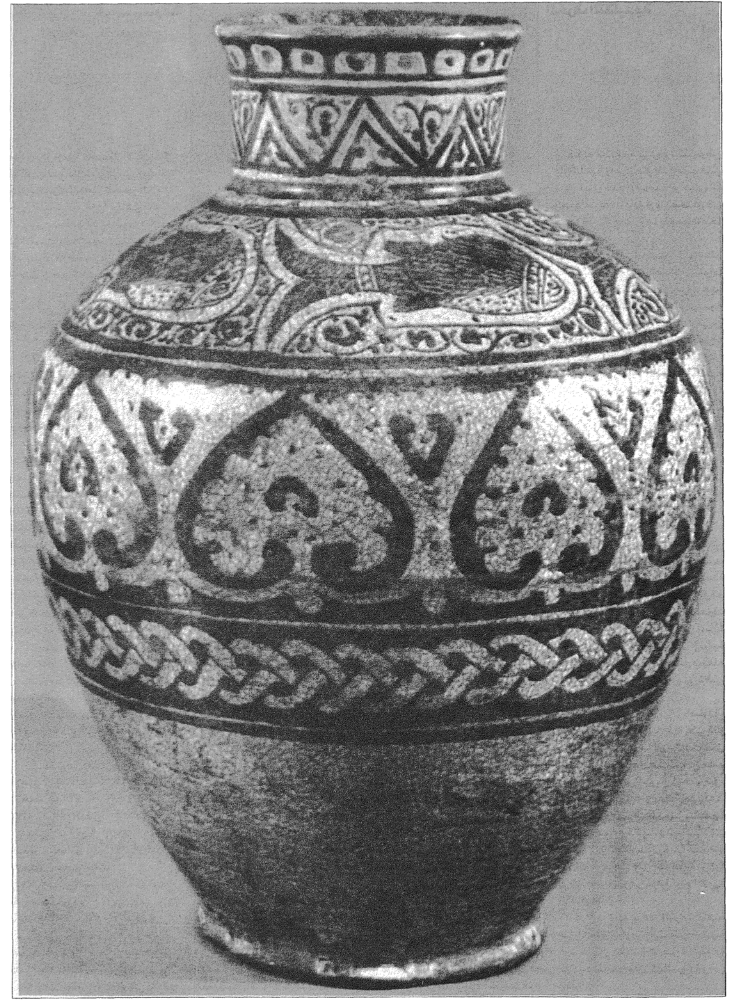
توثيق المعتقدات والمصطلحات والتصميمات:

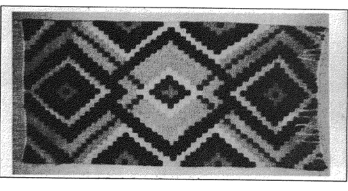
ويتعقب البحث جذور المعتقدات الدينية والشعبية والوظائف النفعية المختلفة لمنتجات الفخار والخزف، بدءاً من الشعائر الجنائزية للمصرى القديم حيث تضم أحشاءه وأشياءه فى رحلة الخلود والبعث، إلى الأغراض العملية الملازمة لحياة الإنسان اليومية فى كل عصر، ثم يستعرض أنماطها وأشكالها الجمالية وما تشتمل عليه كل آنية أو قطعة فخارية أو خزفية من قيم وأساليب فنية، وهنا نتعرف على ما يزيد على عشرات الأنماط أغلبها ما يزال مستعملاً ومستمراً فى إنتاجه عبر مناطق مصر المختلفة مثل الفسطاط والجيزة والغربية والفيوم وأسيوط وقنا والوادى الجديد، متنوعة بين أوانى الحفظ والتخزين وأوانى الشرب وأوانى الطهو والطعام وأوانى اللبن والعجين وأوانى الزهور والزراعة وأدوات الطبول والإنارة والتدفئة والتدخين والبلاطات وأخيراً اللعب والتماثيل.

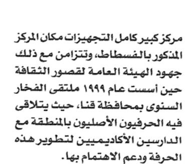
ويشير البحث إلى التصميمات الفنية لزخارف الأوانى والصحاف والزهريات، ثم يستعرض الأشكال الهندسية والرموز السحرية والعادات الشعبية المتصلة بهذه التصميمات وذلك فى كل عصر وكل إقليم على حدة، ثم يلقى الضوء على أعلام الحرفة الموجودين الآن فى كل منطقة وعلى معلميهم الراحلين أيضاً، ويعدون بالمئات، ومن فرط خصوصيتها الإقليمية واقتصار استخدامها على أبناء الحرفة تبدو لنا أحياناً وكأنها لغة خاصة غير معروفة، وهو ما ينذر باندثار هذه المصطلحات ما لم تسجل فى مثل هذه الموسوعة. وأخيراً ينوه البحث عن جهود الإحياء والتطوير لحرفة الفخار والخزف من جانب الدولة أو الأفراد قديماً وحديثاً، بدءاً من مصنع السيدة هدى شعراوى بالقاهرة فى الثلاثينيات من القرن الماضى، وإنشاء قسم الخزف بكلية الفنون التطبيقية على يد الرائد سعيد الصدر فى الثلاثينيات أيضاً، ثم جهود وزارة الثقافة فى إنشاء قسم للتدريب بوكالة الغورى بالأزهر عام ١٩٥٨ ضمن خطة شاملة للنهوض بالحرف التقليدية جميعاً بقيادة الوزير ثروت عكاشة، وكيف تطور هذا القسم الصغير إلى مركز للخزف بمنطقة الفسطاط عام ١٩٥٩ تحت إشراف سعيد الصدر بإمكانيات متواضعة، وكيف مزج فى منهج تدريبه للصبية بين تلقائية الحرفيين فى المنطقة التاريخية وبين الخبرات الأكاديمية بكلية الفنون التطبيقية،

إلى أن افتتح عام ٢٠٠١









مركز كبير كامل التجهيزات مكان المركز المذكور بالفسطاط، وتتزامن مع ذلك جهود الهيئة العامة لقصور الثقافة حين أسست عام ١٩٩٩ ملتقى الفخار السنوى بمحافظة قنا، حيث يتلاقى فيه الحرفيون الأصليون بالمنطقة مع الدارسين الأكاديميين لتطوير هذه الحرفة ودعم الاهتمام بها.



التحديات والطريق للنهضة:

لقد استعرضنا باب الفخار والخزف ليكون - كما ذكرنا - نموذجًا لبقية أبواب الجزء الثانى من الموسوعة الذى تبلغ صفحاته المائتين، حيث نجد المنهج والأسلوب المتبعين فيه يطبقان على الحرف الثلاث الأخرى (الزجاج، النسيج، الأزياء)، ونظرًا لأن مثل هذا العمل يعتمد على التفاصيل الدقيقة التى لا تغنى عنها الخطوط العريضة فى هذا العرض للكتاب، مع عدم توفر المساحة اللازمة لعرض الأبواب التالية هنا بنفس التفاصيل، فإننا نكتفى الآن بعرض النتائج والتوصيات العامة التى انتهى إليها الباحثون فى الحرف الأربعة، بل فى الحرف عامة، للنهوض بها وتطويرها.. على النحو التالى:

١ - تعد الحرف التقليدية مصدرًا هامًا للثروة القومية.

٢ - تزدهر الحرف كلما كانت تحت مظلة نظام أو مشروع قومى، يكون ركيزة للحفاظ على الهوية الثقافية والوطنية فى مواجهة المتغيرات العالمية.

٣ - التوهج الحرفى يزيد من الأمان الاجتماعى نتيجة الاستقرار الاقتصادى لأفراد الأسرة الحرفية وإتاحة فرص العمل.

٤ - يهبط الخط البيانى للحرف كلما خرجت من دائرة اهتمام الدولة، والعكس صحيح أيضًا.

٥ - كلما كانت الحرفة مرتبطة بتراث الأمة كلما تفردت وأصبحت سلعة قابلة للتداول مع الآخر.

٦ - كلما زادت ثقافة الحرفى ومعرفته بتاريخ حرفته ومتغيراتها كلما أجاد فيها.

٧ - كلما ارتفع الإبداع فى المنتج الحرفى كلما ازداد تواصلاً مع الذائقة الجمالية والعقائدية للمستهلك.

لكن هل تسير الأمور الآن فى اتجاه هذه المنطلقات؟

يبدو أن العكس تمامًا هو الصحيح، فما نراه هو أن الدولة تفك ارتباطها تدريجيًا مع الحرف التقليدية (ومع التراث الشعبى عامة) فى المراكز القليلة التابعة لوزارة الثقافة، حتى بات كل منها أثرًا بعد عين!).. أو مجرد حواصل (مخازن) لقدامى الموظفين أو لتعيين بعض القوى العاملة حلاً لمشكلة إدارية وليس لمشكلة ثقافية، بل إنها منذ عدة عقود أصبحت مطاردة بقرارات الإخلاء من أماكنها، محرومة من مقومات الحياة والنمو، مثل وضع السياسات (الاستراتيجية) للتطوير فى مجالات التدريب والإنتاج والبحث العلمى والتأصيل للمقتنيات المتحفية والتواصل مع المجتمع وتسويق المنتجات، وما يقتضيه كل ذلك من طاقات بشرية وخبرات علمية واعتمادات مالية وأماكن مناسبة.. باختصار: أن تكون فقرة أساسية على خريطة العمل الثقافى والتخطيط الاستراتيجى للدولة، وهو ما نفتقده حقيقة!

إن أقاليم مصر جميعًا لا تخلو من أعداد هائلة من العاملين فى عشرات الحرف، حتى أن هناك قرى بأكملها متخصصة فى إنتاج حرفة معينة، ومع ذلك فلا يوجد لدينا حتى الآن جهاز قومى على مستوى الجمهورية لربطهم فى منظومة تنقذهم من الضياع والانقراض الوشيك، خاصة فى ظل المتغيرات الكاسحة لملامح الهوية الثقافية، وفى غياب قاعدة بيانات دقيقة عن عددهم وتخصصاتهم وأماكنهم ونظم تدريبهم وإنتاجهم ونوعياته.. ومن ثم فإننا لو افترضنا وجود صاحب قرار يتطلع لبناء مشروع للنهوض بأوضاعهم واستثمار إنتاجهم فلن يجد مثل هذه القاعدة أو حتى ما يحدد حركة الزيادة أو النقصان فى عددهم وإنتاجهم، أو ما يقيم برنامجًا للتنمية!

وبالرغم من الجهود المتواصلة لجمعية أصالة على امتداد السنوات العشر الماضية لسد هذا الفراغ، عبر التوثيق وإقامة الدورات التدريبية وتخريج أفواج جديدة من الحرفيين وتعبيد الطرق للتواصل بين الحرف والمجتمع من خلال المعارض والمهرجانات، فإن القضية أضخم بكثير من إمكانات جمعية أهلية، لأنها تتجاوز الأبعاد الثقافية إلى صعيد التنمية الاقتصادية والاجتماعية، حتى تصبح الحرف على رأس الاستثمارات التى تحقق دخلاً قوميًا، صحيح أن هناك أفرادًا معدودين من القطاع الخاص يعملون فى هذا المجال، لكن منتجهم مكرس أساسًا لإشباع احتياج الأثرياء فى مصر أو دول النفط بعيدًا عن عامة الشعب، وهو صاحب هذا الإبداع ومستحقه، بل ويمكن أن يكون الشعب قاعدة استهلاك رئيسية لهذا الإنتاج لو تم التخطيط لذلك، ويكفى أن نتعرف على تجارب دول عديدة فى آسيا وأوروبا وأفريقيا وبعض الدول العربية وعلى ما تحقق من عائد هائل يجعله فى متناول أبنائها وضرورة فى حياتهم.

ومن المؤسف القول أن «أصالة» التى تحملت تلك المسئولية على قدر طاقتها وعلى قدر ما استطاعت بشق النفس الحصول عليه من دعم محدود بين وقت وآخر، أصبحت اليوم شبه عاجزة عن مواصلة جهودها، بسبب عدم اكتراث الدولة بدعمها لتنفيذ مشروعاتها، فيما تنشغل الجهات المانحة الدولية «بأجندات» مختلفة يصعب على أصالة اختراقها أو الإذعان لها وهى ترفع لواء الهوية الثقافية!

فمن يأخذ بيد هذا التراث لينقذه من الغرق؟.. ومن يتبنى قضية استكمال بقية الأجزاء السبعة لهذه الموسوعة.. كمشروع قومى رائد؟ ■





اللغة

أخطر من أن تترك للغويين وحدهم

فـــــاروق شـــوشــة

■■ عندما أصدر الأستاذ شريف الشوباشى كتابه المثير: «لتحيا اللغة العربية.. يسقط سيبويه (عام ٢٠٠٤) عن الهيئة المصرية العامة للكتاب»، كان بمثابة من ألقى حجرًا فى مستنقع. وإن هى إلا أيام معدودة حتى كان الكتاب حديث المجتمع الثقافى واللغوى، وكان انقسام الناس فى ردود الفعل المتوقعة وغير المتوقعة إلى مجموعتين، إحداهما تهاجم الكتاب وصاحبه بعنف وضراوة، بل وتعتبره عملاً تخريبيًا قصد به صاحبه هدم اللغة، لغة القرآن، وتحطيم الثقافة العربية باعتبار أن اللغة العربية وعاؤها، وأن مثل هذا الكتاب يمضى فى فلك العولمة ومناصريها، الذين يهدفون إلى القضاء على الهويات المختلفة، وتحطيم الكيانات الإقليمية فى اللغة والثقافة، ومهاجمة كل ما هو مقدس - من وجهة نظر هذا الفريق. والخروج على المألوف. وكانت هذه المجموعة - بالطبع - التى نجحت فى استنفار كتاب وأساتذة جامعة ومجمعيين وباحثين - غير مصنفين - هى الأعلى صوتًا والأشد تأثيرًا.

المجموعة الثانية تحمست للكتاب بلا تحفظ. وسارعت إلى إعلان رضائها عنه، أخشى أن أقول بدون قراءة متعمقة وتأمل نافذ - وهو الأمر الذى حدث للمجموعة الأولى التى تسامع معظمها بالكتاب وما جاء فيه، لكنهم سارعوا إلى الهجوم حتى من قبل أن يقرأوا وأن يعرفوا. الأمر الذى أدى إلى أن يكون الغاضبون المهاجمون - عن وعى أو بصيرة. والمتحمسون المادحون - من غير التفات إلى منهج الكتاب والنتائج التى يمكن أن يؤدى إليها مثل هذا الطرح لقضايا لغوية - أن يكونوا جميعًا فى خندق واحد، هو خندق الانفعال غير المبرر، وأقصى درجات الانحراف تبنى الطرف الأقصى، رفضًا أو قبولاً.

وبقيت الحقيقة بين هؤلاء وهؤلاء غائبة ومضيعة. فالكتاب ظلم فى حقيقة الأمر نتيجة لهذين الموقفين المتباعدين حتى الحد الأقصى. ولم يحقق بالتالى رسالته التى قصد إليها كاتبه ومؤلفه. وهو فى جوهره وبالرغم مما أثير فى وجهه من غبار. كاتب جاد، صاحب رأى، يجب علينا مناقشته واحترامه حتى لو اختلفنا معه أشد الاختلاف.

من هنا كان اهتمامى بسرعة الكتابة عن الكتاب فى سياق ما أكتبه على صفحات الأهرام. كل أسبوع - موضحًا - منذ السطر الأول. أن المناداة بأن تحيا اللغة العربية أمر واجب ومشروع ومُرحب به، بل هو شعار يجب أن يرفعه كل متكلم بهذه اللغة، من أجل المحافظة عليها، والعمل على تطويرها، وجعلها قادرة على الوفاء باحتياجات الحاضر ومطالب العصر. أما المناداة بسقوط سيبويه فهو الأمر الذى اختلفت فيه اختلافًا كبيرًا مع الكاتب والمبدع والمثقف الأستاذ شريف الشوباشى. فالمناداة بسقوط سيبويه معناها الوحيد الدعوة إلى هدم النظام التركيبى والبنيوى الذى تقوم عليه اللغة العربية وما يحكم متنها من علاقات، وبدونه لا يكون ثمة نظام لغوى، ولا لأى كلام معنى أو دلالة، ولا أظن أنه سيجىء يوم يصبح فيه الفاعل منصوبًا - وهو مرفوع منذ أكثر من سبعة عشر قرنًا - أو المفعول به مرفوعًا أو يتغير فيه إعراب اسم كان وأخواتها أو خبر إن وأخواتها، على سبيل المثال.

فرق كبير إذن بين الدعوة إلى سقوط سيبويه وهدم نظام العربية بالتالى، والدعوة إلى تيسير النحو للدارسين، ووضع المعاجم العصرية - الكفيلة باستيعاب المادة اللغوية العصرية التى طرأت على متن اللغة فى عصور ما بعد الاستشهاد - أى بعد القرنين الأول والثانى الهجريين - وعمل جمع جديد لهذه اللغة - على غرار ما صنعه الخليل ابن أحمد عندما فكر فى وضع أول معجم عربى وهو معجم «العين» بحيث يكون هذا الجمع الجديد أساسًا لتضمين الذخيرة اللغوية فى معجم جديد، لا يكون مجرد امتداد للمعاجم القديمة، وعالة عليها، وتكرارًا لكثير من مادتها التى لم يعد لها صلة بالحياة المعاصرة، وأصبحت تندرج تحت الحوشى والغريب والمهجور من الكلام. فرق كبير جدًا بين الأمرين. وهو فرق لم يغب تمامًا عن الأستاذ شريف الشوباشى عندما أشار فى أكثر من موضع فى كتابه إلى أننا نكتب الآن ونستخدم لغة تختلف كثيرًا عن لغة القدماء، وهى ملاحظة صحيحة، أساسها أننا نستعمل الآن لغة تختلف فى معجمها من المفردات والتعابير وفى هندسة التركيب عن اللغة التى استعملها السابقون. وإذا كانت اللغة القديمة تسمى لغة التراث أو اللغة التراثية، فإن لغتنا هذه الأيام تسمى فصحى العصر أو الفصحى العصرية كما نبه عالم الدراسات اللغوية الدكتور السعيد بدوى فى كتابه الرائد: مستويات العربية المعاصرة فى مصر.

ولم يفتنى - وقتها - أن أشير إلى أن كثيرًا من صور التخلف والتراجع التى جمعها وسجلها الأستاذ شريف الشوباشى فى كتابه، تنطبق على صاحب هذه اللغة - وهو نحن - بأكثر مما تنطبق على اللغة ذاتها. العيب فينا نحن أولاً وأخيرًا. ونحن لم نتعلمها بالصورة التى تقيم بيننا وبينها جسرًا من المحبة والانتماء. فقد شاركت عناصر شتى فى هشاشة علاقتنا مع اللغة، وبخاصة أنها ليست لغتنا الأولى، وإنما هى. فى واقع الأمر وحقيقته. لغتنا الثانية، التى لابد من تعلمها لإجادتها.

يبقى لكتاب شريف الشوباشى فضل تحريك المستنقع وخلق حالة من الإثارة الساخنة، رفضًا وقبولاً حول عدد من القضايا والموضوعات يتصل بعضها بسؤال: هل العربية لغة مقدسة، وبعضها الآخر بنظام «المثنى» وما يترتب عليه من قواعد إعرابية، ونون النسوة وجمع التأنيث، والمترادفات والازدواجية بين اللغة الواحدة واللهجات المتعددة، و«العدد»، وأحكامه وهى جميعًا قضايا متصلة بعلم النحو لا بعلم اللغة. وهذا هو التوجه غير الصائب فى المنهج والتناول، فكثير ممن كتبوا عن أهمية التطوير والتيسير والعصرية جانبهم الصواب حين اعتبروا أن النحو هو اللغة والنحو ليس إلا جانبًا واحدًا من جوانبها، فحين نتكلم عن العصرية فنحن نتحدث عن «علم الأسلوب»، وعن البنية التركيبية وعن علوم الدلالة وعن المعجم اللغوى، لا عن الفاعل والمفعول والجمل الاسمية والفعلية والمعرب والمبنى والعدد والتمييز.



وموقف شريف الشوباشى هو تكرار لموقف السابقين عليه من علماء اللغة، الذين قصدوا إلى إحياء اللغة فقادتهم خطاهم ومناهجهم إلى إحياء النحو كما فعل إبراهيم مصطفى فى كتابه «إحياء النحو» الصادر ضمن مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧. يقول الدكتور طه حسين فى تقديمه لهذا الكتاب واعيًا بخطورته عارفًا بما سوف يثيره من جدل وخصومة: «هذا كتاب سيراه الناس جديدًا، وما أرى أنهم سيتلقونه بما تعودوا أن يتلقوا به الكتب من الدعة والهدوء، وما احسبنى أخطئ أن قدرت أنهم سيدهشون له، وأن كثيرًا منهم سيضيقون به، وقد يتجاوزون الضيق إلى الخصومة العنيفة والإنكار الشديد لأن الكتاب جديد كما قلت، فى أصله وفى



صورته، وهو من أجل ذلك يخالف كثيراً جداً مما ألف الناس، وقد يغير كثيراً جداً مما ألف الناس، فلا غرابة فى أن يلقوه بالدهشة، وفى أن يثور به الثائرون». ثم يقول طه حسين شارحاً ما كان يدور بينه وبين صديقه عالم النحو إبراهيم مصطفى فى حوارات حول النحو وما كانا يتفقان فيه وعليه من قضاياه ووسائل علاجها وطرق الحديث فيها، قائلاً: «وكان النحو أشد موضوعات الحديث خطراً، وأكثرها جرياناً فيما يكون بيننا من حوار. ضقنا بأصوله القديمة منذ عهد الأزهر، وأخذنا ننكر هذه الأصول أيام الجامعة القديمة، وأخذنا نلتمس له أصولاً جديدة منذ التقينا فى الجامعة الجديدة».

والناس ـ بعد ـ يضيقون بالنحو ويتبرمون بحديثه، فما بالك برجل قد أصبح يضيق بكل شىء لا يتصل بالنحو ويتبرم بكل حديث لا يمس النحو من قريب أو بعيد، حتى سميناه فيما بيننا بالقراء «يقصد إبراهيم مصطفى». ثم يقول طه حسين شارحاً فكرته هو ونظرته الخاصة إلى قضية إحياء النحو، مدلياً بدلوه فيها. وهو يعلم أنه ليس من علماء النحو أو أساتذته الكبار من أمثال إبراهيم مصطفى، لكنه فى رأيه يمثل الذوق الأدبى والتكوين الثقافى العربى الموسوعى الذى يرى قضية النحو فى منظور أرحب وأفسح وأفق أكثر اتساعاً، ذلك أن عينه على الأدب، أى الإبداع، أكثر من أن تكون عينه على النحو فى ذاته، الذى لا يرى فيه إلا عُدة ووسيلة لغاية أبعد وأعظم. يقول طه حسين: «وأنا أتصور إحياء النحو على وجهين، أحدهما أن يقر به النحويون من العقل الحديث ليفهمه ويسيغه ويتمثله، ويجرى عليه تفكيره إذا فكر، ولسانه إذا تكلم، وقلمه إذا كتب. والآخر أن تشيع فيه هذه القوة التى تحبب إلى النفوس درسه ومناقشة مسائله والجدال فى أصوله وفروعه، وتضطر الناس إلى أن يعنوا به بعد أن أهملوه، ويخوضوا فيه بعد أن أعرضوا عنه.

وأشهد لقد وفق إبراهيم إلى إحياء النحو على هذين الوجهين، فانظر فى هذا الكتاب، فسترى أن إبراهيم لا يعرض عليك علماً ميتاً، وإنما يعرض عليك علماً حياً، يبعث الحياة فى الذوق، ثم سترى أن إبراهيم لا يعرض عليك مسائل جامدة هامدة، ولكنه يفتح للنحويين طريقاً إن سلكوها فلن يحيوا النحو وحده، ولكنهم سيحيون معه الأدب العربى أيضاً.

فالكتاب ـ كما ترى ـ يحيى النحو لأنه يصلحه، ويحيى النحو لأنه يُنبه إليه من اطمأنوا إلى الغفلة عنه، وحسبك بهذا إحياء.

لقد حرصت على نقل هذه السطور من المقدمة التى كتبها طه حسين لكتاب إبراهيم مصطفى، لأن فيها كشفاً عن فكر طه حسين نفسه وموقفه من القضية. وحتى يدخل طه حسين فى سياق هذه المحاولات المستمرة والمتتابعة ـ التى هالها واقع اللغة العربية على ألسنة الناس وأقلامهم وعزوف الدارسين من تلاميذ المدارس وطلاب الجامعة عن الدرس النحوى. فأراد أصحابها تقديم الرأى والفكر وفتح باب الاجتهاد فى قضية ما تزال شاغلة لنا حتى اليوم.



المناداة بسقوط سيبويه معناها الوحيد الدعوة إلى هدم النظام التركيبى والبنيوى الذى تقوم عليه اللغة العربية وما يحكم متنها من علاقات، وبدونه لا يكون ثمة نظام لغوى، ولا لأى كلام معنى أو دلالة



ولأن ما أثاره إبراهيم مصطفى فى كتابه «إحياء النحو» يُعد فى نظر معظم الباحثين ـ نقطة البداية الحقيقية فى سياق البحث العلمى لقضية النحو فى عصرنا الحديث. فلابد من عرض فكر المؤلف ومنهجه ومجالات اهتمامه، بدءاً بقوله عن نفسه: «اتصلت بدراسة النحو فى كل معاهده التى يدرس فيها فى مصر، وكان اتصالاً طويلاً وثيقاً، ورأيت عارضة واحدة لا يكاد يختص بها معهد دون معهد، ولا تمتاز بها دراسة عن دراسة، هو التبرم بالنحو والضجر بقواعده، وضيق الصدر بتحصيله. على أن ذلك من داء النحو قديماً، ولأجله ألف التسهيل والتوضيح والتقريب، واصطنع النظم لحفظ ضوابطه وتقييد شوارده.

والنحو مع هذا لا يعطيك عند المشكلة القول البات والحكم الفاصل، قد يهدى فى سهل القول، من رفع فاعل ونصب مفعول. فإذا عرض أسلوب جديد أو موضع دقيق، لم يسعفك النحو بالقول الفصل واختلاف الأقوال، واضطراب الآراء، وكثرة الجدل التى لا تنتهى إلى فيصل ولا حكم، كل ذلك قد أفسد النحو أو كاد، فلم يكن الميزان الصالح لتقدير الكلام، وتمييز صحيح النحو من فاسده.

ثم يقول إبراهيم مصطفى: «ولقد بذل فى تهوين النحو جهود مجيدة، واصطنعت أصول التعليم اصطناعاً بارعاً، ليكون قريباً واضحاً، على أنه لم يتجه أحد إلى القواعد نفسها. وإلى طريقة وصفها فيسأل: ألا يمكن أن تكون تلك الصعوبة من ناحية وضع النحو وتدوين قواعده وأن يكون الدواء فى تبديل منهج البحث النحوى للغة العربية.

هذا السؤال هو الذى بدا لى وهو الذى شغلنى جوابه طويلاً.

ولقد تميز عندى نوعان من القواعد: نوع لا تجد فى تعليمه عسراً، لا فى التزامه عناء، ولا ترى خلاف النحاة فيه كبيراً. وذلك كالعدد ورعاية أحكامه فى مثل: قال رجلان، والرجلان قالا. وقال رجال، والرجال قالوا. فمع دقة الحكم فى رعاية العدد، واختلافه تبعاً لموضع الاسم والفعل من الجملة، لا تجد العناء فى تصوره، ولا الزلة فى استعماله. ونوع آخر لا يسهل درسه ولا يؤمن الزلل فيه، وقد يكثر عنده خلاف النحاة، ويشتد جدلهم. كرفع الاسم أو نصبه، فى مواضع من الكلام.

أما علامات الإعراب فقل أن ترى لاختلافها أثراً فى تصوير المعنى، وقل أن يُشعرنا النحاة بفرق بين أن تنصب أو ترفع. ولو أنه تبع هذا التبديل فى الإعراب تبديل فى المعنى، لكان ذلك هو الحكم بين النحاة فيما اختلفوا فيه، وكان هو الهادى للمتكلم أن يتبع فى كلامه وجهاً من الإعراب.

فلو أن حركات الإعراب كانت دوال على شىء فى الكلام، وكان لها أثر فى تصوير المعنى، يحسه المتكلم، ويدرك ما فيه من الإشارة ومن وجه الدلالة، لما كان الإعراب موضع هذا الخلاف بين النحاة، ولا كان تعلمه بهذه المكانة من الصعوبة، وزواله بتلك المنزلة من السرعة.

ألهذه العلامات الإعرابية معانٍ تشير إليها فى القول؟ أتصور شيئاً مما فى نفس المتكلم وتؤدى به إلى ذهن السامع؟ وما هذه المعانى؟

والعربية ـ لغة القصد والإيجاز ـ أتلتزم علامات الإعراب على غير فائدة فى المعنى، ولا أثر فى تصويره؟ ثم يقول إبراهيم مصطفى: لقد أطلت تتبع الكلام، أبحث عن معانٍ لهذه العلامات الإعرابية، ولقد هدانى الله ـ وله خالص الإخبات والشكر ـ إلى شىء أراه قريباً واضحاً، وأبادر إليك الآن بتلخيصه:

١ ـ إن الرفع علم الإسناد، ودليل أن الكلمة يتحدث عنها.

٢ ـ إن الجر علم الإضافة، سواء أكانت بحرف أم بغير حرف.

٣ ـ إن الفتحة ليست بعلم على إعراب، ولكنها الحركة الخفيفة المستحبة، التى يحب العرب أن يختموا بها كلماتهم، ما لم يلفتهم عنها لافت، فهى بمنزلة السكون فى لغتنا الدارجة.

٤ ـ إن علامات الإعراب فى الاسم لا تخرج عن هذا إلا فى بناء أو نوع من الاتباع.

فهذا جماع أحكام الإعراب. ولقد تتبعت أبواب النحو باباً باباً، واعتبرتها بهذا الأصل القريب اليسير، فصح أمره واطرد فيها حكمه.

ثم زدت فى تتبع هذا الأصل، فتجاوزت حركات الإعراب، ودرست التنوين على أنه منبئ عن معنى فى الكلام، فصح لى واستقام، وبدلت قواعد



«مالا ينصرف»، ووضعت للباب أصولاً أيسر وأنفذ فى العربية مما رسم النحاة للباب، ولا أؤجل عنك إجمال هذه الأصول أيضاً:

١ - إن التنوين علم التنكير.

٢ - لك فى كل عَلَم ألا تنونه. وإنما تلحقه التنوين إذا كان فيه حظ فى التنكير.

٣ - لا تُحرمُ الصفة التنوين، حتى يكون لها حظ من التعريف.

أما أبواب الكتاب فهى:

١ - الضمة علم الإسناد.

٢ - الكسرة علم الإضافة.

٣ - الفتحة ليست علامة إعراب.

٤ - الأصل فى المبنى أن يسكنا.

المتتبع لما صنعه إبراهيم مصطفى فى كتابه الرائد «إحياء النحو» يرى بين ثنايا السطور ومضة كادت تكشف له النهج القديم فى طريقه لو أنه أدارها على جوانبها المختلفة وتأملها ملياً وهى قوله فى كتابه: «والنحو مع هذا لا يعطيك عند المشكلة القول البات والحكم الفاصل؛ قد يهدى فى سهل القول من رفع فاعل ونصب مفعول. فإذا عرض أسلوب جديد أو موضع دقيق لم يسعفك النحو بالقول الفصل، واختلاف الأقوال، واضطراب الآراء وكثرة الجدل.. إلخ.

فى هذه الكلمات، كان إبراهيم مصطفى لغوياً لا نحوياً، وأوشك أن يكون تناوله لموضوعه تناولاً كلياً لا جزئياً، الحديث فيه عن لغة بكليتها لا عن نحو بجزئيته، لكن طبيعته كعالم نحو وأستاذ دراسات نحوية سرعان ما غلبته على أمره وقادته فى طريق آخر.

هذا الطريق الآخر هو الذى مضى فيه عالم الدراسات الأدبية واللغوية الدكتور شوقى ضيف فى كتابيه: «تجديد النحو وتيسير النحو التعليمى قديماً وحديثاً». وقد ساقه إلى الاهتمام بالموضوع تحقيقه لكتاب «الرد على النحاة لابن مضاء القرطبى» ونشره عام ١٩٤٧. يشير شوقى ضيف إلى الدعوة القديمة - منذ الثلاثينيات - إلى تيسير النحو وتخليصه مما فيه من تعقيد وعسر شديد. وإلى تأليف لجنة وزارة المعارف (وزارة التعليم الآن) عهد إليها بكتابة تقرير مسهب ضمنته مقترحاتها للتيسير المنشود، ودرس مجمع اللغة العربية فى مؤتمره عام ١٩٤٥ هذه المقترحات وأدخل عليها بعض التعديلات، وألفت - بعد قيام الثورة - كتب النحو التعليمى على ضوء صورة التيسير التى أقرها المجمع، لكن لم يكتب لها النجاح.

وما دام قد جاء ذكر المجمع - فى كلام الدكتور شوقى ضيف - فلابد من الإشارة إلى مرسوم إنشاء المجمع والمادة الثانية من قانون تنظيمه، التى تحدد الغرض من إنشائه (صدر القانون عام ١٩٣٢ وتم افتتاح المجمع عام ١٩٣٤) وهو: «المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها، ملائمة لحاجات الحياة فى العصر الحاضر، وتحديد ما ينبغى استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتراكيب، ووضع معجم تاريخى للغة العربية، ونشر بحوث دقيقة فى تاريخ بعض الكلمات، وما طرأ على مدلولاتها من تغيير، وتنظيم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها



يقول طه حسين: «وأنا أتصور إحياء النحو على وجهين، أحدهما أن يقربه النحويون من العقل الحديث ليفهمه ويسيغه ويتمثله، والآخر أن تشيع فيه هذه القوة التى تحبب إلى النفوس درسه ومناقشة مسائله»

من البلاد العربية، وبحث كل ما له شأن فى تقدم اللغة العربية، وما يعهد إلى المجمع فى بحثه من دراسات ومشروعات». ثم أضيف إلى هذه الأغراض فى قرار جمهورى لاحق: «توحيد المصطلحات فى اللغة العربية».

يعرض الدكتور شوقى ضيف «أسس تجديد النحو - فى كتابه على هذه الصورة» قائلاً:

أ - إعادة تنسيق أبواب النحو: أدخلت فى النحو مبحثاً فى نطق الكلمة ودقة التلفظ بحروفها اقتبسته من علم التجويد، وأعقبته بمباحث حرفية ضرورية لتصور أبنية الفعل وأقسامه وتصاريفه، وأنواع الحروف، وأقسام الاسم المتنوعة تنوعاً واسعاً. ولم أعن بفكرة الموازين الصرفية أى عناية لأنها تدخل على المباحث الصرفية تعقيداً هى فى غنى عنه. وبالمثل حذفت باب الإعلال لأنه يفرض للحروف المعتلة فى الكلمات صوراً لا تجرى فى النطق. ثم تحدثت عن المرفوعات بادئاً بباب المبتدأ والخبر ركنى الجملة الاسمية، وعادة يخترع منه النحاة باب كان وأخواتها، وباب ما، ولا، ولات، العاملات عمل ليس، وباب كاد وأخواتها، وباب ظن وأخواتها، وباب أعلم وأخواتها وقد حذفت هذه الأبواب الخمسة من الكتاب، دون أن أحذف أمثلتها، فقد رددتها إلى أبواب أخرى.

ب - إلغاء الإعرابين: التقديرى والمحلى.

إلغاء تقدير متعلق للظرف والجار والمجرور.

إلغاء عمل أن المصدرية فى المضارع مقدرة.

إلغاء العلامات الفرعية فى الإعراب.

ج - الإعراب لصحة النطق.

د - وضع ضوابط وتعريفات دقيقة.

هـ - حذف زوائد كثيرة.

وفى كتابه الثانى «تيسير النحو التعليمى قديماً وحديثاً، مع منهج تجويده»، يقول شوقى ضيف: «رأيت أن أعرض - تتمة لعمل الأسلاف فى تيسير النحو دعوة ابن مضاء القرطبى فى كتابه «الرد على النحاة» إلى إلغاء نظرية العامل فى النحو، وكل ما ترتب عليها من تقديرات وصياغات وأبواب وعلل وأقيسة وتمارين افتراضية. ولم أكتف بذلك، فقد مضيت أذكر المحاولات الحديثة فى تبسيط النحو للناشئة، وألممت بكتاب لرفاعة الطهطاوى وعرضت لجهود حفنى ناصف ورفاقه وجهود على الجارم ومصطفى أمين. ثم أخذت أبسط القول فى المحاولات العصرية بادئاً بمحاولة الأستاذ إبراهيم مصطفى فى كتابه «إحياء النحو»، ثم تحدثت عن مقترحات لجنة وزارة المعارف، وحين ألفت كتب للنحو على أساس تلك المقترحات عمت الشكوى منها فى جميع المدارس وتقرر الانصراف عنها».

لعل أهم ما يقدمه كتاب شوقى ضيف هو رفضه لتقسيم النحاة القديم للجمل: جمل لا محل لها وجمل لها محل ومناداته بتقسيم جديد للجمل إلى جمل مستقلة: هى الجملة المستأنفة، والجملة الحوارية، والجملة المعترضة، والجملة المفسرة.

وجمل خاضعة غير مستقلة، جملة الخبر، وجملة الفاعل وباب الفاعل، وجملة المفعول به، والجملة الواقعة حالاً، والجملة التابعة نعتاً أو عطفاً أو بدلاً، وجملة الصلة، والجملة المضاف إليها، وجملة جواب الشرط، وجملة جواب القسم، والجملة المعطوفة على إحدى الجمل السابقة.

وبالرغم من هذه الإضافة التى أثبتها شوقى ضيف فى كتابه: «تيسير النحو التعليمى قديماً وحديثاً» لم تصرفه عن طبيعته استنادا للدراسات النحوية، لا نطالبه بتبنى المنهج اللغوى لا النحوى لأن هذا خارج عن طبيعته وعن تكوينه، لذا فقد صرف جل اهتمامه إلى ما أسماه التعقيدات العسيرة: تعقيدات باب التصغير وتعقيدات باب النسب، مشيراً إلى تكملات مهمة مثل: دلالة المضارع على الزمن الماضى لاستحضار الصورة، وإلى صيغ فى الممنوع من الصرف (هما صيغتا فعلاء وأفعلاء)؟، وصيغة أحاد وأخواتها، وعمل المصدر والمشتقات، عمل الفعل، وأنواع الحروف: حروف الزيادة جارة وغير جارة، وإلى الأبواب الإضافية: باب الذكر والحذف، باب التقديم والتأخير، الجملة الأساسية: الاسمية والفعلية.

من خارج الدائرة التقليدية من علماء النحو وأساتذته - انطلق صوت الدكتور محمد كامل حسين طبيب العظام المشهور وعضو



مجمع اللغة العربية فى كتابه: «اللغة العربية المعاصرة»، الذى ضمنه مشروعه عن «النحو المعقول» كما سماه، والذى تقدم به إلى مجلس المجمع، وفيه نطالع فكراً مختلفاً، ونظراً متحرراً من قيود التزمت والالتزام بمناهج القدماء وفكرهم، وحرصاً على الاقتراب من القضايا الحيوية والمتجمعة للغة، من خلال رؤية وظيفية ومنهج - براجماتى - على حد تعبيره.

يقول فى تصوير كتابه الذى صدر عن دار المعارف عام ١٩٧٦: الذين يريدون الصورة بالفصحى العالية إلى ما كانت عليه فى صدر الإسلام، مثلهم كمثل أهل الكهف حين حسبوا أن ورقهم - وهى غير زائفة - يمكن أن تكون عملة رائجة يقضون بها حوائجهم.

والذين يبحثون فى أصول اللغة كما وضعها القدماء، مثلهم كمثل علماء الحفائر، عملهم له قيمته التاريخية الكبرى دون أن يكون ذلك مدعاة للاحتذاء بما يجدونه فيها. والذين يؤمنون بقواعد اللغة، كما وضعها الأقدمون، مثلهم كمثل الذين لا يزالون يؤمنون بأن السماء تدور حول الأرض وأن الكواكب لها مدارات تسير فيها يمكن حسابها كما كان يحسبها صاحب «المجسطى».

والذين يقصرون علمهم على ما عرفه القدماء، مثلهم كمثل الذى يسير فى طريق وعرة، محمولاً على عربة من خشب تجرها دابة منهوكة، وعلى بعد خطوات منه طريق واسعة معبدة، تقطعها السيارات فى دقائق. والذين يستخدمون هذه القواعد، مثلهم كمثل الذى يستخدم مغزل اليد فى غزل الصوف، وهو يسمع من حوله ضجيج الآلات التى تغزل آلاف الأمتار فى الساعة الواحدة.

والذين يخلقون مشاكل نحوية معقدة ليظهروا للناس براعتهم فى حلها، كمثل الذى يسير فى ظلمات الأطلال البالية تنسجها رياح جنوبية وشمالية، يفضل ذلك على أن يعيش فى بيوت نظيفة مشرقة.

والذين تعجبهم «بهلوانيات» الصرف من إبدال وإعلال وقلب وفروض عجيبة، وبحثهم عن تصغير كلمة «سفرجل»، مثلهم كمثل الذين لا يقدرون أن البهلوانيات لا تعجب الناس إلا للتسلية والسمر، وليس عليهم أن يأخذوا مأخذ الجد، وليس على المتعلمين أن يعملوا بها.

والذين يحرصون على اتباع كل قواعد النحو، كبيرها وصغيرها مثلهم كمثل الذى يسير على حبل مشدود بين حبلين وتحته ماء غزير وهو يرى على مقربة منه جسراً ثابتاً يستطيع أن يعبر عليه مجرى الماء فى سهولة آمنة. وصولاً إلى قوله: «والذين يريدون المحافظة على اللغة، فيرفضون كل جديد، مثلهم كمثل الذى يريد أن يحافظ على جمال الأزهار وطيب رائحتها بوضعها فى خزائن حديدية، فتؤدى تلك المحافظة إلى ذبولها. والمحافظة الصحيحة للكائنات الحية لا تكون إلا بتطويرها وجعلها مطابقة للبيئة التى تعيش فيها.

والذين يعتقدون أن «الفصحى العالية» تصلح لكل مقام مثلهم كمثل الذى يصنع للجراح مبضعاً من ذهب، ومنشاراً من فضة، والعيب فى هذا ليس التبذير فحسب، بل إن المعادن الثمينة لا تصلح لصنع هذه الأشياء، والمبضع الصلب الرخيص أصلح لما يراد منه من المبضع الذهبى الغالى.

ثم يقول الدكتور محمد كامل حسين مؤلف رواية «قرية ظالمة» - كاشفاً عن طبيعة نظرته إلى اللغة وكيف أنها لا تتوقف فقط عند قضية النحو التى شغلت النحويين وأربكتهم. نريد أن ننقذ الفصحى العالية من عنت الذين يعلمون وعبث الذين لا يعلمون. والذين يعلمون يريدون أن يخنقوها بما يحتمونه على المتعلمين من علم بقواعد لا تعرض للأديب أو الكاتب، ولا يعنى بها إلا المحترفون من رجال النحو، وهم الذين ألقوا فى قلوب المثقفين الرعب من لغتهم القومية واليأس من إتقانها. هذه القواعد وليدة نوع من التفكير كان سائداً فى العصر الذى وضعت فيه، وليس لها من القدسية ما يفرضه علماء اللغة. ومن المستحيل أن نتجاهل تطور التفكير كله، أو أن نغفل الواقع الذى يدلنا عليه ما يلقاه المتعلمون فى العصر الحاضر من صعوبة إزاء الفصحى العالية.

وأخشى ما نخشاه أن يمتد التهاون باللغة فيصبح امتهاناً لها واستهزاءً بها، وسنبين أن الفصحى لها موضوعات تصلح لها ولا تصلح هذه الموضوعات إلا لها. وعلينا فيما دون ذلك أن نقبل لغة عربية صحيحة إلى حد كبير دون إسراف فى التمسك بقواعد الإعراب وبناء الكلمات وهى ما سنسميه بالفصحى المخففة.

سألنا طلاب كليات الآداب عن سبب عزوفهم عن الالتحاق بقسم اللغة العربية فكان إجماعهم أنه قسم صعب بسبب النحو وهو شعور استقر عندهم بعد انتهائهم من التعليم الثانوى

وفى رأى محمد كامل حسين أن العامية هى وسيلة لتعليم العربية المخففة فى أولى مراحل التعليم. والمنهج الذى يدعو إليها فى تعليم العربية المخففة يقوم على التدرج من أدنى مراتبها إلى أعلى مراتبها حيث تكون قريبة جداً من الفصحى العالية، وهذا التدرج يتعلق بأمرين: موضوع الدراسة وسن الطالب.



ويضرب مثلاً على موضوع الدراسة بأنه قد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن بعض العلوم لا يمكن درسها بالفصحى العالية. وأكثر العلوم الطبيعية - وخاصة الرياضيات - من هذا النوع. ويكاد يكون من المستحيل الجمع بين الرياضيات والنحو. وفى العصر الحاضر - على الأقل - لا يمكن أن يكون الإنسان نحوياً ورياضياً فى وقت واحد، وعلى ذلك يجب أن تكون دراسة الرياضيات بالفصحى المخففة، ويجب أن نتجاهل تماماً - فى رأيه - قواعد العدد تمييزه، وجنسه وإعرابه تجاهلاً تاماً، أى أن يكون للعدد صفة دائمة لا تفارقه فى أى حال. نقول: واحد واثنين وثلاثة إلى عشرة وأحد عشر واثنا عشر وثلاثة عشر إلى عشرين وواحد وعشرين إلى مائة ومائتين وثلاثة آلاف إلى مليون ومليونين من الرجال والنساء على السواء.

هذا الأسلوب فى كتابة العدد وقراءته - هو فى رأيه - من الأمور الحتمية التى لابد منها للمشتغلين بالرياضيات، والرياضيات أصل كل العلوم الطبيعية. ولا مفر لعلماء هذه العلوم من التخلص من صعوبات العدد فى الفصحى. ولا يكون تطبيق قواعد العدد القديمة إلا فى أبسط الأمور كما فى قولنا: سبع ليالٍ وثمانية أيام.

أما بالنسبة لسن الطالب، فالتدرج من العامية المنقحة إلى أعلى مراتب الفصحى المخففة يجب فيه تقدير سن الطالب وقدرته على فهم الإعراب وصحة المبنى. على أن ينتهى ذلك كله فى نحو السادسة عشرة. وليس من السهل على الطالب فى سن مبكرة أن يقدر الفرق بين التعجب والاستفهام والنفى القاطع ومغزى التقديم والتأخير والفرق بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية، إلى غير ذلك من الأمور التى تدق على أفهام المبتدئين.

ثم نصل إلى السطور التى يبلور فيها محمد كامل حسين منهجه فى التعامل مع قضية اللغة العربية وتعلمها، ونظرته التى ترى صحة اللغة فى المبنى والمعنى، ويكشف عنه فى صيغة واضحة قاطعة: «لهذا وضعت ما سميته النحو الحديث أو المعقول - الذى لا يقوم على تبسيط قواعد النحو أو الصرف، وإنما أردت به أن يكون خلقاً جديداً فى قواعد تتم بها صحة اللغة مبنى ومعنى معتمداً فى ذلك على أن الغرض الأول من اللغة هو الإبانة، وعلى أن كل قاعدة لا تؤدى إلى زيادة وضوح المعنى تكون عقيمة. وليس فى هذا النحو محل للمنطق اللغوى القديم



الذى جعل اللغة منطقية فخرج بها عن أن تكون معقولة، وذلك بفرض أمور لا حقيقة لها في الواقع كالحذف والتقدير والضمير المستتر جوازًا ووجوبًا، ولا محل فيه للمشاكل التى اخترعها النحويون اختراعًا، إظهارًا للعلم والبراعة، ومنها ما لا يعرض للكُتاب والأدباء أبداً. ويمكننا أن نصف النحو الذى اقترحه أنه - براجماتى - يعتمد فى صحته على ما يكون فيه من فائدة. ولا يفوت محمد كامل حسين أن يقول فى مقدمة كتابه: «أرجو ألا يطعن طاعن فى آرائى هذه قبل أن يمعن النظر فيها، فأنا لا أريد أن أحرم حلالاً ولا أن أحلل حرامًا، ولا أن يعقل الناس الفصحى العالية فى المناسبات التى تصلح لها. وإنما أدعو إلى الاعتراف بالفصحى المخففة - مكتوبة أو مقروءة - حتى لا يتهم الذين يستخدمونها بالجهل أو القصور، ومن أول واجباتنا أن نجعل الطالب متمكنًا من لغته وهو فى سن السادسة عشرة من عمره فلا يكون عنده الرعب الذى نعرفه فيه عند دراسته للعربية.

حين ننتقل إلى علماء الدراسات اللغوية المعاصرين، سنجد لديهم - بحكم التخصص العلمى - أفكارًا مختلفة ومناهج مغايرة ومداخل غير تقليدية. الدكتور كمال بشر - أستاذ الدراسات اللغوية ونائب رئيس مجمع اللغة العربية - يرى أن الفصحى المعاصرة - التى هى اللغة المستهدفة فى التعليم - تنتظم خواص اللغة العربية الأساسية فهى ترعى قواعد الإعراب فى جملتها، وتسير على قوانين نظم الكلام العربى، ولكنها طورت لنفسها وسائل حديثة فى التعبير ويقول موضحًا فكرته من هذه اللغة العصرية ومقدمًا خطوة أبعد وأكثر وضوحًا من الخطوة التى تقدم بها الدكتور محمد كامل حسين:

لقد ضمت إلى ثروتها اللفظية أعداداً هائلة من الكلمات والصيغ اقتضتها وتقتضيها مظاهر الحضارة الحديثة المتجددة، كما استحدثت هذه اللغة أنماطًا جديدة من نظم الكلام وتأليفه. فإذا ما حاولنا أن نتأمل المجال الحى لاستعمال هذه اللغة - وهو المجال المنطوق - وجدنا لها صورًا جديدة من النطق لحقت ببعض الأصوات كالقاف والجيم، وتغيرات فى مواضع النبر والتنغيم فى الجملة والتعبير.

ويرى الدكتور عبده الراجحى - أستاذ الدراسات اللغوية وعضو مجمع اللغة العربية - إن النحو فى تعليم اللغة العربية يجسد الخلل العام خير تجسيد، لأن الناس يعلقون مشكلات العربية عليه، وهو جانب واحد من جوانب القضية.

ولقد سألنا طلاب كليات الآداب عن سبب عزوفهم عن الالتحاق بقسم اللغة العربية فكان إجماعهم أنه قسم صعب بسبب النحو وهم لم يروا بعد ماذا يدرسون فى الجامعة، لكنه الشعور الذى استقر عندهم بعد انتهائهم من التعليم الثانوى، وقد كانت العربية مادة إجبارية وأمامهم الآن الفرصة فى الجامعات للإفلات منها، فما الذى يجبرهم عليها؟

لقد جرت محاولات غير قليلة لإصلاح النحو أو تيسيره، لكنها جميعًا أخطأت البداية، فلم تصل إلى غاية، ذلك أنها ظنت أن تيسير النحو ييسر تعليمه وهذا غير صحيح. فثمة فرق جوهرى بين النحو وتعليم النحو. الأول علم النحو، وهو علم يقدم وصفًا دقيقًا لأبنية اللغة، وهو حين يفعل ذلك إنما يلجأ إلى «عزل» الأبنية من سياق الاستعمال، ويضعها فى إطار «التعميم» و«التجريد». أما تعليم النحو فشىء آخر نشأ له علم هو النحو التعليمى، وهو يأخذ من الوصف الذى توصل إليه علم النحو لكنه لا يأخذه كما هو، إنما يطوعه لأغراض التعليم، ويخضعه لمعايير أخرى تستعين بعلم اللغة النفسى فى السلوك اللغوى عند الفرد، وبعلم اللغة الاجتماعى فى الاتصال اللغوى، وبعلوم التربية فى نظريات التعلم وإجراءات التعليم، وكل ذلك كان غائبًا فى محاولات الإصلاح والتيسير».

ويقول الدكتور عبده الراجحى عن علم اللغة فى تعليم العربية: «نقترح أن تضم مقررات تعليم العربية معلومات مستقاة من علم اللغة، ويمكن أن يبدأ ذلك فى المرحلة الابتدائية عن مخارج الأصوات وبعض صفاتها، وبعد ذلك نتقدم خطوة خطوة فى المرحلة المتوسطة بمعلومات عن الصرف، وعن النحو، حتى إذا جئنا إلى المرحلة الثانوية قدمنا هذا العلم صريحًا مباشرًا فى إيجاز كى يعرف الطالب شيئًا عن النظرية اللغوية، وعن مستويات التحليل المختلفة، وعن اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية. ثم لابد أن يعرف الطالب شيئًا عن تاريخ لغته، وعلاقاتها باللغات السامية، ولا بد أن يعرف شيئًا عن جهود علمائه القدماء، ذلك سوف يعين - فيما نرى - على تغيير نظرة طلابنا إلى دراسة اللغة، وعلى فهم أفضل للظواهر اللغوية، وعلى إدراك لقيمة ثرائه اللغوى».



تعليم النحو ليس هو الأساس فى اكتساب اللغة الصحيحة، وإنما القراءة لنصوص مختارة، يتم من خلالها التعرف على الأنظمة والأبنية والعبارات والتراكيب



وفى اقتراحه لحل مشكلة التعريب يقول الدكتور عبده الراجحى فى كتابه: «علم اللغة التطبيقى وتعليم العربية»: حل مشكلة التعريب فى الخيار التالى:

إما أن نعتبر اللسان الحالى الضامن الوحيد لخصوصية العرب فيجب أن نحافظ عليه مهما كان الثمن، والثمن هو الازدواجية من جهة، والأمية من جهة ثانية. وإما أن ندرك أن خصوصية العرب تكمن فى نوعية تحركهم فى العالم المعاصر، وأن اللسان فى صورته الحالية لا يمثل سوى مرحلة من مراحل مسيرة لغوية لا نهاية لها، فيجوز لنا أن ندخل عليها إصلاحات فى الحرف والصرف والنحو والمعجم قد يتحول معها إلى لسان يختلف عن اللسان الحالى، اختلاف هذا الأخير عن لغة الشعر الجاهلى.

بهذه الطريقة نقضى تدريجيًا على هذه الازدواجية، ونفند عمليًا الاعتراضات المغرضة وغير المغرضة، على التعريب، ونبدع وسيلة للتفاهم سهلة طيعة قادرة على ترويج ثقافة جماهيرية عصرية، أى حاملة فى كنهها الإصلاح الضرورى المتواصل».

من المفيد أن نركز فى ختام هذا العرض الطويل على عدة ملاحظات:

الأولى: أنه آن أوان الاعتراف بأن «العربية» ليست لغة الأم بالنسبة إلينا، ومعنى هذا أنها ليست اللغة الأولى، التى يلتقطها الطفل دون حاجة إلى معلم، وكونها اللغة الثانية يفرض علينا أن نتعلمها بالطرق والوسائل الحديثة والمتقدمة التى نتعلم بها اللغات الأجنبية وفى مقدمتها الطريقة السمعية البصرية، التى تركز على الإصغاء العميق للنصوص المسجلة بدقة وإتقان وصحة كاملة، وأن نراها فى مجالات استخدامها الحى فى سياق مواقفها الوظيفية. وبالسمع والمشاهدة تتحقق العلاقة السليمة مع اللغة وباللغة.

الثانية: أنه ثبت - مما لا يدع مجالاً للشك - أن تعليم النحو ليس هو الأساس فى اكتساب اللغة الصحيحة، وإنما القراءة لنصوص مختارة، يتم من خلالها التعرف على الأنظمة والأبنية والعبارات والتراكيب وأنواع الكلام والمفردات، وبتحليل هذه النصوص - من خلال مناقشة حرة ومحكمة فى الوقت نفسه - يتم الدرس اللغوى والنحوى والبلاغى والصرفى والعروضى الموسيقى. وليس صحيحًا أن العلاج يكمن فى إعطاء النحو ساعات أكثر فى الجدول المدرسى، أو تناط به درجات أكبر فى اختبارات التقييم والامتحانات التى يتوقف عليها المصير. المدخل الحقيقى مدخل لغوى لا نحوى، هذا

←





ديوان الطرب

سيد درويش

العربجية

مين زينا احنا العربجية ياهو مين
يشوف غلب وتلطيم عقبال اللايمين
كل الناس فى أشغالها يافندى رايحين جايين
إلا احنا نفضل بالعشر ساعات قاعدين
الله يكفيكو يا هوه شر القعده اللى بنقعدها
مصلوبين طول النهار أنا والجدع ده
ياما بنشوف م الشاويشية
صبح ومغرب وعشيه
على أقل شىء يرازونا
يخانقونا ويلعنوا أبونا
أهيه حاله يعلم بها سيدك
يشكى لمين شىء مش حافيدك
طول ما شرفك يا أسطى ف إيدك
اوعى تصدق إننا ننهان
آكلنا إحنا والبهايم ياسطى على الطاق اتنين
نعيش إزاى يا ناس ياخوانا العدل فين
يا هوه ورانا عيال غلابه ياكلوا منين
لامتى نفضل ساكتين كده جاتنا البين
بتوع الترمواى هما اللى يا ناس جابوا داغنا
نعمل إزاى والله اعتصاباتهم بتنغنغنا
الله يكون فى عوننا
ياما بنقاسى مع زبوننا

أمين صدقى









ما تقوله دروس الواقع، وتؤكده الدراسات الحديثة. لابد إذن من مدخل لغوى يركز على كلية اللغة، لا على جزيئاتها المبعثرة التى تدور فى فراغ، ونظام الورشة اللغوية هو الحل الأمثل لتدريس القواعد مثلاً فى سياق النص المتكامل بشرط تدريب المعلمين على هذا الأسلوب، ووضع كتاب مدرسى يحقق هذا المنهج.

الثالثة: لابد من استخدام برامج الحاسب الآلى فى الكشف عن منظومة القواعد النحوية الأكثر شيوعاً فى ألوان الكتابة المعاصرة فى كل المجالات المعرفية للفصحى المعاصرة: نشرات الأخبار، التعليقات السياسية، الكتابات العلمية، كتابات الأدباء والكتاب والصحفيين، المؤلفات الجامعية، الصحف اليومية والمجلات المختلفة. وسيؤكد الحاسب ما نستشعره من أن مجموعة القواعد المستخدمة بالفعل، وظيفياً، هى أقل القليل من المادة النحوية الهائلة التى تحتوى عليها الكتب المدرسية والجامعية. وفى هذا الحال، لابد من الانتفاع بما يكشف عنه هذا الاستبيان الحاسوبى فى وضع مناهج النحو، بالتركيز على الشائع المستخدم فى يسر وطواعية، وترك التفريعات والتعقيدات لمن سوف يتخصص فى العربية وعلومها المختلفة. أما المواطن العادى والمتعلم - غير المتخصص - فتكفيه القواعد أو الأبواب العشرة التى سوف يؤكدها الاستبيان.

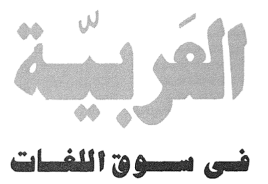
الرابعة: لابد من تدعيم مادة القراءة لدى النشء والأجيال الجديدة، بواسطة ما تقدمه الدولة الآن ممثلاً فى مهرجان القراءة للجميع (مكتبة الأسرة) وتدعيم المكتبات المدرسية، وزيادة عدد المكتبات المتنقلة، وشحن مكتبات قصور الثقافة بالجديد والمهم والمفيد فى مجالات القراءات، والتشجيع بالحوافز والمكافآت وعمل المسابقات فى كل أنحاء مصر، والأقطار العربية، فالقراءة هى المدخل الأساسى لاكتساب اللغة، يليها السماع، لكن السماع مشوب بالتقاط أخطاء الآخرين، وندرة من يعدون نماذج لغوية رفيعة يحرص الناس على الاستماع إليهم ومتابعتهم، كما كان الحال فى جيل طه حسين والعقاد وإبراهيم سلامة وإبراهيم بيومى مدكور ومهدى علام ومحمد خلف الله وغيرهم من المؤدين العظام.

الخامسة: إن اللغة أخطر من أن تترك للغويين وحدهم، وفى كثير من أبحاث - غير اللغويين - ونظراتهم إضافات جليلة لخدمة الواقع اللغوى. وعلينا أن نتقبل كل رأى صائب بغض النظر عن مصدره، والذين هاجموا شريف الشوباشى على كتابه وما تضمنه من آراء كان أكثرهم يردد مقولة إنه ليس من أهل العربية فكيف يتكلم فى أقدس مقدساتها وهو النحو؟ اللغة همنا جميعاً ومسئوليتنا جميعاً، ليست وقفاً على أستاذ اللغة أو أستاذ النحو.. بل هى الشغل الشاغل أو ينبغى أن تكون الشغل الشاغل للعالم والمفكر والكاتب والشاعر والروائى والمسرحى والناقد والسياسى وغيرهم. كل منهم ينظر إليها من زاويته، ويضيف من واقع خبراته وتجاربه ومجالات اهتمامه، فيضيف - كما قال جبران - شراعاً جديداً إلى سفينة اللغة، ولوناً جديداً إلى ألوانها البديعة والمتجددة الحياة والأزهار.

السادسة والأخيرة: أعتقد أنه آن العودة إلى الصيغة التى كانت قائمة، بالتعاون والتكامل والتنسيق، بين مجمع اللغة العربية فى مصر، وواضعى المناهج فى وزارة التعليم - وبخاصة منهج اللغة العربية - والجامعات، ووزارتى الثقافة والإعلام، وإيجاد صيغة للحد الأدنى من الوعى اللغوى المشترك، وأن تكون لتوصيات المجمع قدرتها التنفيذية حتى لا تتبدد جهوده هباءً، ولا يلتفت إليها أحد، وأن يلتفت المجمع إلى واقعه، فيطلق لروح الاجتهاد العنان، ولا يضيق بالنظر المختلف والرأى الجديد والفكر الشجاع، ولا ينكفئ على ذاته مردداً فكر القدماء متشبثاً به باعتباره منه المقدسات، فليس فى اللغة ما هو مقدس، فهى فعل إنسانى، يحيا ويتجدد بالإنسان، ويجمد ويتخلف بالإنسان. فأيهما نختار؟ ■

قواعد النحو والصرف غير منتظمة فى كثير من اللغات انتظامها فى العربية، مما يضطر معه المتعلم إلى حفظ الكثير من الأفعال لشذوذها فى التصريف بين المضارع والماضى والكثير من الصفات والظروف التى لا تجرى على قاعدة مطردة





العَرَبيّة فى سوق اللغات

جمال الحسينى أبو فرحة



■■ لقد أعلن نبى الإسلام أنه يحمل رسالة للعالم أجمع؛ ولاشك أن دعوى عالمية أية رسالة سماوية لابد أن يبرهنها عالمية لغتها، بمعنى صلاحيتها لحمل الرسالة إلى العالم أجمع ومن هنا يمكننا أن نفهم من قوله تعالى (إنا جعلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون)، وقوله (بلسان عربى مبين) أن المراد بالخطاب هنا ليس العرب فقط بل العالم كله وكأن معنى الآيات: إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لأن العربية لغة تصلح لأن تخاطب العالم أجمع لأنها لغة مبينة عن أدق المعانى بأبسط الألفاظ وأجملها، ومن ثم كان حريا بنا أن نعقل ما يتنزل علينا بها من قرآن ومن لا يعرفها يمكنه أن يتعلمها ومن لم يستطع أو لم يرد فيمكنه أن يعتمد على من يعرفها، فالمهم أن المعنى الموحى به بها يصل إلى الأرض بدقة دون لبس وبجمال دون عيب.

وهذا ما يؤكده حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (فضلت على الأنبياء بست، أعطيت جوامع الكلم..) إلخ الحديث.

فإعطاؤه صلى الله عليه وسلم جوامع الكلام كما يعنى فصاحته ـ صلى الله عليه وسلم ـ القادرة على توظيف اللغة العربية فى حمل الرسالة الخاتمة إلى العالم أجمع على أتم صورة وأجملها لا شك أنه يعنى أيضًا قابلية هذه اللغة لهذه المهمة، وهذا ما يبرهنه علم اللغة المقارن، كما أن هذا ما يقتضيه العقل للغة الرسالة الخاتمة: فعالمية الرسالة لابد أن تبرهنها عالمية لغتها؛ وهو ما يقتضى لها الكمال أو الاكتمال اللغوى الذى يعنى كفاءة وانتظام قواعدها الصوتية، والصرفية، وقواعد التراكيب والعبارات كما يعنى ازدهار ظاهرة التمييز والتخصيص بها: كالتمييز بين المذكر والمؤنث، وبين المفرد والمثنى والجمع، وبين جموع القلة وجموع الكثرة، وبين الصفات العارضة والصفات الملازمة.. إلخ. كما يعنى كفاءة أبجديتها فى ضبط الألفاظ فى دقة ويسر، كما يعنى بساطة ألفاظها وموسيقيتها حتى يسهل تعلمها لمن ليس من أهلها وتناقل نصوصها المقدسة عبر الزمان والمكان وحفظها فى القلوب والسطور.

وهى جميعًا من المزايا التى تمت للغة العربية، وهو ما أدركه العربى الأول حين جعل الفصاحة علمًا على العروبة فجاءت كلمة عرب بمعنى: فصح، وأعرب بمعنى: أفصح.

كما أدركه المقارنة للعربية بالعبرية لغة الكتاب المقدس الأصلية أو بالإنجليزية أو الفرنسية أهم لغتين فى عصر العلم المعاصر الذى لا يألو جهدًا فى البحث عن دقة التعبير وجماله.

فالأبجدية العربية قد جربت زمنًا طويلاً فى كتابة اللغات من كل أسرة لسانية فلم تقصر، أما الحروف اللاتينية مثلاً (وهى من أعظم الأبجديات اللغوية) فتستخدم للكتابة فى عائلة واحدة من العائلات اللغوية الكبرى، وهى العائلة المسماة (بالهندية الجرمانية).

وهذه العائلة هى العائلة التى يقوم فيها تصريف الكلمات على (النحت) أو على إضافة المقاطع إلى أول الكلمة أو آخرها وتسمى من أجل ذلك باللغات «الغروية» من الغراء اللاصق، أما الحروف العربية فهى تقوم بأداء الكتابة بهذه اللغات وبكثير غيرها فهى تستخدم لكتابة الفارسية والأوردية وهما من لغات النحت أو من عائلة اللغات الغروية، وتستخدم لكتابة التركية وهى من العائلة المسماة بالطورانية ويرجعون فى تصريف ألفاظها إلى النحت تارة وإلى الاشتقاق تارة أخرى، فهى وسط بين اللغة الفارسية واللغة العربية، وتستخدم الحروف العربية بطبيعة الحال لكتابة لغة الضاد المميزة بمخارجها الواضحة الدقيقة، وهى أعظم لغات الاشتقاق التى اشتهرت باسم العائلة السامية، وتكتب بالحروف العربية كذلك لهجات ملاوية، لعلها تشكل عائلة مستقلة من العائلات اللغوية.

وقد استطاعت هذه الأمم جميعًا أن تؤدى كتابتها بالحروف العربية دون أن تدخل عليها تعديلاً فى تركيبها ولا أشكالها المنفردة، ولم تتصرف فيها بغير زيادة العلامات والنقط على بعض الحروف، وهى زيادة موافقة لبنية الحروف العربية وليست بالغريبة عنها لأن العرب أنفسهم أضافوا النقط والشكل عند الحاجة إلى ذلك، وليست زيادة شرطة على الكاف بأغرب من زيادة النقط على الحروف للتمييز بين الأشكال المتشابهة أو المتقاربة.

وعلى كثرة اللغات والعائلات اللغوية التى تؤديها حروف العربية لم يزل ضبطها للألفاظ أدق وأسهل من ضبط الحروف اللاتينية التى تستخدم لكتابة عائلة لغوية واحدة.

فالأبجديات الأوروبية كثيرًا ما لا يتفق فيها نطق الكلمة المكتوبة على ألسنة أمتين ولو كانت لهما أبجدية واحدة وأظهر ما يظهر ذلك فى كتابة الأعلام، فاسم Franklin مثلاً ينطق (فرانكلن) بالإنجليزية، وينطق (فرانكلا) بالفرنسية.

وهذا ما لا نعهده فى نطق الفارسى الذى يقرأ الأوردية أو التركية أو العربية، ولا نعهده فى نطق العربى الذى يقرأ الفارسية أو الأوردية أو التركية.

بل إن من الحروف فى الأبجديات الأوروبية ما يلفظ على خمسة أصوات كحرف T الذى ينطق فى الإنجليزية (تاء) كما فى to و(ثاء) كما فى think و(ذالا) كما فى this وشينا كما فى mention بل و(سينا) كما فى هذه الكلمة نفسها بالفرنسية.

وكذلك حرف S فى الإنجليزية فينطق (زايا) فى is و(صادا) فى Salt و(شينًا) فى sure و(جيمًا معطشة) فى pleasure.

وكذلك حرف G فى الإنجليزية فينطق (جيمًا قاهرية) كما فى God و(جيمًا معطشة) كما فى Religion وقد يكتب ولا ينطق فى right.

وبعض حروف العلة فى الإنجليزية تقترن فتنطق على أربعة أصوات كما فى هذه الكلمات door, food, moon, blood. وهو غموض لا نجد له مثيلاً فى العربية.

أما قواعد النحو والصرف فهى غير منتظمة فى كثير من اللغات انتظامها فى العربية، مما يضطر معه المتعلم إلى حفظ الكثير من الأفعال لشذوذها فى التصريف بين المضارع والماضى والكثير من الصفات والظروف التى لا تجرى على قاعدة مطردة فى اشتقاق الصفة والظرف، كما هو الحال فى الفرنسية والإنجليزية.

أما بالنسبة للغة العبرية فإنه بالرغم من أن هناك علاقة قرابة واضحة بينها وبين العربية، وبالرغم من أن اللغة العربية ظلت محتفظة بكيانها، بل ووصلت فى خصوبتها وغناها إلى أعلى الدرجات كما يتبين لنا بوضوح مما تبقى لدينا من تراث جاهلى قبل الإسلام من شعر ونثر، وحتى كان الإعجاز اللغوى أحد أوجه الإعجاز القرآنى؛ فإن اللغة العبرية الحية نسيت فى وقت ما، واقتصرت معرفتها على مجموعة قليلة من رجال الدين، ولم يترك علماء اللغة العبرية القدماء للخلف شيئًا ذا بال بشأن الأسس والمبادئ التى تقوم عليها هذه اللغة، لقد فقدت الأمة العبرية كل ما يشرف الأمة ويزينها (ولا عجب فى ذلك بعد كل ما عانت من المحن والاضطهاد) إلا فتاتًا من لغتها وأدبها، فلقد ضاعت تقريبًا جميع أسماء الفاكهة والطيور والأسماك، وأسماء أخرى كثيرة على مر الزمان.

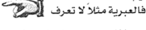
كما أن معانى كثير من الأسماء والأفعال التى نصادفها فى التوراة إما مفقودة، أو على الأقل مختلف عليها.

كما أننا نفتقر بدرجة أشد إلى معرفة التراكيب الخاصة فى هذه اللغة فقد ضاعت جل العبارات والأساليب الخاصة التى استعملها العبرانيون من ذاكرة الناس.

فلن نستطيع إذن أن نبحث لكل نص كما نود عن جميع المعانى المقبولة وفقًا للاستعمال الجارى فى هذه اللغة، وسنجد نصوصًا كثيرة تتضمن كلمات معناها غامض للغاية ولا يمكن إدراكه على الإطلاق.

وفضلاً عن أننا لا نستطيع أن نحصل على معرفة تامة بالعبرية، فهناك تكوين هذه اللغة نفسه وطبيعتها، إذ يوجد فيها كثير من المتشابهات مما يستحيل معه العثور على منهج يسمح لنا بأن نحدد عن يقين معانى جميع نصوص العهد القديم.

فالعبرية مثلاً لا تعرف





المضارع، وإنما تعبر عنه بصيغة اسم الفاعل، وأحيانًا بصيغة المستقبل. كما أن العبرانيين لم تكن لديهم حروف تعادل الحروف المتحركة حتى القرن السادس الميلادى؛ ولم يعرفوا الحركات قبل أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلادى على يد علماء لغويين لا تساوى سلطتهم شيئًا، وخاصة مع عدم تواتر الحفظ فى الصدور. هذا بالإضافة إلى أن الحروف العبرية إنما تكتب فرادى، ولا يتصل بعضها ببعض، ولم يتعود العبرانيون أن يقسموا كلامهم المكتوب أو أن يبرزوا المعنى بصورة أقوى، أى تأكيده بعلامات.

ومن ثم بدت دراسة اللغة العبرية فى حاجة ماسة إلى دراسة تلك اللغات الشقيقة، وخاصة العربية باعتبارها أكثر اللغات الشقيقة حياة وازدهارًا، من أجل حل المشكلات الصعبة. وهذا ما أكد عليه مران بن جناح فى كتابه التنقيح وكذلك أكد عليه دوناش بن لبرت عندما ترك لنا قائمة تحتوى على ١٦٨ كلمة عبرية لا يمكن فهمها إلا إذا قورنت باللغة العربية. كما أكد عليه كثير من علماء اليهود عندما اقتفوا فى دراستهم النحوية أثر النحويين العرب، ولا سيما سيبويه حتى جاءت كتاباتهم باللغة العربية. ولاشك أن فهم أية لغة جيداً يحتاج إلى معرفة غيرها من اللغات وخاصة اللغات الشقيقة المنبثقة عن نفس الأصل، وكذلك اللغات التى احتكت بها فتأثرت وأثرت، إلا أن حاجة دارس اللغة العربية إلى دراسة مثل هذه اللغات هو من باب الكمال أما حاجة دارس العبرية كمتخصص فهى من باب الاحتياج الضرورى.

وبالإضافة إلى ما سبق؛ فإن الميزة البينة فى قواعد اللغة العربية أنها تابعة لأغراض التعبير والدلالة. ويظهر ذلك بوضوح فى ازدهار ظاهرة الإعراب فى اللغة العربية وهو ما لا نجد له أثرًا يذكر لا فى الإنجليزية ولا فى الفرنسية، أما اللغة العبرية ففيها قليل من حالات الإعراب، ولا نخفى أهمية وجود هذه الظاهرة وأثرها فى دقة التعبير والدلالة؛ يقول الزجاجى: «إن الأسماء لما كانت تعتورها المعانى، فتكون فاعلة، ومفعولة، ومضافة، ومضافًا إليها، ولم يكن فى صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعانى، بل كانت مشتركة، جعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعانى.. ليتسعوا فى كلامهم ويقدموا الفاعل إن أرادوا ذلك أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه وتكون الحركات دالة على المعانى».

وتتفوق العربية كذلك فى وجازتها وسهولتها ودقتها على لغات كالإنجليزية والفرنسية؛ فيجوز أن يخلو مكان الفعل الظاهر من الجملة العربية وتفيد معناها المستقل مع تقديره أو تقدير ما ينوب عنه فيجوز مثلاً أن يقال (رجل فى الدار) ويفهم منها ما يفهم من قولهم باللغات الأوروبية (رجل يوجد فى الدار) أو ما يفهم من قولنا بلغتنا العربية (رجل موجود فى الدار)؛ ولكن فى الفرنسية والإنجليزية لا تتم الجملة على وضع من هذه الأوضاع بغير الفعل الظاهر، فكل كلام خلا من الفعل الظاهر عندهم فهو غير مفهوم.



واللغة العربية كذلك تدل على المبنى للمجهول بصيغة خاصة فى أوزان الفعل بينما الإنجليزية والفرنسية تدلان على المبنى للمجهول بعبارة؛ ففى العربية نقول (يُفتح الباب) بصيغة المجهول ولكن العبارة الإنجليزية التى تدل على ذلك هى The door is opened وهى تقابل قولنا (إن الباب يكون مفتوحاً) وهو تعبير يخلو من دقة الصيغة العربية لأنه أقرب إلى الوصف منه إلى الإخبار عن حدث.

وتزيد اللغة العربية صيغة لا وجود لها فى الإنجليزية والفرنسية وهى ما اقتصرت عليه اللغة العبرية، وهى صيغة الفعل المطاوع (انفعل) فيقول القائل (انفتح الباب) ويعبر بذلك عن معنى لا تدل عليه دلالته الدقيقة كل من صيغة المبنى للمعلوم، وصيغة المبنى للمجهول.

فإذا قلنا (فتح محمد الباب) فهذا لمن يهمه أن يعرف من الذى فتح الباب وإذا قلنا (فُتحَ الباب) فقد يكون الخبر موجهًا . أيضًا . إلى سامع يهمه أن يعلم شيئًا عن الفاعل، ولكن المتكلم يخبره بأنه لا يعرفه أو يخبره بأنه يعرفه ولا يريد أن يذكره تعمداً لإخفائه أو لإهماله، ولكن هناك حالة غير هذه وتلك وهى حالة إنسان ينتظر فتح الباب ولا يعنيه من الذى فتحه كما لا يعنيه أن يقول له المتكلم إنه يجهله أو يعرفه ولا يريد أن يذكره؛ فى هذه الحالة يقول العربى: (انفتح الباب) فيؤدى المعنى المطلوب بغير خلط بينه وبين الحالات الأخرى.

واللغة الدقيقة هى اللغة التى تلاحظ مقتضى الحال فى كل عبارة من العبارات الثلاث ولا تستخدم عبارة واحدة لموضوعين ملتبسين، بل تستخدم كل عبارة لموضوعها الذى لا لبس فيه وهذه هى صفة اللغة العربية فى وفائها بالمعانى المقصودة على حسب إرادة المتكلم والسامع أو على حسب ضرورة التفاهم بين الاثنين.

كما تبدو عظمة هذه اللغة ووجازتها مع دقتها من أن درجة الفاعلية فى الاسم تثبت فى اللغة العربية باستخدام صيغ من مادة الفعل نفسه بغير حاجة إلى مادة مستعارة من غيره.

ففى اللغة العربية صيغ للمبالغة تعطينا من مادة الفتح مثلاً كلمة (فتاح) بمعنى الكثير الفتح ولا مقابل لهذه الصيغة وأمثالها من صيغ المبالغة فى الإنجليزية والفرنسية إلا باستخدام جملة أو عبارة مركبة من عدة كلمات.

أما الصيغة المشبهة فهى آية الآيات فى توضيح هذه الدقة للغة العربية؛ حيث تفرق اللغة العربية بين الصفات بفروق لفظية تحيط بأعمق ما بينها من فروق المعنى.

فهناك فرق بين كلمة (كريم)، وكلمة (معطى)، وكلمة (معطاء)؛ فمعنى أعطى مرة واحدة فهو معط أو فاعل لفعل من أفعال الكرم، وإن لم يكن كريمًا على الدوام، وكذلك المعطاء الذى يعطى مرات كثيرة، لا يلزم من ذلك أن يكون كريمًا أو أن يكون عطاؤه من عنده، فربما كان المعطاء فى معنى من معانيه مرادفًا للصراف على هذا الاعتبار، فالكرم صفة لا تحدث فى كل عطاء أو كل منحة أو كل صنيع معدود من الصنائع الكريمة، ولكنه صفة ملازمة، ولو لم يحدث فعل الكرم غير مرة واحدة أو مرات معدودة، فإن الذى يعمل عمل الكرماء (كريم) ولو لم تتجدد أعماله أو هباته، فالكرم يعبر عن الخلق الثابت الذى لا يتوقف على حدث فى زمن محدد. ومن ثم جاءت صفة الكريم من فعل لازم وجاءت صفة المعطاء من فعل متعدٍ لمفعولين واستغنى المتكلم عن صيغة اسم الفاعل من الفعل كرم مع وجود الصفة المشبهة لأن صيغة (الكارم) مع سهولتها على اللسان لو وجدت لا تؤدى المقصود من الفعل (كرم) الذى هو صفة دائمة وليس بعمل متكرر.

أما الضمائر وأسماء الإشارة وأسماء الموصول فموجودة فى جميع لغات الحضارة ولكنها فى اللغة العربية توجد مميزة حيث يحتاج الأمر إلى التمييز، وبمقدار الحاجة إليه، وكثيرًا ما تأتى جزافًا فى غيرها من اللغات.

فضمير المتكلم لا يحتاج إلى تمييز بين المذكر والمؤنث، لأن إشارة المتكلم إلى نفسه كافية للتعريف بجنسه، ولكن يحتاج إلى التفرقة فى العدد، فالفرد يتحدث إما بلسان نفسه، وإما بلسان جماعة، وهو ما نجده فى اللغة العربية كما نجده فى جميع اللغات. فنقول (أنا كتبت) للمفرد مذكرًا ومؤنثًا، ونقول (نحن كتبنا) للجمع مذكرًا ومؤنثًا.

ولكن الضمير فى حالة الخطاب والغياب يحتاج إلى التمييز فى الجنس والعدد، فميزته اللغة العربية كما ميزت الفعل مع الضمائر المختلفة فى العدد وفى الجنس، كما ميزت بين الفعل فى حالة التكلم وحالة الخطاب وحالة الغياب فنقول فى حالة الخطاب للرجل (أنتَ كتبتَ) وللمرأة (أنتِ كتبتِ) وللرجال (أنتم كتبتم) وللنساء (أنتن كتبتن) وللمثنى بنوعيه (أنتما كتبتما). ونقول فى حالة الغياب للرجل (هو كتب) وللمرأة (هى كتبت) وللرجال (هم كتبوا) وللنساء (هن كتبن) وللمثنى بنوعيه (هما كتبا).

بينما الضمائر فى لغات كالإنجليزية والفرنسية فلا تعرف المثنى ولا تفرق الإنجليزية بين الضمير المذكر والضمير المؤنث إلا فى حالة المفرد الغائب ويتساوى ضمير المخاطب فى الإنجليزية فى الجمع والتثنية والإفراد.

كما يتساوى الفعل فى الإنجليزية

اللغة العربية تدل على المبنى للمجهول بصيغة خاصة فى أوزان الفعل بينما الإنجليزية والفرنسية تدلان على المبنى للمجهول بعبارة؛ ففى العربية نقول (يُفتح الباب) بصيغة المجهول ولكن العبارة الإنجليزية التى تدل على ذلك هى The door is opened



العربيـــة فى سوق اللغات

مع الضمائر المختلفة فى الجنس والعدد سواء فى حالة التكلم أو الخطاب أو الغياب.

وفى العبرية كذلك لا نجد ضمائر مثناة كما أن العبرية لا تفرق فى صيغة الفعل بين الغائبات والغائبين فأصبحت لهما صيغة واحدة تشبه العامية المصرية (فعلوا) هذا مع الفعل الماضى أما مع الفعل فى المستقبل فهناك التباس بين مستقبل الغائبات ومستقبل المخاطبات.

ومما يبين دقة العربية كذلك ما نجده فى العبرية مثلاً من جزافية لا نعهدها فى العربية عندما أدخلت أداة التعريف على اسم الإشارة والمشار إليه، بينما أدخلت العربية أداة للتعريف على المشار إليه فقط، ولم تدخله على اسم الإشارة باعتباره معرفة ولا تعريف للمعرف.

وتتجلى دقة اللغة العربية حين نلاحظ أنها تفرق بين جموع للقلة وجموع للكثرة فتقول: (أبسط، أرغفة، أفراخ، فتية) للقلة، وتقول: (بسط، ورغفان، وقفول.. إلخ) للكثرة. وهذا ما لا نجده فى الإنجليزية ولا فى الفرنسية ولا فى العبرية.

كما نجد فى اللغة العربية (التصغير) وهو ما لا نجده فى لغات كالإنجليزية والفرنسية.

وفى اللغة العربية دونًا عن كثير من اللغات نجد كذلك أن التعبير عن اختلاف كيفيات الفعل ودرجاته متحقق من وفرة الأفعال التى تؤدى معنى كل كيفية ودرجة؛ فإذا تحدث المتحدث عن هبوب الريح ففى وسعه أن يقول: إنها نسمت أو خفقت أو سرت أو هبت، أو عصفت، أو قصفت أو تهزمت إلى أشباه هذا الترتيب فى القوة والتأثير.

كما أن التضعيف والزيادة فى اللغة العربية يؤديان معنى الفعل على درجات وأشكال شتى يستغنى بها المتكلم عن الظروف بعكس كثير من اللغات الأخرى كالإنجليزية والفرنسية مثلاً؛ ففى العربية من مادة الفتح - مثلاً - يمكن أن نقول: فتح وفتّح بتشديد التاء، وافتتح، واستفتح، وفاتح، وانفتح.. إلخ.

واجتزئ بما ذكرت فى التدليل على ما حظيت به العربية من اكتمال لغوى يهيئها لحمل رسالة عالمية، وهو قليل من كثير لا يتسع المقام لعرضه.

وأضيف هنا أنه كما تحتاج اللغة العالمية لكل ما سبق تحتاج كذلك لكل ما يجعلها رشيقة على اللسان محببة إلى الآذان ومن ثم يسهل على الأذهان حفظها واستذكارها.

أما الرشاقة فأكثر كلمات اللغة العربية ثلاثيًا ولا يتجاوز الاسم بالزيادة سبعة أحرف (وهو الخماسى المزيد بحرفين)، كما أن الفعل لا يتجاوز بالزيادة ستة أحرف (وهو الرباعى المزيد بحرفين) أما الإنجليزية والفرنسية فلا مقارنة لهما بالعربية فى هذا المضمار؛ انظر مثلاً كلمة (دين) فهى بالعربية مكونة من ثلاثة أحرف أما فى الإنجليزية وكذلك الفرنسية Religion فهى مكونة من ثمانية أحرف وكلمة مثل نبىّ فهى فى العربية مكونة من أربعة أحرف أما فى الإنجليزية Prophet فهى مكونة من سبعة أحرف، وفى الفرنسية Prophete مكونة من ثمانية أحرف، بل إن كلمة (مشرك) وهى فى العربية مكونة من أربعة أحرف نجدها مكونة من ستة عشر حرفًا فى الإنجليزية Associationnator وكذلك فى الفرنسية Associationniste.




وأما الموسيقية: فيعتمد الشعر الإنجليزى فى موسيقاه على النبر بينما يعتمد الشعر الفرنسى على عدد المقاطع فى كل بيت أما الشعر العربى فيعتمد على التفعيلات التى تكون بحور الشعر العربى التى ذكر الخليل بن أحمد الفراهيدى منها ستة عشر بحرًا، لكل بحر منها عدة صور، بل وللصورة الواحدة عدة تنوعات موسيقية، هذا بالإضافة إلى ما لم يذكره الخليل من فنون الشعر: كالموشح، والدوبيت، والزجل، والمواليا، والكان وكان، والقوما.. إلخ.

أضف إلى ذلك أن أوزان العروض العربية على إحكامها وإتقانها سهلة الأداء قابلة للتوسع والتنويع إلى الغاية المطلوبة فى كل موضع يتناوله الشعراء، ومن ثمة اختار شعراء اللغات الفارسية والعبرية والأوردية أن ينظموا بلغاتهم فى أوزان العروض العربية، وفضلوها على أوزانهم القديمة، لأنها أسهل منها وأجمل فى موقعها من الأسماع والنفوس.

كل هذا بعض مما هيأ العربية لحمل الرسالة الخاتمة، يبرهنه علم اللغة المقارن ويقتضيه العقل للغة الرسالة الخاتمة. فصدق حافظ إبراهيم فى قوله على لسان اللغة العربية:

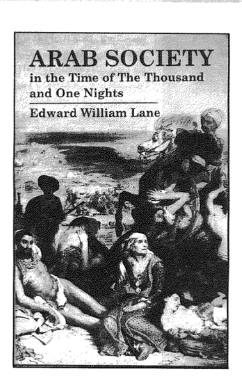
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية
وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى ■

زمــــن ألــــف

هــوامــش إدوارد لــيــن

ربما لا تنطبق عبارة إدوارد سعيد الشهيرة القائلة بأن «الشرق صناعة غربية» على شيء مثلما تنطبق على المكانة التى أخذتها «ألف ليلة وليلة» التى تجاوزت كونها عملا أدبيا لتصبح فى أحوال كثيرة مصدرًا رئيسيًا لتشكيل نظرة الغرب للشرق. ولتتحول عند الكثيرين لنص يمكن استخدامه كمرجع لعادات وتقاليد وتفكير المجتمعات الشرقية. إلى درجة أن واحدا مثل خورخى لويس بورخس يكاد يكون تأثره الشديد بالأدب الشرقى اقتصر إلى حد كبير على «ألف ليلة وليلة» لا غيرها. ولكن النقطة الجدلية هنا ليست تأثير هذا العمل فى العقليات المختلفة بوصفه عملا أدبيا فقط ولكن امتداد هذا التأثير ليشكل مرآة افتراضية للمجتمع العربى.

عندما ترجم المؤرخ الإنجليزى المعروف إدوارد وليم لين «ألف ليلة وليلة» رأى من الضرورى إضافة هوامش للعمل تشرح ما قد يخفى على القارئ الغربى من أشكال الحياة العربية التى قد ترد فى الكتاب. بعد ذلك قام أحد أحفاده ستانلى لاين بول بجمع هذه الهوامش فى الكتاب الذى بين يدينا. واختار له عنوان «الحياة العربية فى زمن ألف ليلة وليلة».



ومع انه اختار عنوان الكتاب بنفسه إلا أنه يعترف أن هذه الهوامش مبنية بشكل أساسى على مشاهدات إدوارد لاين فى القاهرة. أى انه لم يُبن كما يعتقد البعض - على بحث تاريخى للأحوال الاجتماعية فى زمن ألف ليلة وليلة كما أنه لم يمتد ليشمل باقى الأقطار التى جمعت منها القصص المتضمنة فى الكتاب وإنما اقتصر إلى حد كبير على الأحوال الاجتماعية فى القاهرة فى القرن التاسع عشر. وان كان فى الوقت نفسه يرجع للعديد من القصص من زمن هارون الرشيد على اعتبار أنه الزمن الأكثر ارتباطًا بألف ليلة وليلة. وبغض النظر عن الدقة التاريخية للمعلومات الواردة فى هذه الهوامش فإنها تشكل فى نهاية الأمر نافذة على الرؤية الغربية الاستشراقية التقليدية للمجتمع العربى.

والواقع أنه، وإن كانت المرأة - أميرة وجارية.. عاشقة أو معشوقة أو حائكة للمكائد قد احتلت، بحكم سحرها وغموضها وفتنتها، الجانب الأكبر من الصورة. إلا أنه فى الزوايا بعض من مشاهد أخرى.. هنا نماذج منها. وهى مرة أخرى - رغم عنوان الكتاب - من هوامش إدوارد وليم.

■■ تعد تنشئة وتعليم الأطفال من بين المجالات القليلة التى يلتزم فيها (المسلمون) إلى درجة كبيرة بتعاليم نبيهم (ﷺ) والتعاليم الدينية الأخرى. وحتى فى المسائل الأكثر تفاهة، فإن الأعراف الدينية هى دائما المرجع لكيفية التعامل مع الصغار. ومن بين الطقوس الأولى الواجبة أن يلف الطفل حديث الولادة فى لفافات نظيفة بيضاء أو من أى لون آخر عدا الأصفر. وبعد ذلك يجب أن يقوم شخص (من الذكور) برفع أذان الصلاة فى أذن المولود، حيث فعل النبى (ﷺ) ذلك فى أذن «الحسن» (رضى الله عنه) بعد أن ولدته فاطمة (رضى الله عنها)، أو أن يقوم الشخص برفع الأذان فى الأذن اليمنى للمولود وإقامة الصلاة (والتى لا تختلف كثيرا عن الأذان) فى أذنه اليسرى (كتاب نزهة المتأمل وبغية المتأهل، تأليف الشيخ الإمام العالم جلال الدين السيوطى رحمه الله، ٨٤٩-٩١١ هجرية، الفصل التاسع).

ومن بين العادات التى كان يتبعها الكثير من العرب فى السابق، وربما ما زالت موجودة لدى البعض منهم حتى الآن، أن يقيم الأب وليمة لأصدقائه فى اليوم السابع لولادة ابنه الذكر. أما فى حالة ولادة أنثى فإن ذلك يتم بقدر أقل من الابتهاج. أما التقليد العام المتبع الآن فهو مجرد إقامة احتفال فى اليوم السابع للولادة والذى يطلق عليه «يوم السبوع».

وفى تلك المناسبة تقوم عائلات الطبقة الراقية باستئجار مغنيات للترفيه عن السيدات صديقات أم المولود واللائى يزرنها فى جناح الحريم، أو يتم استئجار فرقة موسيقية، أو يقوم الرجال بتلاوة القرآن بكامله. وتجلس الأم فى كرسى مملوك للقابلة التى تكون حاضرة. ويتم إحضار المولود ملفوفا فى

فصل من كتاب:
Arab Society in the Time of the Thousand and one nights
(المجتمع العربى فى زمن ألف ليلة وليلة)
Edward William Lane
Dover, 2004, 283pp, $ 16.95
صدرت الطبعة الأولى عام ١٨٨٣.

ترجمة: عادل فتحى

ليـــــلة وليـــــلة!!

شال فاخر أو قماش ثمين. ولكى يتآلف المولود مع الضوضاء كى لا يصيبه الخوف بعد ذلك بسبب الموسيقى أو أصوات الاحتفال تقوم إحدى النساء بدق هون نحاسى مرارا كما لو كانت تطحن شيئا. وبعد ذلك يوضع الطفل فى غربال ويهز اعتقادا أن ذلك يفيد معدته. وبعد ذلك يطاف بالطفل فى كل غرف الحريم يصاحبه العديد من النساء والبنات اللاتى تحمل كل منهن عددا من الشموع متعددة الألوان أحيانا ويتم قطعها نصفين وإشعالها وتثبيتها فى عجينة الحنة على صينية صغيرة مستديرة. وفى الوقت نفسه تقوم القابلة . أو امرأة أخرى . برش خليط من الملح وبذور الشمر، أو الملح وحده، والذى كان قد وضع فى الليلة السابقة عند رأس المولود، على أرضية كل غرفة. وأثناء ذلك، تردد المرأة: «حصوة ملح فى عين اللى ما يصلى عالنبى» أو «حصوة ملح فى عين الحسود». وتعتبر عادة رش الملح وقاية للطفل والأم من العين الشريرة. وعلى كل الحاضرين أن يرددوا: «اللهم صلى على نبينا محمد». ويتم عرض الطفل على كل النساء الحاضرات ملفوفا وعلى وسادة رقيقة توضع أحيانا داخل صينية من الفضة. وتنظر كل منهن إلى وجه الطفل مرددة: «اللهم صلى على نبينا محمد، ربنا يرزقك طول العمر»، وعادة ما تضع منديلا مطرزا مع عملة ذهبية فى أحد الأركان عند رأس الطفل أو بجواره. ويعتبر منح المنديل والذهب دينا على الأم عليها أن ترده عندما تتكرر لدى مانح الهدية نفس المناسبة أو مناسبة مشابهة. وعادة ما تستخدم العملات المعدنية لتزيين غطاء رأس الطفل لعدة سنوات. وبعد تقديم الهدايا للطفل، تقدم هدايا أخرى للقابلة. وفى الليلة السابقة على احتفال السبوع يوضع عند رأس الطفل أثناء نومه إناء مملوء بالماء (دورق فى حالة الصبى، وقلة فى حالة البنت) مع منديل مطرز ملفوف حول عنق الإناء. وتأخذ القابلة الإناء بما يحويه من ماء وتضعه فوق صينية تقدمها لكل امرأة كى تضع لها فى الصينية هدية مالية. وعادة ما يقيم الزوج فى المساء احتفالاً لأصدقائه.

وتجرى طقوس دينية عديدة فى ذلك اليوم أو فى اليوم الرابع عشر أو الحادى والعشرين أو الثامن والعشرين أو الخامس والثلاثين بعد الولادة. ولكن من الأفضل كثيرا لتلك الطقوس أن تجرى فى اليوم السابع. ومن بين الطقوس تسمية المولود. ومع ذلك أعتقد أن الأكثر شيوعا أن تتم تسمية المولود بعد الولادة مباشرة تقريبا أو بعد ذلك بثلاث ساعات. وكان من المعتاد استشارة العرافين فى ذلك. ولكن الأكثر انتشارا وإتباعا فى العادة هو أن يمنح الأب ابنه اسما حسنا، ليس اسما يدل على تزكية النفس مثل «الرشيد» أو «الأمين» ونحو ذلك. قال النبى (ﷺ): «أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن». وقال النبى (ﷺ): «سموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى». ولكن يقال أن ذلك كان أثناء حياته (ﷺ) حيث كان يكنى بـ «أبا القاسم»، أما الآن فلا شىء فى ذلك. وكان البعض يكره الجمع بين الاسم والكنية كتسمية شخص بـ «محمد» و«أبا القاسم» فى نفس الوقت. وإذا ما سمى طفل باسم نبى فليس مسموحا بسبه أو تحقيره إلا إذا واجهه لائمه وجها لوجه وقال له «أنت كذا وكذا» دون ذكر اسمه. وإذا ما سمى الصبى محمد أو أحمد فهو يلقى تكريما خاصا. وقال النبى (ﷺ): «من سمى ولده باسمى أو باسم أولادى أو باسم أصحابى محبة فى وفيهم أعطاه الله تعالى فى الجنة ما لا عين نظرت ولا أذن سمعت». ولا يلقب الولد بـ «ملك الأملاك» ولا «سيد السادات». ويكنى الرجل بأكبر أولاده ولا يكنى قبل أن يولد له (نزهة المتأمل، الفصل التاسع). على سبيل المثال. ومن الشائع جدا أن يسمى الأطفال بأسماء الأنبياء أو صحابة النبى محمد (ﷺ) أو آل بيته. ولا تجرى طقوس خاصة عند تسمية المولود.

ومع ذلك، يتم فى نفس يوم السبوع تقليدان آخران سآتى على ذكرهما، رغم أنى أرى من ملاحظاتى وتحقيقاتى أن مسلمى اليوم - فى العموم - قد أهملوهما. التقليد الأول عبارة عن أضحية. والأضحية تسمى بالعقيقة. وهى إما أن تكون من الكباش أو الماعز. فيتم التضحية باثنين من تلك الحيوانات عند ولادة ذكر، أو واحدة فقط عند ولادة أنثى. ويعتبر «ابن حنبل» هذا الطقس ضروريا تماما. فقد قال: «من لم يذبح لولده عقيقة فمات (الولد) لا يشفع ذلك الولد يوم القيامة». أما أصحاب المذاهب الرئيسية الثلاثة الأخرى فيعتبرون العقيقة أقل أهمية، رغم أن محمدا (ﷺ) عق عن نفسه بعدما بعث نبيا. ويجب على من يقوم بذبح الأضحية أن يقول: «اللهم إن هذه العقيقة فداء ابنى فلان، فإن دمها بدمه، ولحمها بلحمه، وعظمها بعظمه، وجلدها بجلده، وشعرها بشعره، اللهم اجعلها فداء ابنى من النار». ولا يكسر عظم العقيقة. وتأخذ القابلة إحدى أفخاذها. ويجب طبخها دون قطع أى شىء منها. كما يجب توزيع جزء منها كصدقة.

وبعد العقيقة، يأتى التقليد الآخر المشار إليه آنفا: فمن السنة أن يقوم الأب - أو يكلف غيره - بحلق شعر المولود ويتصدق للفقراء بوزن شعره ذهبا أو فضة. ويستحب حلق الرأس أيضا للكافر إذا أسلم (نزهة المتأمل، الفصل التاسع). وفى المناسبات التالية لحلق رأس الطفل الذكر (حيث تحلق رأس الذكر مرارا) تترك خصلة من الشعر عند قمة الرأس، ومن المعتاد أيضا ترك خصلة أخرى لسنوات عديدة عند مقدمة الرأس.

أما الختان فيفضل أن يتم يوم السبوع (نزهة المتأمل، الفصل التاسع). ولكن من المعتاد تأجيل هذا التقليد حتى يبلغ الطفل سن الخامسة أو السادسة أو بعد ذلك بسنوات عديدة أحيانا.

يعتبر المسلمون أن الطفل أمانة من عند الله مودعة عند أبويه اللذين يكونان مسئولين عن طريقة تنشئته ويسألان عن ذلك يوم القيامة. بل يعتقد المسلمون أن «أول من يتعلق بالرجل فى القيامة أهله وولده فيقفون بين يدى الله تعالى فيقولون يا ربنا خذ لنا حقنا منه، فإنه ما علمنا ما نجهل، وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم، فيقتص لهم منه». ويعنى ذلك أن جزءا من حسنات هذا الرجل الذى أهمل أطفاله وزوجته سيوضع فى ميزانهم، أو أن جزءا مماثلا من سيئاتهم سيوضع فى ميزانه هو.

وتلتزم الأم طبقا للشرع بإرضاع طفلها عامين كاملين، ما لم يأذن لها زوجها باختصار المدة أو يستأجر مرضعة أخرى. ولإرضاع الطفل تطلب لإرضاعه امرأة صالحة تأكل الحلال، فان الحرام يظهر شره فيه. فقد قال النبى (ﷺ).. «الرضاع يغير الطباع». ولكن من المستحسن طبقا للسنة أن تقوم الأم بإرضاع طفلها بنفسها حيث يعتقد أن لا شىء أفضل للطفل من لبن أمه، وأنه إذا رضع من امرأة أخرى فلن يكون على الفطرة السليمة.

وباعتبارهم نعمة قد تكون موضع حسد، يوجه الأبوان المسلمان إلى الأطفال أقصى عناية ممكنة. وهما يلجآن إلى وسائل مختلفة لحمايتهم من تأثير عين الحسد أو الشر. فعند خروجهم يرتدى الأطفال عادة ملابس أبعد ما تكون عن الأناقة، ويخرجون دون اغتسال، بل ويجرى تلطيخهم عمدا بالقاذورات. وكإجراء وقائى آخر توضع على رأس الطفل قبعة رائعة، أو يزين غطاء رأسه بواحدة أو أكثر من العملات المعدنية مع ريشة وشرابة زاهية، أو تعويذة سحرية أو اثنتين مخاطتين فى كيس جلدى أو مغلفتين بالذهب أو الفضة، أو بعض الإكسسوارات الأخرى التى تجذب الانتباه بحيث يمر الطفل نفسه دون أن يلاحظه أحد. وإذا ما عبر أحد عن إعجابه بالطفل دون ترديد أدعية دينية معينة مثل حمد الخالق بعبارة «سبحان الله»، أو «ما شاء الله» إلخ، أو بالصلاة على النبى (ﷺ)، فإن ذلك يثير حفيظة الوالدين فيلجآن إلى الخرافات لمعادلة الأثر الخطير لنظرة الحسد. أما أطفال الفقراء فهم أقل عرضة لهذا الخطر الوهمى نظرا لمظهرهم غير الجذاب. فليس لديهم فى العادة إلا

إدوارد وليـــم ليـــــن

القليل من الملابس إن وجدت، كما أنهم فى منتهى القذارة. أما أطفال الأغنياء فيبقون معظم الوقت فى جناح الحريم وذلك يحميهم جزئيا من العين الشريرة. وهم هناك يدللون لسنوات طويلة حتى يصلوا على الأقل إلى سن المدرسة. ولكن معظمهم يتلقون تعليمهم بالمنزل.

يتم تدريب أطفال المسلمين على احترام آبائهم إلى درجة قد تبدو متناقضة مع وجود الحنان المتبادل. ولكنى لا أعتقد ذلك. فالطفل يحيى والده فى الصباح بتقبيل يده، وعادة ما يقف بعد ذلك أمامه احتراما له واضعا يده اليمنى فوق اليسرى منتظرا منه أى أمر أو الإذن بالانصراف. ولكن بعد قبلة الاحترام هذه، عادة ما يؤخذ الطفل فى حجر والده. وبعد انقضاء فترة الطفولة نادرا ما يجلس الطفل حسن التربية فى حضرة والده. ولكن يسمح له فى العادة بكثير من الألفة أثناء طفولته. كان من بين جيرانى الأقربين فى القاهرة تاجر سورى. وكان له طفل رائع الجمال لدرجة أن الجميع ظنوا أنه ابنته. ورغم أنه كان مسلما متشددا، إلا أنه كان يصطحب ابنه معه يوميا من المنزل إلى حانوته. وكان الطفل يتبعه جالسا فوق حمار يسحبه عبد أسود. وحتى سن السادسة تقريبا كان الطفل يرتدى ملابس الفتيات ولكن دون خمار. ثم رأى الأب أن اصطحاب طفلة معه فى تلك السن قد يبدوا أمرا مستهجنا، فألبس ابنه المدلل ملابس الصبيان وأخبر أصدقاءه أن الغرض من الملابس النسائية كان حمايته من العين الشريرة، حيث أن الفتيات أقل عرضة للحسد من الصبيان. إن ذلك يحدث بالفعل أحيانا، وربما كان ذلك هو الحال فى تلك القصة، ولكنى لم أعتقد ذلك. فطوال العام الذى بقيته فى القاهرة بعد ذلك كنت أرى هذا الطفل يمر أمام منزلى كالسابق ولكن دائما فى ثياب صبى.

ولا يثير الدهشة أن مواطنى بلدان المشرق - حيث لا تتكلف تربية الأطفال شيئا يذكر - تكون لديهم عادة رغبة عارمة فى الحصول على كثير من الأطفال. وتؤدى هذه النزعة للمصلحة الشخصية بالضرورة إلى الاعتزاز بذلك الشعور عند المرأة. فتقدير الرجل لزوجته يتناسب فى العادة مع خصوبتها، ونادرا ما يرغب الرجل فى تطليق زوجة أو بيع جارية تكون قد ولدت له طفلا. ويؤدى شعور مماثل بالأبوين أيضا إلى الرغبة فى الحصول على ذرية وفى الوقت نفسه إلى التسليم بفقدان أطفالهم الذين يتوفون فى سن صغيرة. وينبع ذلك الشعور من الإيمان بأن فقدان أطفالهم فى سن صغيرة سيكون له ثواب كبير للأبوين فى العالم الآخر.

ويروى أن الأطفال يجتمعون فى الموقف يوم القيامة عند عرض الخلائق للحساب، فيقال للملائكة: «اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة»، فيقفون على باب الجنة وفيقال لهم: «مرحبا بذرارى المسلمين، ادخلوا لا حساب عليكم». فيقولون: «أين، آباؤنا وأمهاتنا». فتقول الخزنة: «إن آباءكم وأمهاتكم ليسوا منكم إنهم كانت لهم ذنوب وسيئات فهم يحاسبون عليها ويطالبون بها». فيتصارخون ويضجون على باب الجنة ويصيحون صيحة عظيمة، فيقول الله تعالى وهو أعلم بهم: «ما هذه الصيحة؟». فيقولون يا ربنا، أطفال المسلمين قالوا لا ندخل الجنة إلا مع آبائنا. فيقول الله تعالى: «أدخلوا الجميع فخذوا بأيدى آبائكم وأدخلوهم الجنة». والأطفال الذين تكون لهم تلك القدرة هم فقط أبناء المؤمنين الذين توفوا قبل أن يدركوا الذنوب. فمثل هذا الطفل يدخل أبويه الجنة. وهؤلاء الأطفال يدخلون الجنة لأنهم ماتوا فى الصغر لأبوين مؤمنين وكان مقدرا لهم أن يكونوا مؤمنين لو عاشوا إلى سن البلوغ. وبنفس اليقين فعند وفاة طفل لعبد من عباد الله فإن الله سبحانه وتعالى يقول للملائكة: «قبضتم ولد عبدى؟» فيقولون: «نعم». فيقول: «قبضتم ثمرة فؤاده؟» فيقولون: «نعم». فيقول: «ماذا قال عبدى؟» فيقولون: «حمدك يا رب وإسترجعك» فيقول الله تعالى: «ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد».

وبالإضافة لتلك الأعراف التى تروج لمزايا الزواج، فإن القصة التالية لها طبيعة مشابهة. يحكى عن بعضهم أنه كان لا يتزوج، فبينما هو نائم إذ انتبه من نومه ذات يوم فزعا وقال لجماعته زوجونى. فقالوا له ما بالك قمت من نومك فزعا؟ قال رأيت فى المنام كأن القيامة قد قامت وكأنى من جملة الخلائق فى الموقف وبى من العطش ما يقطع عنقى، فإذا ولدان يتخللون الجمع وبأيديهم أباريق من فضة وأكواب من ذهب يسقون الواحد بعد الواحد، فمددت يدى إلى أحدهم وقلت: «اسقنى فقد أجهدنى العطش». فقالوا: «ليس لك فينا ولد، وإنما نسقى آباءنا». فقلت: «من أنتم؟». فقالوا: «نحن من مات من أطفال المسلمين المؤمنين». وهناك جوائز خاصة بالأمهات فى الجنة. فقد قال النبى (ﷺ): «إذا حبلت المرأة من زوجها سميت فى السماء شهيدة، وكان نفاسها جهادا وخدمتها لصبيانها سترا من النار».

وإذا تكلم الطفل توجب على الأب أن يعلمه أولا نطق شهادة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». يلقنه ذلك سبع مرات. ثم يلقنه «فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم» (سورة المؤمنون - آية ١١٦). وعليه أيضا أن يلقنه آية الكرسى والآيتين الأخيرتين فى سورة الحشر (نزهة المتأمل، الفصل التاسع).



وما أن يصل الصبى إلى سن مناسبة حتى يقوم أبوه بتعليمه أهم قواعد السلوك القويم. فيضع أمامه بعض الطعام ويأمره أن يمسكه بيده اليمنى حيث تستخدم اليد اليسرى للأغراض غير النظيفة، ويقول عند البدء فى تناول الطعام «بسم الله»، وأن يأكل مما يليه، ولا يسرع فى الأكل أو يسقط شىء من الطعام على نفسه أو ملابسه. كما يعلمه أنه ليس من اللائق تناول طعام أكثر من اللازم. ويجب عليه خصوصا أن يقبح لديه حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذره منهما أكثر من التحذير من الحيات والعقارب، ويمنع من البصاق فى مجلس أو يخرج عن السلوك القويم مثل كثرة الكلام وتحويل ظهره إلى غيره أو الوقوف معوجا أو التحدث بسوء عن أى شخص. ويجب على الأب أن يحفظ ابنه من قرناء السوء ويعلمه القرآن وكافة التعاليم السماوية والنبوية، كما يعلمه السباحة والرماية، وأن يعلمه حرفة صالحة لأن الحرفة أمان من الفقر. كما يأمره بالصبر على عقاب معلمه. وفى الحديث فإذا بلغ ست سنين أدب، فإذا بلغ تسع سنين عزل فراشه، فإذا بلغ عشر سنين ضرب على الصلاة. فقد قال النبى (ﷺ) «مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم لعشر، وفرقوا بينهم فى المضاجع» (نزهة المتأمل، الفصل التاسع).

تتم عملية الختان عامة قبل أن يصل الصبى إلى سن المدرسة. وإذا كان الطفل ينتمى إلى طبقات المجتمع العليا أو المتوسطة، فعادة ما ينظم له قبل عملية الختان استعراض فى الحى الذى يقطنه والديه مرتديا ملابس بهيجة نسائية فى الغالب ومزينة بالحلى مع عمامة صبيان فوق رأسه وجالسا فوق حصان تسبقه فرقة

موسيقية وتتبعه جماعة من النساء والفتيات من أقاربه ومعارفه. ويحضر تلك الطقوس عدد كبير من الجمهور فى مناخ فخم مع ولائم فاخرة. وقد أورد الجبرتى وصفا لاحتفال بمناسبة ختان ابن قاضى القاهرة سنة ١١٧٩ هجرية (١٧٦٦ ميلادية)، حيث أرسل له الأشراف وكبار التجار والعلماء بالمدينة الكثير من الهدايا حتى امتلأت مخازن منزله الكبير بالأرز والزيد والعسل والسكر. و امتلأ البهو الكبير بالبن، ووسط الفناء بالحطب. وقد استمتع الجمهور طوال أيام بعزف الموسيقيين وأداء الممثلين من مختلف الألوان. وعندما كان يتم استعراض الصبى خلال الشوارع كان يصحبه العديد من المماليك بجيادهم بديعة الزركشة وأسلحتهم ودروعهم الرائعة وفرقة موسيقى الجيش يتبعهم عدد كبير من الصبيان كان يتم ختانهم معه لاحقا مجاملة له. وكانت تلك العادة الأخيرة رائجة فى تلك المناسبات، وكذلك إرسال الهدايا - مثل المذكورة سابقا - من قبل الأصدقاء والمعارف والتجار. وعندما ختن الخليفة المقتدر فى احتفال مشابه خمسة من أولاده بلغت الأموال التى وزعت كهبات ستمائة ألف قطعة ذهبية أو ما يوازى ثلاثمائة ألف جنيه إسترلينى. كما تم فى اليوم نفسه ختان كثير من الأطفال اليتامى وأهديت إليهم الملابس والقطع الذهبية (كتاب: مرآة الزمان، أحداث العام ٣٠٢ هجرية). وقد اشتهر الخليفة المقتدر بكرمه. وأثناء الاحتفالات المعتادة بمناسبة الختان، يتلى القرآن بكامله فيما يسمى بحلقات الذكر. وفى احتفالات أخرى يقوم راقصون أو راقصات بأداء الرقصات الشعبية فى ساحة المنزل أو فى الشارع أمام باب المنزل.

إن عددا قليلا من الأطفال العرب يتلقون تعليما ثقافيا، وعدد أقل منهم يحظى بدراسة المبادئ الأولى للعلوم التخصصية. ولكن العديد من المدارس متوفرة فى المدن، وتوجد واحدة على الأقل تقريبا فى كل قرية متوسطة الحجم. ومدارس المدن تكون فى الغالب ملحقة بالمساجد والأبنية العامة الأخرى، ويقوم الأمراء أو وجهاء المجتمع أو التجار الأغنياء برعاية وتمويل تلك المدارس والأبنية. ويتلقى الأطفال فى تلك المدارس تعليمهم مجانا أو فى مقابل رسوم أسبوعية زهيدة يستطيع معظم الآباء توفيرها باستثناء المعسرين. وفى العادة لا يقوم المدرس بتدريس أى شىء سوى قراءة القرآن وتلاوته بكامله عن ظهر قلب. وبعد أن يحفظ الطفل فاتحة الكتاب فإنه يبدأ فى تعلم بقية القرآن بعكس ترتيبه حيث أن حجم سور القرآن مرتب تنازليا عامة. فالسور الأطول تأتى أولا والسور الأقصر تأتى فى النهاية. ويقوم مدرس آخر فى العادة بتعليم الكتابة والحساب. أما دراسة النحو والبلاغة والشعر والمنطق وتفسير القرآن وكافة نواحى الدين والشريعة وكذلك كل أنواع المعارف الضرورية، والتى قليلا ما تتضمن المبادئ الأساسية للرياضيات، فتتم كلها فى مسجد جامع وبدون مقابل، حيث أن المعلمين لا يتقاضون أى راتب سواء من الطلاب الذين ينتمى معظمهم إلى الطبقات الفقيرة أو من ميزانية المسجد.

وعادة ما يستأجر الأغنياء لأبنائهم معلما خاصا. وبعد أن يتعلموا قراءة وتلاوة القرآن، يدرس لهم معلم آخر الكتابة، وبعد ذلك يذهبون للكلية. ولكن أهم فروع المعرفة عند تلك الطبقة بعد الدين هى الآداب الرفيعة. فالتعرف على أعمال بعض الشعراء المفضلين بالقدر الذى يمكن الرجل من الاستشهاد بهم بين الحين والآخر فى وجود صحبة، يعد عند العرب من الضروريات للابن الذى سيندمج فى المجتمعات الراقية. وبجانب ذلك، عادة ما تصقل مواهب الشاب فى نظم الشعر والذى يعد - للعجب - شيئا يسيرا، نظرا لثراء اللغة العربية وقواعدها النحوية. وبينما ساهمت خصائص اللغة العربية البديعة والتى نلمسها فى الحفاظ البارع على قافية واحدة للقصيدة بكاملها كما هو شائع بين العرب، ساهمت - من جهة - فى رواج كبير لمؤلفات كبار الشعراء، فإنها - من جهة أخرى - ساهمت كثيرا فى تدهور مستوى الشعر العربى. فبالنسبة لأى عربى نال قدرا ضئيلا من التعليم، فإن التحدث شعرا بالنسبة له هو - تقريبا - فى نفس سهولة التحدث نثرا. وعلى ذلك فإنه عادة ما يقحم فى كتاباته النثرية - وكذلك محادثاته - أبياتا شعرية متنوعة تتميز أساسا بالتورية والتلاعب بمعانى الكلمات أو بالاستخدام البارع لعدد من الكلمات التى تتشابه كثيرا فى النطق ولكنها تختلف فى المعنى. وقد ورد ذلك كثيرا فى حكايات «ألف ليلة وليلة» حيث يقوم الشخص فجأة أثناء حديثه بالتحول من النثر إلى الشعر ثم يعود إلى النثر مرة ثانية.

ويجب أن أذكر هنا واجبا آخر للأب تجاه ابنه، ألا وهو أن يزوجه بمجرد أن يصل إلى سن مناسبة. ويحدد البعض تلك السن بعشرين عاما، ولكن مع ذلك فإن الكثير من الشباب يتزوجون قبل ذلك. ويقال أنه ما أن يصل الابن إلى سن العشرين، فعلى أبيه إن كان قادرا أن يزوجه، ثم يمسك بيده ويقول: «لقد أدبتك وعلمتك وأنكحتك. أعوذ بالله من فتنتك فى الدنيا وعذابك فى الآخرة». وللوفاء بهذا الواجب يقال أنه «إذا بلغ الابن ولم يزوجه أبوه رغم قدرته، فأحدث الشاب حدثا فالإثم بينهما (نزهة المتأمل، الفصل التاسع)، أو - فى مقولة أخرى - على الأب وحده». وينطبق ذلك أيضا بالنسبة للابنة التى تصل إلى سن الثانية عشرة.



يتم تدريب أطفال المسلمين على احترام آبائهم إلى درجة قد تبدو متناقضة مع وجود الحنان المتبادل. ولكنى لا أعتقد ذلك



ومن النادر بالنسبة للفتيات العرب أن يتعلمن مجرد القراءة. ورغم أنه مسموح لهن بالالتحاق بالمدارس اليومية التى يتعلم فيها الأولاد، إلا أن الغالبية العظمى من الآباء يحرمون بناتهم من تلك الميزة. وإذا سمحوا لهن بأى تعليم ثقافى، فهم يفضلون استخدام شيخة لتعليمهن بالمنزل. وهى تعلمهن أداء الصلاة وحفظ بعض سور القرآن عن ظهر قلب، وأحيانا قليلة جدا القرآن بكامله. وبعض الآباء بالفعل يصرفون بناتهم عن أجزاء معينة من القرآن. فهم مثلا يعلمونهن سورة «النور» التى تذكر المحرمات والوعيد والعقاب. ولكنهم يصدونهن عن سورة «يوسف» بسبب قصة «زليخة» مع «يوسف» (نزهة المتأمل، الفصل السادس).

وليس من النادر أن تتعلم الفتيات العربيات أشغال الإبرة، وإن كان ذلك لا يتم أيضا على نطاق واسع. وعادة ما تستخدم ورش الغزل بنات من الطبقات الفقيرة، والبعض منهن يتعلمن النسيج. أما بنات الطبقات المتوسطة والعليا فعادة ما يتعلمن فن التطريز وأعمال الزينة والتى تدرس فى المدارس والمنازل. أما الغناء والعزف على العود، واللذان كانا فى السابق من المهن الشائعة للنساء لدى أثرياء العرب، فقد اقتصرا الآن إلى حد كبير - مثل الرقص - على محترفات لتلك الفنون وعدد قليل من الجوارى فى أجنحة حريم كبار القوم. ومن النادر تماما الآن رؤية أى آلة موسيقية فى يد سيدة عربية، باستثناء «الطار»، ونوع من الطبول يسمى «دربكة»، واللذين يوجدان فى العديد من أجنحة الحريم ويتم الدق عليهما بالأصابع. وكانت السيدات يوجهن عناية خاصة أيضا لتعليم بناتهن أناقة الحركة والمشى وكذلك مختلف فنون الغواية والإثارة الحسية والتى ستزيد من ارتباطهن بأزواج المستقبل.

لقد سمعت عربا يعترفون أن أمتهم تملك تسعة أعشار الحسد الموجود بين كل الجنس البشرى، ولكنى لم أر أى دليل مكتوب على ذلك. لقد نسب «ابن عباس» تسعة أعشار المكر والدهاء فى العالم للأقباط، وتسعة أعشار الغدر لليهود، وتسعة أعشار الغباء للمغاربة، وتسعة أعشار الصرامة للأتراك، وتسعة أعشار الشجاعة للعرب. ووفقا لـ «كعب الأحبار» فإن سوريا تتميز بالحكمة والتمرد فى آن واحد، ومصر بالخصب والانحلال، والصحراء بالبؤس والصحة. ويقال أيضا أن اليمن يتميز بالإيمان والتواضع، وسوريا بالشجاعة والعصيان، والعراق بالكبرياء والنفاق، ومصر بالثروة والفساد، والصحراء بالفقر والبؤس. وقد ذكر «كعب الأحبار» أيضا أن أفضل نساء العالمين (باستثناء نساء قبيلة قريش اللاتى ذكرهن النبى (صلى الله عليه وسلم) هم نساء البصرة، وأن أسوأهن هم نساء مصر (خطط المقريزى والإسحاقى). ■

الإســلام... والحــريــة



▪ تناقش هذه المقالة كيف أن العلوم الاجتماعية عامة، والأنثروبولوجيا خاصة يمكن أن تعيد قراءة التاريخ تأويليا، لتستخرج منه رسائل جديدة ووعيًا مختلفًا. ومناقشة هذا المنهج فى قراءة تاريخ الإسلام له أهمية خاصة إذ أن هذه القراءة تجول فى عالم كان مغلقا إلا على المفسرين والفقهاء فتقدم منهجا جديدا يمكن أن يعين فى حل مشاكل فكرية عديدة تجمعت على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان، تصارعت فيه الأفكار والاتجاهات، وكل يكفر الآخر أو يتهمه بالمروق والزندقة، وكل يعلن أنه ممسك بالحقيقة المطلقة، وغيره فى ضلال، وهو ما زج بالأمة الإسلامية فى صراعات جانبية، وحجب عنها مواكبة العصر والتفاعل معه، والتأثير عليه.

ولأن حقوق الإنسان عامة، هى من أهم ما يشغل المهتمين بالإسلام، مهاجمين أو مؤيدين، أو مدافعين، فإن هذه المقالة تتوجه بصفة خاصة إلى هذه المنطقة الحساسة فى رؤية جديدة، لا تستخدم فيها الفقه الدينى، أو النصوص المقدسة تفسيرا أو تأويلا، وإنما تهتم بقراءة السياق التاريخى للدعوة الإسلامية فى محاولة لاستجلاء دلالاتها الإنسانية والاجتماعية، ومن خلال هذه الدلالة يمكن العودة إلى قراءة النص من منظور مختلف، وهو أمر ليس فى اختصاص الباحثة بقدر ما هو تمهيد للمختصين فى الفقه والتفسير ليخرجوا علينا بتأويلات جديدة، تتناسب والعصر الذى نعيش فيه.

بغض النظر عن الحادى عشر من سبتمبر وما ترتب عليه من انتشار «الإسلام فوبيا» Islam-phobia يلاحظ عمومًا أن الثقافات فى الشرق والغرب تقوم بحركات إحيائية من أجل ترسيخ الثقافات المحلية، وتعمق من التناقضات بينها وبين الثقافات الأخرى، مما جعل علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا يرصدون هذه الظواهر ويصفون الحاضر من خلال ما أطلقوا عليه ما بعد الحداثة، حيث تمزقت الحقيقة بين رؤى مختلفة، وأصبح التجزؤ والتشرذم سمة من سمات الواقع الذى نعيشه.

فى هذا الواقع المتشرذم نحن فى حاجة إلى إعادة بناء مساحة مشتركة بين الثقافات - على الأقل فى مجال حقوق الإنسان، ومن هنا جاءت تلك المحاولة فى إعادة قراءة حقوق الإنسان فى الإسلام باستخدام الأنثروبولوجية التأويلية.

الأنثروبولوجيا التأويلية كما عرفها كليفورد جرتس تؤكد أن الثقافة هى كل مركب من الرموز[1]. وليس كلا مركبا من الاتجاهات والقيم إلى آخر تعريف تيلور الأكثر ذيوعا- قد فتح بابا لمحاولة التفسير والتأويل دون اختزال وصفى، ودون إسقاط أيديولوجى، وعليه فإن فهم الثقافة أو شرحها لا بد أن يأخذ فى الاعتبار أمورا على جانب كبير من الأهمية، متضمنا اللحظة التاريخية من حيث هى لحظة تعكس المعرفة، وايضا مستهدفا الفهم فى السياق الرمزى المركب الذى حدث فيه الفعل أو الحدث. ولذا فمن الخطأ الكبير أن نقرأ - على سبيل المثال- النصوص المقدسة، مركزين على البعد اللغوى فقط، دون الأخذ فى الاعتبار معنى النص فى المحتوى الثقافى الاجتماعى، ودون النظر إلى الكلية الفكرية المفاهيمية التى دعت إليها دعوة ما. وبنفس القدر فإنه من الخطأ الجسيم أن ننظر إلى بعض الأفعال المرتبطة بالبيئة والثقافة فى خارج محتواها الثقافى الذى ظهرت فيه.

وهكذا يمكن إزالة اللبس الفكرى المرتبط فى أذهان الفكر الغربى والإسلامى على السواء فى رؤيته للدعوة الإسلامية خارج نطاقها التاريخى. فهذه الرؤية سجنت واختزلت هذه الدعوة فى أطر جامدة، وبالتالى فشلت فى أن تجعل من الإسلام قوة دفع إلى الأمام كما كان فى العهد الأول، إبان حياة الرسول (صلعم). وليس معنى القول فى رؤية الدعوة الإسلامية فى إطارها التاريخى هو اختزالها إلى دعوة تنتمى إلى الماضى وليس لها دلالة فى الحاضر. بل إن هذه الرؤية خليقة بأن تعيد اكتشاف الدعوة من جديد، وإعادة صياغتها معرفيا فى ضوء المتغيرات الحاضرة.

الإطار المنهجى

لقد كان فيبر أول من لفت النظر إلى «المعنى» وراء الفعل، وأخذ جيرتس هذه المقاربة إلى مجالات أوسع حيث اعتبر أن كل ما ينتج عن الإنسان هى رموز، تتطلب تفسيرا. وهذه الرموز لا تقف بمعزل عن بعضها البعض، بل هى تُكون مصفوفة متشابكة، ولذا فإن فهم ماتعنيه لايتم بدون إدراك للبناء الذى تقع فيه. «وعند النظر إلى السلوك الإنسانى من منظور بعده الرمزى، يصبح الفعل الإنسانى مثله مثل الصوت فى الحديث أو الخط فى الكتابة، أو الصوت فى الموسيقى، مما يجعل التساؤل عما إذا كانت الثقافة سلوكا منمطا أو أنها مرجعية عقلية، أو مزيجا من الإثنين سؤالا لا معنى له، السؤال الجدير بالذكر هنا هو ما الذى ينتج عنه الفعل، والواقع إن دينامية الثقافة وحيويتها رهن بقدرة الرموز المستخدمة على تجديد معانيها بصورة مستمرة، بحيث تضيف إلى المعنى المكتسب أعماقا جديدة.

وعلى ضوء هذا المنهج يمكن النظر إلى القيم الداعية إلى حقوق الإنسان من خلال فهم ما أشارت إليه الممارسات فى عهد الرسول، واعتبار تلك الممارسات «رموزًا» قابلة للتحليل والتفسيرفى ظل سياقاتها الأيديولوجية، وسيظهر البحث كيف أن دلالات هذه المعانى قد تطورت وكونت طبقات متراكمة من التفسيرات على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان، مالبثت أن حجبت الأساس الذى تحركت منه. وإعادة تفسيرها مرة أخرى يستلزم غوصا فى أعماق تلك التفسيرات، طبقة بعد أخرى، ثم إعادة تركيبها من جديد، استعادة لحيويتها وفاعليتها فى هذا العصر.

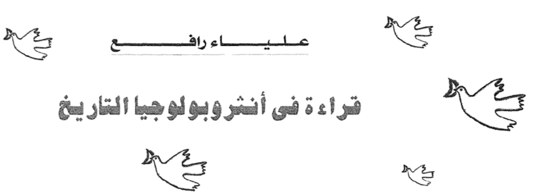
هذه المحاولات المنهجية فى التفكيك والتركيب هو ما يشير إلى ما عبر عنه جيرتس «الوصف السميك» «إنها دراسات تنشأ على دراسات أخرى، ليس بمعنى أن الأخيرة تبدأ من حيث انتهت الأولى، ولكن بمعنى أنه كلما أردنا فهما أفضل عن نفس الموضوع، فإن ذلك يعنى إعادة دراسته بعمق أكبر وأشمل». وهو أيضا ما عناه فيكتور ترنر بالأنموذج الأصل root paradigm ويقصد به ذلك الجانب الثقافى الذى يمثل الجذر أو الأصل الذى يشكل الكيان الثقافى، فهو مثله فى ذلك مثل الجينات التى تشكل الصفات والخصائص للجسم الإنسانى.

ويصل جيرتس إلى نتيجة مؤداها أن الدين هو نسق ثقافى له دينامية خاصة به، ولا يجب أن نراه من منظور أنه انعكاس للبناء الاجتماعى كما يفعل الوظيفيون الكلاسيكيون، ولا مجرد تعبير عن أيديولوجيات تعكس علاقة

نحن فى حاجة إلى إعادة بناء مساحة مشتركة بين الثقافات - على الأقل فى مجال حقوق الإنسان، ومن هنا جاءت تلك المحاولة فى إعادة قراءة حقوق الإنسان فى الإسلام باستخدام الأنثروبولوجية التأويلية



وحقـــوق الإنســـان...



علـــيـــاء رافــــع

قراءة فى أنثروبولوجيا التاريخ

بين الطبقات كما يفسرة الماركسيون. ولكن الدين له بناء ثقافى خاص ليس منعزلا عن البناء الاجتماعى، ولكنه ليس انعكاسا لهذا البناء. وبناء على ذلك فإنه من الأهمية بمكان ألا تقتصر دراسة المواضيع الدينية اجتماعيا أن نكتفى بالنظر إلى الموقف الاجتماعى فقط الذى يصاحب النظرة الأيديولوجية الدينية، ولكن علينا كذلك أن نبحث عن جذور هذا الفكر الأيديولوجى. ويعنى ذلك أن الأنثروبولوجى يتجه اتجاهين، أحدهما أفقى والآخر رأسى. وأعنى بالخط الأفقى أى القدرة على فهم المعانى المركبة فى سياقها (الآنى) الرمزى. وأما الحركة الرأسية فأعنى بها القدرة على الربط بين (الآن) وما يحويه من نظام رمزى مركب، وبين دلالات هذا النظام مع الجذور الأيديولوجية. فى هذه الورقة تحاول الباحثة أن تتبع منهجا تفكيكيا، ثم تعيد تركيبه فى إطار العصر، معبرة عن دلالات الرموز الأساسية فى الإسلام بلغة عصرية، ومتبنية على الأخص اصطلاحات حقوق الإنسان.

صحيح أن حياة النبى محمد (صلعم) معروفة وقد تناولتها عديد من الأقلام، ولكننا ها هنا نحاول أن نعيد بناء الدلالات التى تحملها هذه السيرة، وكيف أعيد صياغتها على مدى التاريخ بصورة قد تختلف كثيرا أو قليلا عن مغزاها الذى يمكن رؤيته بالمنهج الأنثروبولوجى. وفى تلك المحاولة فإننا نحاول أن نتعايش مرة أخرى مع العصر الذى ظهرت فيه الرسالة. وقد يكون من المستحيل أن نقفز فوق الزمن تماما، ونغلق الفجوة بيننا وبين الحياة التى عاشها العرب وقت ظهور الدعوة الإسلامية، ولكننا نحاول أن تكون تلك الفجوة ضيقة على حد الإمكان، ولهذا يظل هذا التحليل هو إحدى المحاولات التأويلية القابلة للنقد، فليس هناك كلمة أخيرة. «إن أى قراءة جيدة لأى شىء -للشعر، للتاريخ، للطقوس، للمؤسسات، أو المجتمع - تأخذنا إلى اللب الذى تدور حوله هذه القراءة».

وفيما يتعلق بحقوق الإنسان فى العالم الإسلامى، فإن الاقتراب من هذا الموضوع على جانب كبير من الحساسية، إذ أننا سنلاحظ أن الكثير من الممارسات الدينية تأخذ معانى مختلفة فى أنحاء متفرقة فى الدول الإسلامية، بينما وعلى نفس الصعيد نجد أن ما يتعلق بقهر الإنسان يأخذ أيضا أشكالا مختلفة، وبتعبير جرتس فإن «النبيذ القديم قد يصب فى زجاجات حديثة الصنع، وقد تحتوى الزجاجات القديمة على نبيذ حديث الصنع» ويعنى هذا أنثروبولوجيا إدراك كيف أن الجذور يمكن أن تغذى انتشار بعض الرموز التى قد لا تكون معبرة تماما عن المعانى التى حملتها منذ القديم.

حقوق الإنسان فى الدعوة

من المعروف أن الإسلام قد قام على الدعوة إلى التوحيد التى يمكن أن نعبر عنها أنثربولوجيا بأنها «نموذج الحقيقة» الذى أعاد صياغة التفاعل بين المتابعين لدعوة الرسول وبين بيئتهم الاجتماعية، ومن ثم أتاح لهذا الدين الجديد أن ينتشر خارج حدود الجزيرة العربية. والمقولة الرئيسية التى خلص إليها تحليل فحوى الدعوة الإسلامية هى أن دعوة التوحيد قد غيرت الرؤية إلى العالم، وكان لها أثرها فى إعادة صياغة المهمشين فى مكة من رؤيتهم لأنفسهم، وثورتهم على أوضاع الاستعباد التى كانت سائدة كجزء طبيعى من النظام الاجتماعى. بعبارة أخرى ساعد نموذج الحقيقة الذى قدمه الإسلام على تكوين رؤية جديدة للواقع الاجتماعى تبين فيه المستضعفون أنهم قادرون على خلق واقع جديد بإرادتهم الحرة التى اكتشفوها.

إن ما قدمته الدعوة الإسلامية لم يكن يندرج تحت تغيير مسلمات فى العقيدة، ولكنه أعطى للعقيدة فى الله بعدا واقعيا. والدليل على ذلك أن فكرة التوحيد فى صورتها الخالصة قد قام بها ودعا إليها عدد من الأفراد قبل نزول الوحى على الرسول لم تؤد إلى نفس النتائج التى أدت إليها الدعوة الإسلامية[٢]. ولكن الأمر اختلف بالنسبة للرسول ومتابعيه، ويمكن فهم هذا البعد الاجتماعى عند إلقاء نظرة على حالة مكة قبل الدعوة، ثم تحليل مغزى الدعوة وواقعيتها على مستوى الفعل وعلى مستوى القول.

أدى موقع مكة الاستراتيجى إلى استقرار قبيلة قريش فيها، مما أدى إلى زيادة الموارد المالية القادمة من التجارة والحج، أصبح سادة قريش أكثر اهتماما بتعظيم ثرواتهم، دون اعتبار للفقراء منهم، فكانت الثروات تتركز فى يد رؤساء العشائر وتتراكم، وزاد التعامل بالربا، وفيه إجحاف لمن يتجرأ ويطلب مالا، وقد نتج عن هذا استعباد الفقراء. ولأن النظام القبلى بطبيعته يعتمد على الرجال فى الحروب والذود عن القبيلة، فإن النساء لم يكن لهن قيمة معنوية أو اقتصادية للقبيلة، واصبحن ينظر إليهن كعبء اقتصادى، ويتقاذفهن الرجال تبعا لحاجاتهم. بالإضافة إلى أن النساء كن مصدرا للعار، فهم السبايا فى الحروب اللائى يستغلهن العدو فى النيل من كرامة وشرف القبيلة المهزومة. وهو ما أدى إلى عادة وأد البنات.

لقد أدرك وثنيو قريش أن هناك خالقا للكون، وقد عبدوا الأوثان ليقربوهم زلفى إلى هذا الإله، وقد أطلقوا عليه «الله»، ولم يكن هذا ليغير من سلوكياتهم الظالمة والمجحفة، بل ويذكر القرآن عقيدتهم هذه مسجلا له كالآتى: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» (سورة ٢٩ : آية ٦١). ويسجل القرآن أيضا هذه العقيدة إذ يقول: «أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ» (سورة ٣٩، آية ٣).

إن الآية لا تحكم عليهم بصورة ظاهرة، وإنما بصورة ضمنية، إذ نفهم أن الخطأ يكمن فى كذبهم، وجحودهم «إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار». الكذب هنا ليس هو القول بغير الحقيقة، ولكن الكذب يتمثل فى السلوك الذى يخالف القول. وفى محاولة للتحليل الدلالى Semantic analysis سنجد لكلمة جاهلية عديداً من المعانى، فهى لا تعود إلى الجهل الذى هو مقابل للعلم فقط، ولكنها ترتبط ايضا بنوعيات من السلوك يغلب عليها الانفعالية والشهوانية والتجبر والتكبر. إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (سورة ٤٨، آية ٢٦) يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ (سورة ٣، آية ١٥٤) وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ (سورة ٣٣، آية ٣٣).

فحوى الدعوة الإسلامية هى أن دعوة التوحيد قد غيرت الرؤية إلى العالم، وكان لها أثرها فى إعادة صياغة المهمشين فى مكة من رؤيتهم لأنفسهم





فى الدراسة التى أجراها[٣] Izustu سنجد أن الكافر هو الجاحد «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ» (سورة ١٦، آية ٨٣)، وهو المستكبر «بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ» (سورة ٣٩، آية ٥٩)، وتستخدم الكافرون بالتبادل مع «الظالمون»، مثل «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ» (سورة٣٩، آية ٣٢)، والكفر أيضا يأخذ بعدا سلوكيا «الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً» (سورة ٤، آية ٣٧). «وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً» (سورة ٤، آية١٦١)، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (سورة ٢، آية ٢٤٥) وهكذا نجد أن الألفاظ القرآنية يصعب حصرها فى معنى دلالى واحد، لأنها تتقاطع بعضها مع البعض، وتقدم لنا بناء دلاليا غنيا، ولكننا ندرك أن الإيمان يأخذ بعدا واقعيا وليس إقرارا لفظيا.

فالشرك يتمثل فى الظلم القائم على قهر الآخرين إعلاء للذات الفردية باعتبارها القيمة المطلقة فى تلك العلاقة الاجتماعية الإنسانية

تعظيم الكرامة الإنسانية

فإذا خرجنا من ذلك الجانب الاستدلالى إلى الواقع الاجتماعى لقريش قبيل الدعوة، سنجد أن العصبية القبلية هى الخلفية القابعة وراء تلك الممارسات الظالمة، حيث إن الكرامة الفردية لم تكن لها وجود إلا فى ظل الانتماء القبلى، وهو ما يعنى أن العشيرة الأكثر قوة حتى داخل القبيلة الواحدة، يمكنها أن تمارس سلطانها وسيطرتها على العشائر الأقل مكانة. ويكتسب الفرد مكانته من انتمائه العصبى إلى القبيلة. ولهذا فإنه إذا حدث نزاع بين قبيلتين، وقتل أحد أفراد القبيلتين المتناحرتين، فإن القصاص لا يتم على مستوى المرتكب لجريمة القتال، بل تخرج القبيلة كلها لتحارب القبيلة الأخرى، وقد تطول الحروب لسنوات[٤].

فى هذا السياق ظهرت الدعوة الإسلامية التى أعلت من كرامة الإنسان بوصفه عبد الله وليس عبدا لأى قوة أو أى مخلوق آخر. أصبح الله وهو القوة الغيبية غير المرئية محل التسليم والإيمان، ومركز الوجود والفعل، وحل الخلوص لله محل العصبية أو الولاء المطلق للقبيلة، ودعم هذا الإخلاص إيمانًا من نوع آخر بالحساب ثوابا أو عقابا فى الحياة الآخرة، فاكتسبت الحياة الأولى أى تلك الحياة التى يعيشها المسلم فى هذه الدنيا قيمتها من إدراك أنها جزء من حياة ممتدة، وهو ما ساعد على تغلب الخوف من الموت، أو السادة الذين يملكون القوة فى هذا العالم، فأصبحت مواجهتهم أمرا أكثر سهولة ويسراً[٥].

ومن الناحية الأخلاقية فقد أصبح واضحا أن تكديس الأموال واستغلال الآخرين والتحكم فيهم يتعارض مع «الخلوص»، أو «التسليم».

ولأن إيقاظ الوعى بالكرامة الإنسانية شكل أساسا فى العقيدة الإسلامية، فإن العبيد بدأوا يشعرون بضرورة الذود عن كرامتهم، ويحاولون أن ينالوا حريتهم. وأكسبت تلك العقيدة الوليدة قوة للنساء اللائى بدأن يعلن إسلامهن متحديات رجال أسرتهن وعشيرتهن.

دلالات المواجهة

أدرك قادة قريش هذه التغيرات الجذرية وما سيتمخض عنها من إضعاف لنفوذهم، بل والتأثير على اقتصاديات مكة، حيث إن إعلان وجود إله واحد، سيترتب عليه إزاحة الأصنام المعبرة عن الآلهة الأخرى من حول الكعبة، وهو ما سيؤثر على حركة الحجيج وإقبالهم على مكة، وهو ما سيؤثر بالتالى على مصالحهم الاقتصادية وتميزهم الاجتماعى.

وعندما بدأ عدد المسلمين فى التزايد، بدأ سادة قريش فى مقاومة هذه الدعوة سلميا أولا باللجوء إلى عم الرسول الذى أعلن حمايته له على الرغم من اختلافه الفكرى معه. ولم يأخذ الاختلاف الحدة والعداوة الشديدة إلا بعد أن تيقنت قريش أن الإسلام سينتشر انتشار النار فى الهشيم خاصة بين المستضعفين، وهو ما سيؤدى إلى إضعاف نفوذ السادة والأغنياء.

لقد ربطت تلك الدعوة بشكل محكم بين العبودية لله، وبين التحرر من الخوف، والقدرة على مقاومة الظلم، ولم تأخذ هذه المقاومة أى شكل أو أسلوب فيه عنف، بل على العكس، لقد أخذت شكل الرفض للواقع والمطالبة بالحق بطرق سلمية للغاية، حتى أن السادة أخذوا يستخدمون قوتهم وسطوتهم فى تعذيب المستضعفين من العبيد، ومع ذلك لم يقتل مسلم كافرا.

وعلى الرغم من أن الدعوة الإسلامية لم تتوجه فى بدء نشأتها إلى سيادة سياسية على أهل مكة، إلا انها كان من المحتم أن تقود إلى تغيير اجتماعى واسع النطاق. وكانت محاولة سادة قريش للوصول إلى حل سلمى مع الرسول هى محاولة لحصر دعوة الرسول فى إطارها الخاص الفردى، ومقاومة آثارها الاجتماعية وذلك بالكف عن مساندة الضعفاء، أو تشجيعهم على التجرؤ على سادتهم. كانوا مستعدين أن يعطوا له أى قدر من المال، أو حتى يسودوه عليهم إذا أراد. لقد كان هذا الاستجداء مبنيا على الدفاع عن المنافع الاقتصادية التى ستتأثر بالدعوة الإسلامية، وبالمكانة الاجتماعية التى ستضعف نتيجة لانتشار دين يكون فيه الجميع سواسية أمام الله. وهو ما أشارت إليه كتب السيرة. وكان للرسول موقف واضح، وهو أنه لا مساومة فى المبادئ الأساسية للإسلام، أى أنه أصر على رفض الاستغلال والقهر.

ويجب التنويه هنا أنه على الرغم من أن الحديث بدا وكأنه فى العقيدة، أى انه طلب من سادة قريش أن يدعهم الرسول وشأنهم فى عبادة الآلهة، إلا أن هذه اللغة الظاهرة تحوى فى داخلها دلالات أخرى لم ينتبه إليها الكثيرون[٦] فما أراده القرشيون ليس اعترافا من الرسول بأحقيتهم فى عبادة الآلهة، ولكن السماح لهم بأن يستمروا فى قهرهم وظلمهم للمستضعفين، أى نصب أنفسهم آلهة على خلق الله، وهو ما يتعارض مع الدعوة الإسلامية فى جوهرها.

وما يؤكد ذلك أن الرسول لم يكن فى مركز قوة بأى صورة، بل كان فى بداية دعوته، وهذا الاستجداء من أهل قريش، ليس استجداء الضعفاء، ولكنه تحسب لما ستنتجه هذه الدعوة من تغير كان قد بدأت تظهر بوادره، فطلبهم أن يتركهم وشأنهم فى عبادة آلهتهم كما يشاءون، هو أن يؤمن على ما يفعلون فى كل المجالات المتعلقة بهذه العقيدة دون أن يعترض عليها. ومن ناحية الرسول فإنه كان ينهى جدله معهم دائما إذا ما رفضوا مقولته بأن الله يحكم بينه وبينهم، أو لكم دينكم ولى دين.

وبإعادة قراءة هذا الحدث يمكن أن نخلص إلى الآتى:

١- أن الرسول لم يكن يسعى لسيادة أو حكم، ثروة أو مال وإلا لقبل هذا العرض المغرى.

٢- أن الرسول احتفظ بهدوئه فى خطابه معهم، ولم تصدر أى كلمة منه تسفه من عقائدهم

٣. أنه لم يسألهم أن يتحولوا إلى دينه عن طريق التهديد أو حتى الزجر.

إذا عبرنا عن هذه النتائج بلغة حقوق الإنسان، محاولين ربطها بأحداث أخرى تؤيدها وتفسرها سنصل إلى الآتى:

لأن إيقاظ الوعى بالكرامة الإنسانية شكل أساسا فى العقيدة الإسلامية، فإن العبيد بدأوا يشعرون بضرورة الذود عن كرامتهم، ويحاولون أن ينالوا حريتهم





لا للحكومة الشمولية

يمكننا أن نتبين بوضوح أن الإسلام توجه إلى تغيير الواقع الاجتماعي، ولكن ليس عن طريق اعتلاء السلطة بل بدءا من القاعدة. فلا شك أن تأسيس العقيدة سبق تقنين الشريعة، ولم تكن الشريعة لتتواجد إلا عندما تواجد مجتمع مسلم، فلقد جاءت الشريعة استجابة لاحتياجات واقعية، وليس قفزا فوق الواقع. وهذا يتطلب قراءة جديدة أيضا للشريعة. ما نريد أن نؤكده هنا أنه لا يوجد ما يسمى دولة إسلامية، ولكن هناك دولة يدين أهلها بالدين الإسلامي، ويتبعون شريعة الإسلام. والفرق بين الكلمتين واسع إلى أقصى درجة.

فالتسمية الأولى تفترض أن هناك قراءة واحدة للإسلام، وبالتالي تعرف الدولة بالدين، ويعرف الدين أيضا بالدولة، وهو ما أفرز عديدا من النظم الذى يدعى كل منها أنه إسلامى دون أن يوحد بينهم إلا القول بأنهم جميعا يتبعون الشريعة الإسلامية، ويجمعهم قهر الإنسان، والأمثلة عديدة قديما وحديثا ومن داخل هذه النظم نفسها، سنتبين أن القدرة على الاختلاف تكاد تكون معدومة، حيث إن القول الخطابى بأنه لا ينبغى لأحد أن يتعدى حدود الله، جعل كل تفسير لإقامة العدل تفسيرا اكتسب قيمة مطلقة بحيث لا يمكن مناقشته.

ولم تكن مرحلة المدينة مرحلة استراتيجية بغية كسب قوة، ثم الهجوم بعد ذلك، فعلينا أن نتذكر أن الهجرة إلى المدينة لم تكن محل تفكير أو تخطيط فى هذه الفترة الزمنية، وأن فكرة الهجرة لم تبدأ فى التبلور إلا عندما تيقن الرسول أن حياته قد أصبحت فى خطر، وأنه لا سبيل إلى الاستمرار فى قريش، وإلا هلك هو ومتابعوه. ولو أن قبيلتى الأوس والخزرج اختارا عبد الله بن أبى بن سلول الذى كان مرشحا لرئاسة القوم فى المدينة لما اتخذ الرسول هذا الموقع الذى جمع فيه بين نبوة دينية، وبين رئاسة زمنية.

القراءة الأنثروبولوجية توضح لنا أن هذا الجمع بين القيادة الدينية والدنيوية فى شخص الرسول كان حدثا تاريخيا له ظروفه الخاصة، وكانت هناك بدائل لو حدثت لتغيرت الرؤية تماما. وأما الالتباس فهو نتاج لإغفال الظروف التى أدت إليه، كما أنه نتاج إهمال مغزى الفترة المكية للدعوة أيضا.

حق الاختلاف:

إن حق الاختلاف تأكد فيما بعد فى مرحلة إنشاء الدولة فى المدينة التى كانت تغص بمذاهب متعددة، فكان اليهود أكثر القبائل حضورا، وكان هناك أفراد قلائل من المسيحيين، وكان هناك وثنيون أيضا. واستمرت الدعوة الإسلامية فى تهذيب الأخلاق بتغيير رؤية الأفراد لأنفسهم وللعالم ولانتماءاتهم، وللقيم التى كانت متجمدة، تحجب عنهم رؤية أبعاد أخرى للحياة وللتعاملات الإنسانية. ولم يحدث أن أجبر أى فرد فى مجتمع المدينة على اعتناق الإسلام، بل تم التحول بشكل تدريجى. وحاول الرسول أن يستميل إليه اليهود، فكان يشاركهم أعيادهم، ويعظم من نبيهم، وذخر القرآن بالآيات والسور التى تتحدث عن موسى ورسالته، واصطفاء بنى إسرائيل بالرسل والأنبياء. ونصت الوثيقة الأولى التى انعقدت بين المسلمين واليهود فى المدينة على أن المسلمين واليهود أمة يمكن أيضا أن نلمح كيف تصرف الرسول عند فتح مكة، فلقد أطلق سراح كل من اتخذوا منه موقف عداء بالأمس، وكادوا أن يقتلوه، دون أن يطلب منهم أن يدخلوا الإسلام، فدخولهم الإسلام لم يكن خوفا من بطش المسلمين، ولكن اختيارا بعد أن أصبح المسلمون قوة، أى أن هؤلاء الطلقاء دخلوا الإسلام بنفس العقلية القبلية القديمة وعندما دخل الرسول المدينة فإنه أعلن أن كل التميزات العصبية والعرقية قد انتهت. لقد كانت دعوة التوحيد إذن هى الدعوة إلى الحرية والمساواة والعدل.

السياسات ذات التوجه الدينى:

يثير تطبيق الشريعة جدلا واسعا فى العالم الإسلامى. وينظر الفكر الغربى إلى الشريعة باعتبارها معوقا للعالم الإسلامى عن الانخراط فى ثقافة العصر. كما أن تطبيق الشريعة بين الأقليات المسلمة فى البلاد غير المسلمة التى تطبق قوانين وضعية تثير العديد من المشكلات أيضا حيث تتناقض مع مبادئ تلك الدول بشكل جذرى.

علينا أن نفرق بين مستويين فى رؤية الشريعة، المستوى الأول هو النظر إليها من حيث الهدف، والمستوى الثانى من حيث التطبيق. سنجد أن الشريعة باعتبارها الطريق لتنظيم المجتمع الإسلامى الذى نشأ فى المدينة تحتوى على مبادئ عامة تتناسب مع الغاية الكلية للرسالة الإسلامية نفسها. إذ أن تلك الرسالة جعلت من العمل عبادة، وخلقت صياغة جديدة فى علاقات الناس بعضهم البعض. إذ أصبح الفرد مسئولا عن أفعاله، وأصبح كيانه الفردى ذا أهمية خاصة، وليست انتماءاته القبلية أو العشائرية. وأصبح الهدف الكلى للشريعة أن تحافظ على حرية الإنسان، لأنها هى أساس العبودية لله. والحفاظ على الحرية لا يتم إلا بتنظيم اجتماعى يتوخى العدل ويرفع الظلم. ومن هنا جاء القول أن الشريعة والعقيدة لا يفترقان، بل أن الشريعة هى التطبيق العملى للعقيدة. وعلى الرغم من أن هذه المقولة تؤكد الهدف من نزول التشريع وحيا، إلا أن استخدامها قد انحرف فى كثير من الأحيان عن الغرض منها. إذ أنه تم النظر إلى الأحكام والحدود بصورة تعسفية، واستخدمت لتخدم أغراض القهر والترهيب بدلا من نشر العدل والحرية. ويكفى النظر إلى قوانين الأحوال الشخصية فى العديد من البلاد الإسلامية الذى استخدم لقهر المرأة.

إذا وضع المشرع الهدف الكلى من الشريعة نصب عينيه، لأمكن تطوير الصيغات القانونية لتتناسب مع تلك الأهداف. لقد كانت هذه الرؤية واضحة فى مستهل قيام الدولة الإسلامية حتى بعد وفاة الرسول. فلقد منع عمر بن الخطاب حد السرقة أثناء المجاعات، وقرر على بن أبى طالب إلغاء توزيع الغنائم على الجيوش، وهو ما يتعارض مع النص القرآنى فى قراءته المباشرة.

تسييس الإسلام

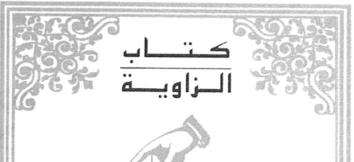
إن القول أن الإسلام كان له نتائجه الاجتماعية لا يعنى أنه يبغى استخدام السلطة من أجل فرض هذه التغيرات، كما أن القول أن رسول الإسلام قد لعب دورا سياسيا، هو تقرير لواقع تاريخى، ولكنه لا يعنى أن الحاكم السياسى لا بد أن يكون مصلحا دينيا، أو أن المصلح الدينى لا بد أن يتولى منصبا سياديا حاكما. إن هذا الخلط بين دور الحاكم السياسى، والمؤسسة الدينية ظل رابضا على تاريخ الأمة الإسلامية حتى ظهرت بعض الأفكار المغايرة مثل كتاب الشيخ على عبد الرازق عن أصول الحكم. والذى وصل فيه إلى رفض فكرة الخلافة كأصل من الأصول فى الإسلام. وعلى الرغم من أن نشأة الدولة الحديثة فى العالم الإسلامى قد أصبحت واقعا بعد الاستعمار، وحركات التحرر، وسقوط الخلافة الإسلامية فى تركيا بعد ظهور المذهب الكمالى فى بداية القرن العشرين. إلا أن فكرة الخلافة نفسها ما زالت تمثل عند البعض أملا يود الرجوع إلى تحقيقه.

لقد كانت ريادة الرسول السياسية والدينية مبعثا



عندما دخل الرسول المدينة فإنه أعلن أن كل التميزات العصبية والعرقية قد انتهت. لقد كانت دعوة التوحيد إذن هى الدعوة إلى الحرية والمساواة والعدل





ديوان الطرب

سيد درويش

عودة العمال

يابوى يا ولد عمى الحجنى يا بوى يا ولد عمى يا بوى

هات البزابورت ويالّلا بينا — يا إسماعيل لا الوجت يفوت
غربة إيه دى مصر أولا بينا — بعدها ما بيحلا لنا الجوت
عهد الله وعهد الأنبيا — ما نفوتهاش ولا بالنبوت
هى السمكة تفوت الميه — دا إحنا من غير مصر نموت
لفينا لما استكفينا — من جرجا لمالطه لميدراس
والله بركة اللى استعفينا — وخلصنا من وجع الراس
كل بلد أفقر من التانيه — وحياة سيدك أبو العباس
لولا انت يا مصرى فى الدنيا — ما كنا نلاجى ولاد ناس
ست سنين فايتين أولادنا — ودقنا المر فى أكل العيش
وادحنا راجعين لبلادنا — لو حكمت نلبس فى الجيش
بعد ما كان الأفرنجى بيرمح — والمصرى بيزحف بشويش
حبه فى حبه بجينا سجوريا — وصاحبنا لا فيش ولا عليش
الله لو كانوا الأغنيا — يتلموا ويمضوا لنا شيكات
والله تو ما عجدوا النيه — تتفرج ع الفوريكات
وتعيش مصر ف عيشة هنية — دوله وتحكم ممتلكات
مادام ف قلوبهم حنيه — ع الفقرا تحل البركات

بديع خيرى



قد يكون أكبر التحديات التى تواجهها هذه الدعوة هى تحرير العقلية الإسلامية من جمودها الذى بنته عبر السنين نتيجة لعدم القدرة على قراءة الرسالة بحيوية فكرية وروحية

لهذا الخلط، وذلك لأن الخلفاء حتى أيام الراشدين منهم، كانوا يخلفون الرسول بمعنى أنهم يتولون المهام السياسية وأيضا يملكون من المعرفة الدينية ما يهيئهم للبت فى الأمور المتعلقة بالدين وكان المجتمع أكثر بساطة. ولكن هذه المرحلة التاريخية كان لها تأثيراتها الأيديولوجية التى تركت بصماتها على الفكر حتى وقتنا الراهن. ويكفى أن نرى النظم الشمولية التى نشأت باسم الإسلام، وكان أكثرها تشددا وقهرا لحقوق الإنسان نظام طالبان.

من ناحية أخرى يمكن اعتبار أن فتح مكة وما أعقبه من دخول أهل قريش إلى الإسلام كان بداية لاستخدام الإسلام كقوة سياسية. فعلى الرغم من أن الرسول لم يكن ليقهر أهل مكة على دخول الإسلام، إلا أن القوة العسكرية والكثرة العددية للمؤمنين الذين تزايدوا فى فترة الهجرة قد جعل أهل مكة يرتعشون رهبة ومهابة، فكان إسلام بعضهم استسلاما، ولكن ملأت العصبية قلوبهم كما كانوا من قبل. ويمكن ذكر أبى سفيان فى هذا الشأن حيث أنه همس إلى العباس عم النبى قائلا: «لقد أصبح ملك ابن اخيك عظيما اليوم»، ورد عليه العباس قائلا: إنها النبوة وليست الملك». فقال له أبو سفيان:إن قلبى ما زال فى شك من هذا».

إن دخول الطلقاء الذين رأوا فى الإسلام قوة سياسية، أتاح لهم فرصة تحقيق أطماعهم من خلال الإسلام ذاته، فسرعان ما أتيح لمعاوية بن أبى سفيان الفرصة، عندما اتخذ منصب والى الشام إبان حكم الخليفة عثمان بن عفان، واستغل هذا المنصب فى تأليب أهل الشام على على بن أبى طالب بعد مقتل عثمان، وهو ما أدى إلى سلسلة من الحروب عرفت بالفتنة الكبرى. واتخذت تلك الحرب طابعا عصبيا مرة أخرى فبدت كما لو أنها معركة بين آل هاشم وآل أمية. لم يكن على بن أبى طالب يمثل الهاشميين بقدر ما كان يمثل مبادئ الإسلام بكل ما فيها من دفاع عن الحرية. وأما معاوية فقد كسب ما كان يسعى إليه بنو أمية من ملك. وأدى هذا الصراع إلى نشوء الفرق الكلامية، من شيعة، وخوارج ومعتزلة. واتخذ الجدل بينهم طابعا دينيا، من حيث أن كل فرقة باتت تستخدم آيات من القرآن لتؤكد صحة دعواها. وقد أظهر مونتجمرى وات دهشته من أن الاختلاف السياسى أخذ ذلك الطابع الدينى، فكل فريق لم يكن يناقش الآخر منطقيا أو فكريا، بل دينيا الحكم بكتاب الله وسنة رسوله، كانت عبارة مشتركة يستخدمها الجميع لجذب أكبر عدد ممكن من المؤيدين.

إن ما قدمه فيكتور ترنر فى هذه الجزئية يشير إلى فاعلية الرموز الغامضة multivocality التى تستميل الآخرين حتى لو كانت اتجاهاتهم متباينة. لقد تعمد معاوية أن يستميل فريق على عندما دعا إلى تحكيم القرآن، فهو يعلم جيدا أن هذه الكلمة لها حساسية خاصة بالنسبة للمسلمين، ولكنها لم تكن تعنى عنده أكثر من شعار مرفوع سيؤدى بالضرورة إلى انقسام المسلمين المؤيدين لعلى.، وهو ما حدث بالفعل، وخرج البعض من مؤيدى على عن الإجماع الذى كان يميزهم، وسموا حينئذ «خوارج»، وطور هؤلاء من فكرهم فيما بعد ليفسروا التطبيقات الإسلامية فى الحكم تفسيرا جديدا، فشاعت بينهم عبارة «لا حكم إلا لله»، وهى نفس العبارة التى تستخدمها أيضا الجماعات الإسلامية اليوم فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى، معلنة أن «الحاكمية لله». ومع ذلك فإن الخوارج ومؤيدى معاوية لم يكونوا على وفاق. لم يجمع الإجماع الأيديولوجى بينهم، ولم يخلق منهم حلفاء، بل استمر صراعهم.

وتمخض عن فكرة «لا حكم إلا لله» أن ولدت مدرسة الجبرية التى تتشابه فى مبادئها الأساسية مع الدهرية، ذلك أنها أيضا خلعت عن الإنسان قدراته الإبداعية، وقدراته فى الاختيار، وأكدت أن كل شىء «مكتوب» لا حيلة للإنسان فيه.

ولم يؤد هذا إلى القضاء كلية على



روح مقاومة الظلم، التي هي دعوة إسلامية خالصة، بل سنجد أن غيلان الدمشقي (المتوفى في عام ٧٢٤م) الذي استمر في دعوة الناس للمقاومة، موضحا لهم أنهم في استسلامهم للظلم فإنهم يكونون ظالمين، وأنهم مسئولون أمام الله عما يقومون به. ولكن تم القبض عليه، وطبقت عليه كل أدوات العذاب البشعة إلى أن أسلم الروح.

إن التداعيات المترتبة على قراءة ستاتيكية للدعوة الإسلامية، وإسقاط عدد من المسلمات الثقافية خارج إطار فهم مضمون الدعوة العقائدي والاجتماعي، انتج على مدى التاريخ الإسلامي كيانات سياسية مارست القهر والظلم باسم الإسلام، ومازلنا إلى الوقت الراهن نقع في تهديد قيام مثل هذه الكيانات التي تنتشر بين العامة عن طريق نشر وهم «إحياء الدين».

ختـــام:

حاولت هذه المقالة أن تقرأ التاريخ مستخدمة المنهج التأويلي الأنثروبولوجي لاستخلاص الرسائل الخاصة بحقوق الإنسان. وتختلف هذه الدراسة عن الدراسات التي حاولت أن تتحدث عن حقوق الإنسان والإسلام في أنها لم تتخذ موقفا دفاعيا عن الإسلام ابتداءً، ولم تعتمد على تدعيم الفكرة الأيديولوجية بآيات قرآنية، وإنما اتبعت منهجا تأويليا في قراءة الأحداث، وبنائيا في قراءة النصوص، واعتمدت في هذه القراءة التأويلية على معنى الفعل والقول في ظل سياقه التاريخي والثقافي، ليس بهدف الزعم أنه ينتسب إلى الماضي، ولكن من أجل استنباط رسائل إنسانية، وإعادة صياغتها في لغة متآلفة مع العصر الذي نعيشه، فلا تكون هذه الصياغة تعسفية مثلما حاول نصر حامد أبو زيد، وليس اختزالية كما يحاول بعض العلمانيين من حيث حصر كل ما جاءت به الشريعة في إطار تاريخي، وهجرها إلى القانون

الوضعي. وإنما حاولت هذه الورقة أن تعيد للعقل الإسلامي حيويته دون أن تغربه، ودون أن تخرجه عن إطاره المعرفي.

ولهذا فإن دعوة الرسول إلى الحرية هي دعوة في الحاضر وليست في الماضي، وقد يكون أكبر التحديات التي تواجهها هذه الدعوة هي تحرير العقلية الإسلامية من جمودها الذي بنته عبر السنين نتيجة لعدم القدرة على قراءة الرسالة بحيوية فكرية وروحية، والتصميم على أن الحقيقة لها جانب واحد، والخلط بين المعرفة كعملية مستمرة، وبين الحقيقة وهي أمر مطلق لا سبيل إلى التأكد من الوصول إلى كل جوانبه. فحق الاختلاف بين المسلمين يجب أن يحترم، والتعددية الفكرية في قراءة النص يجب أن تصان، والخروج من أسر الماضي يجب أن يكون حركة من أجل الحرية التي نادى بها رسول الإسلام، وهي الحق الأول للإنسان الذي بدونه لن يكون الإنسان إنسانا. ■

هـوامـــش:

(١) Clifford Geertz, The Interpretations of Culture, Basic Book.1973.

(2) Karen Armstrong, History of God, New York: Ballantine Books, 1993, p 136-137.

(3) Toshihiko Izutsu, The Structure of the Ethical terms in the Koran: A Study in Semanites Tokyo: Mita, Siba Minto-Ku, 1959

(4) Karen Armstrong, Muhammad: A Biography of the Prophet, New York, Happer Collins, 1992

(٥) من السخرية أن نفس الفكرة استخدمت أيضا من أجل قهر المستضعفين فيما بعد حيث أنهم سكتوا عن الذل انتظارا للجزاء في الآخرة، واستخدمت أيضا لتشجيع هؤلاء الذين يفجرون أنفسهم في عمليات انتحارية، بغية محاربة من يتخذونهم أعداء. وفي كلتا الحالتين سنجد أن الحياة الآخرة وامتدادها استخدمت بطريقة مختلفة لخدمة أيديولوجيات منحرفة عن الأساس الذي خرجت منه..

(٦) مثل فاطمة مرنيسي التي رأت أن الإسلام لا يقبل التعددية: Fatima Mernissi, Islam and Democracy, trans. Mary Jo Lakeland Addison Wesley, 1992) 99



ديوان الطرب

سيد درويش

الفلاحة العاملة

يا حلاوة أم إسماعيل في وسط عيالها
زى النجفة عم بتلعلط في جمالها
تزرع وتجلع في الغيط ويا راجلها
وتعاود ع البيت لعجينها وغسيلها

تحلب جاموستها — حلاوة كتاكيتها
ع الملوخية يا ختي — عليها وعلى بطتها
بنات البندر دول آه — بستوع آن ديه تروّاه
يكفانا اللي شفناه — من فات قديمه تاه
زى أنا درت كتير — وسنه في سنه ولاد الحمير

لا سابولي بسيت ولا غيط
يا حلاوة أم إسماعيل في وسط عيالها
زى النجفة عم بتلعلط في جمالها
تزرع وتجلع في الغيط ويا راجلها
وتعاود ع البيت لعجينها وغسيلها

بديع خيرى



تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر

إلهام ذهنى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ١٨٢صفحة



ظهرت النزعة الاستعمارية للرحالة الأوروبيين مبكراً منذ القرن السادس عشر وخصوصاً بين الفرنسيين الذين حرصوا على تكوين الأحلاف لغزو مصر بهدف إحياء الأمجاد الصليبية القديمة، ثم تعاظمت فكرة غزو مصر فى القرن الثامن عشر بعد هزيمة فرنسا فى حرب السنوات السبع وضياع مستعمراتها فى الهند والعالم الجديد.

وبدأ فى القرن الثامن عشر ظهور ما يمكن أن نطلق عليه الرحالة الجواسيس الذين اهتموا برصد أحوال مصر فى كافة النواحى، وقدموا خدمات تفصيلية للقوات الغازية أعانتهم كثيراً فى إحكام السيطرة على البلاد، وهو ما يبدو بصورة جلية فى الحملة الفرنسية ومجموعات العلماء والمستكشفين الذين صاحبوها، وهى نفس الخدمة التى أسداها الرحالة البريطانيون لقواتهم التى كانت لديها خرائط تفصيلية عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية قبل أن يفكروا فى غزوها.

ومع بدايات القرن التاسع عشر تغيرت الصورة نسبياً وغلبت النزعة الإنسانية على كتابات الرحالة الأوروبيين، خصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بالشعب المصرى.

وتشير المؤلفة إلى تأثر الرحالة الأوروبيين بالتاريخ المصرى والتاريخ الإسلامى والأساطير الشائعة فاستلهم عديد منهم هذه التصورات فى كتابة أعمال أدبية روائية ومسرحية، ناهيك عن آلاف اللوحات والأعمال الفنية التى عكست واقع الحياة فى مصر فى تلك الفترة، والتى تنوعت بين رصد الحياة الاجتماعية والواقع اليومى، ورسومات المعابد والآثار الفرعونية والإسلامية وفنون العمارة.

وقد تنقل الرحالة الأوروبيون بين ربوع مصر يجمعون المعلومات ويسجلون الوقائع ويرصدون حياة الناس، وشكلوا خلفية واسعة لما بات يعرف بالاستشراق بصرف النظر عن أهدافه ومراميه.

■

القراءة السريعة المهنية

جيرهارد هورنر
تعريب: محمد جديد
الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٥، ١٤٣صفحة



إذا كان من الممكن، قبل مائتين وخمسين عاماً، بالقياس إلى امرئ من أنصاف المثقفين، أن يحيط بكامل طيف المعلومات بنظرة شاملة فإن هذا يمثل اليوم، حتى بالقياس إلى أكبر العبقريات، مسألة تضاهى عملية تربيع الدائرة، معضلة تستعصى على الحل! ومن أجل ذلك لا ينبغى لك، أبداً، أن تختبر نفسك بالتصدى لهذا.

والحق أن الثقافة والميزان يعدان، من قبل ومن بعد، من الشروط الأولية الحاسمة للنجاح المهنى، والنجاح فى الحياة الخاصة، وحتى بعد خمسمائة وخمسين عاماً من اختراع يوحنا جوتنبرج للطباعة التى فتح بها للناس مغاليق المعلومات على النطاق العام، ومازال يصح قول المثل: المعرفة قوة.

ولكن أصبح ما هو أهم كثيراً من أن نراكم المعلومات ونخزنها، فى مجتمع المعلومات الحديث، الإجابة عن مسائل أخرى:

كيف ومتى تقرأ؟

كيف تميز بين المعلومات المهمة وغير المهمة؟

كيف تنشئ من المعلومات المختلفة روابط فيما بينها؟

■

كلنا فداك.. البحرين والقضية الفلسطينية ١٩١٧ ـ ١٩٤٨

خالد البسام
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥، ٢٣٨ صفحة



يرصد المؤلف العلاقة بين البحرين والقضية الفلسطينية منذ وعد بلفور عام ١٩١٧ وحتى الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين فى ١٩٤٨، ونلاحظ أنه منذ البداية، أى منذ وعد بلفور ظهر الوعى البحرينى بالقضية الفلسطينية، وقد ظهر ذلك فى شكل تبرعات للشعب الفلسطينى استجابة لنداءات المجلس الأعلى الإسلامى فى فلسطين ولدعم ترميمات المسجد الأقصى بالقدس، ومع عقد الثلاثينيات من القرن الماضى اختلفت الصورة مع ظهور اللؤلؤ بكميات تجارية وكذلك دخول البحرين عصر الاكتشافات البترولية، حيث أن أول حقولها اكتشف عام ١٩٣٢، وقد ساهم ذلك فى تنامى طبقة المتعلمين والمثقفين البحرينيين وإنشاء أندية أدبية وثقافية ورياضية، ونمو الوعى الجماهيرى بالقضايا السياسية وقضية فلسطين بالذات، وتشكلت لجان لرعاية أيتام فلسطين وجمع التبرعات لهم، شارك فيها الرجال والنساء، وتدخل البريطانيون وعقدت محاكمات للمتهمين فى أحداث الشغب ضد اليهود، وتعرض المتظاهرون للسجن فترات مختلفة بتهم السلب والنهب وتكدير الأمن العام، لكن ذلك لم يؤد إلا إلى مزيد من النضال والمقاومة ضد اليهود والمخططات الإنجليزية لزرع إسرائيل فى المنطقة العربية.

■

الأصول الديمقراطية والإصلاح السياسى

جمال على زهران
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥، ١٩٠صفحة



ثمة إجماع بين القوى السياسية المصرية على اختلاف ألوان طيفها، على مسألتين مهمتين: أولهما أن الديمقراطية والإصلاح السياسى هو الذى سيقود طائرة الإصلاح على كل المستويات، وثانيهما يرتبط بالموقف الوطنى الرافض للتدخل الأجنبى ـ الأمريكى خصوصاً ـ فى شئون البلاد بزعم الإصلاح.

المؤلف بحكم التخصص، يركز بشكل أساسى على الأبعاد السياسية لعملية الإصلاح، بادئاً بتصورات نظرية عن الديمقراطية فى أصولها التاريخية ثم عن جدلية العلاقة بين الديمقراطية والتنمية فى مصر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وينتهى إلى أن إصلاحاً اقتصادياً فى مصر دون إصلاح سياسى يعنى السير على قدم واحدة، أى أنه لا مناص من توازى الإصلاح السياسى مع الاقتصادى، ويقترح فى الختام مشروعاً للإصلاح تقوم ركائزه على عدة نقاط منها: إجراء تعديلات دستورية عاجلة تتضمن انتخاب رئيس الجمهورية بين أكثر من مرشح وتحديد مدة الرئيس بخمس سنوات قابلة للتجديد مرة واحدة، وتخلى الرئيس الفائز عن عضويته الحزبية، وتقليص سلطات رئيس الجمهورية وإجراء انتخابات نزيهة يشرف عليها القضاء إشرافاً كاملاً، وإلغاء قانون الطوارئ، وقانون الأحزاب السياسية الحالى، وتحرير المجتمع المدنى ليتسنى له أن ينهض ويمارس دوره بفاعلية.

■

الممثل والحرباء

سامى صلاح
القاهرة: أكاديمية الفنون، ٢٠٠٥، ٣١٥صفحة



نمارس كلنا تقريباً التمثيل، يومياً وفى كل وقت، ونرتدى عشرات الأقنعة ونلعب عشرات الأدوار، وهو ما قد يعنى أن التمثيل هو أكثر الفنون بساطة، بما أنه يمارس بشكل اعتيادى، لكن التمثيل أيضاً هو أكثر الفنون تعقيداً كما يراه المؤلف، لأنه بحسب قوله يتضمن كل خلية كل عضو فى الجنس البشرى.

عن الممثل وقت التمثيل ومجالات تدريب الممثل وتدريسه والتمثيل الصامت وسحر التمثيل، تدور فصول الكتاب التسعة.

والسؤال البديهى الذى يطرح فى دراسات من هذا النوع يتعلق بهوية الممثل، ويجيب المؤلف بأن الممثل هو أشبه بالساحر الذى يبنى صوراً إيهامية خادعة بغرض أن يوحى بواقع ما، كما أنه يعيد ترتيب الأشياء وتنظيم مكوناتها لكى يجعل المتفرج يصدق أن الممثل شخص آخر، وفى سبيل تحقيق هدفه، فإن للممثل أدوات ثلاث هى جسده وصوته وشخصيته، وأما القدرات التى يجب أن تتوفر فيه، فأولها القدرة على تحليل الشخصية التى يمثلها، دوافعها وعلاقاتها بالشخصيات الأخرى المحيطة، ثم القدرة على تفسير أفعال الشخصية وتفسير

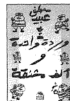
الأحداث، ولماذا اتخذت هذا الجانب دون غيره، وثالثها القدرة على تشكيل الشخصية، أى وضعها فى صورة بصرية ومرئية، ثم قدرته على التجسيد والعرض، أى توصيل المعنى الذى رآه فى الشخصية للجمهور، وأخيرًا القدرة على التكرار، أى تكرار دوره عشرات المرات بالحيوية ذاتها ودون أن يصيبه أدنى قدر من الملل.

■

وردة واحدة وألف مشنقة

مصطفى عبيد

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٥، ٩٢ صفحة



كما هو واضح من عنوان الديوان وغلافه، فإن قصائده من الشعر السياسى، والشاعر من أبناء هذا الجيل العربى الشاب، المسحوق تحت أحذية العسكر وسياط الاستبداد، المدهونة أحلامه بإيماءة رضا من حكام اعتلوا العرش قبل عقود، ولن يفارقوه إلا إلى اللحود.

قصائد الديوان فى مجملها تدور فى هذا المعنى، وتتلمس طاقات ضوء فى نهايات النفق، ربما يأتى الصبح فعلاً، وربما بقيت الأمنيات خيالات شاعر، ليس أكثر.

من أجواء الديوان:

ووقفت بين الناس مدهوشًا ومفكرًا/ هذا معاوية يولى ابنه/ والكل يشكر/ أعلنت عصيانى ولم أحمل سوى/ قلم ودفتر/ وكتبت عن هذا البلد/ ووالد وما ولد/ وسكبت حزنى والكمد/ فى بيت شعر ليس يقهر/ شعب تجهل من جديد/ يأتى معاوية ويخلفه يزيد/ وشعوب أهل الأرض تسخر.

■

الاستبداد فى نظم الحكم العربية المعاصرة

تحرير: على خليفة الكوارى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٥٧١ صفحة



يضم الكتاب الدراسات والمداخلات الخاصة باللقاء السنوى الرابع عشر لمشروع دراسات الديمقراطية فى البلدان العربية.

ويهدف إلى تنمية فهم مشترك لجذور الاستبداد ومصادره الدينية والحداثية، ومسوغاته، وآلياته، وسبل تفكيكه، والعمل على تعطيل آليات إعادة إنتاجه فى السياسة العربية. وقد بذلت فيه جهودًا لكشف الوجه الباطنى للاستبداد والتسلط، وكشف أساليب تجديد الاستبداد فى الحياة السياسية تحت لافتة «الديمقراطية» الشكلية.

ويؤكد على أن هذه الحالة المستدامة والمتجددة من الاستبداد تتطلب وقفة نقدية ذاتية متأنية من قبل كل تيار وقوة سياسية أهلية عربية واضعة نفسها أولاً وبقية التيارات تحت المجهر قبل أن تضع تحته أنظمة الحكم وامتداداتها الخارجية.

■

المقالة الوجدانية فى نثر أدباء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

د. محمد زغينة

الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ١٩٦ صفحة



المتصفح للأدب الجزائرى المنشور فى فترة الاستعمار يشعر بمدى إيمان الكاتب بالحرف العربى والتصور الإسلامى وبدقة إحساسه ورفاهة تصوره. فى هذا الوقت كانت الكتابة ضربا من النضال لدى الكتاب الجزائريين نظرا لوضعهم السياسى، وظل نثرهم رغم اقترابه من الرومانسية يرفض بشدة كل ما هو غربى ولو كان فنا وجمالا، لأن الصراع الأيديولوجى الحضارى فرض نفسه على الساحة الأدبية، ومن جهة أخرى كان هؤلاء الكتاب أصحاب رسالة تحررية وقد أخذوا القارئ فى الحسبان بكل فعالية، بل إن الجرائد التى نشرت هذه المقالات كانت تشترط نهجا معينا وخطا وطنيا لا يمكن لصاحب المقال أن يحيد عنه.

■

أم درمان تأتى فى قطار الثامنة

كمال الجزولى

القاهرة: دار العلوم، ٢٠٠٥، ٢٩٨ صفحة



صوت مميز من أصوات الشعر السودانى، تشتغل قصائده على الهم الإنسانى عمومًا، لكنها لا تنسى ودائمًا الهم العربى الذى يضم السودان وكافة الدول العربية، وجميعها تشترك فى قدر لا يستهان به من أشكال المعاناة، وخصوصًا تلك التى تمس حقوق الإنسان السياسية وحاجاته الروحية والمادية.

من أجواء الديوان:

بالسياط/ وبالألسن الحداد كالسياط/ وبالقاضى المهيب والشرطى والسجان/ رأيتها/ الدولة/ تركض خلف نشال صغير لتحفظ الأمان/ وخلف صبية صأوا/ كما القرود/ كرًا وفرًا/ فى محطة الوقود/ بنشق يجود العامل الليلى.. ربما/ أو لا يجود/ وخلف باعة «غب تقافزوا/ فى زحمة السوق الكبير.. كالجرذان.

■

محمد لطفى جمعة بيوجرافيًا وببليوجرافيًا

أحمد حسين الطماوى

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٥، ٣٢٢صفحة



لا يبدو هذا المفكر المرموق معروفًا لدى كثيرين، على الرغم من أنه مارس العمل العام باكرًا حين عمل فى جريدة اللواء التى أنشأها الزعيم مصطفى كامل قبل حصوله على شهادة الثانوية فى العام ١٩٠٧، وقد طرد من مدرسة الحقوق لإلقائه خطبة بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة مصطفى كامل فى مارس ١٩٠٨، ما اضطره إلى أن يشد الرحال إلى فرنسا ويلتحق بكلية الحقوق فى مدينة ليون، ليبدأ منعطفًا مهمًا فى حياته.

المؤلف يتابع سيرته ومؤلفاته التى تتنوع بين مجموعات قصصية وروايات وترجمات ودراسات فكرية وأدبية، والعمل بيوجرافى وببليوجرافى، يرصد ما كتبه جمعة وما كتبه عنه.

■

ملامح المستقبل

محمد بن حامد الأحمرى

الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٥، ٣١٨ صفحة



بعد ان أصبحت قضية الإسلام هى قضية العالم، يكاد يتشكل فى مجالات كثيرة واقع إسلامى جديد، وحسب احد المراقبين لمسيرة الإسلام فى العصر الحديث: «ان من بين جميع الحركات الكبرى التى هزت الشرق الأوسط فى آخر قرن ونصف كانت الحركات الإسلامية وحدها أصيلة فى تمثيلها لملامح أهل المنطقة وهى تنبع من تراب المنطقة وتعبر عن مشاعر الكتل الجماهيرية المسحوقة».

تصويب واعتذار وشكر

تعتذر «وجهات نظر» لقرائها الكرام عن خطأ ورد فى هذا الباب العدد الماضى نتج عنه خلط بين الدكتور عبد الوهاب عزام أستاذ أساتذة اللغات الفارسية والتركية والأوردية وبين عمه عبد الرحمن باشا عزام أول أمين عام للجامعة العربية. وتشكر المجلة كل من نبهها إلى هذا الخطأ وخاصة الوزير أحمد ماهر والسفير حمدى عزام والكاتب الصحفى المغربى عبد القادر الإدريسى.

وصحيح الأمر ـ حسب ما تفضل به السيد الإدريسى تفصيلاً وتوثيقًا ـ أن الدكتور عبد الوهاب عزام، لم يكن (رئيسًا) لجامعة الدول العربية، وإنما الذى كان أمينًا عامًا (وليس رئيسًا) هو عبد الرحمن عزام باشا، المجاهد الوطنى والسياسى المصرى البارز خلال النصف الأول من القرن العشرين. أما الدكتور عبد الوهاب عزام فلقد كان عميدًا لكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة اليوم)، ومؤسسًا لقسم اللغات الشرقية بها، وله إنتاج أدبى غزير، وترجمات من الفارسية إلى العربية فى الذروة من الإبداع والاتقان.

ويذكر أن الرجلين: عبد الرحمن وعبد الوهاب، قد ولدا فى عام واحد: ١٨٩٣؛ فعبد الرحمن هو: ابن حسن بن سالم بن عزام، أما عبد الوهاب فهو: ابن محمد بن حسن بن سالم. وهكذا يكون عبد الرحمن عزام باشا عم الدكتور عبد الوهاب عزام.

فالزمن القادم يوحى بصعود أقوى لدور الإسلام فى مستقبل البشرية».

من هذا المنطلق يكشف الكتاب عن ملامح العصر الإسلامى القادم. فالدعاية الكبيرة ضد الإسلام والمسلمين، وكل حملات التغريب فى العالم العربى والإسلامى واجهت فشلا ذريعا. وتحولت ظاهرة الفضائيات التى بدأت كما لو أنها غزو إعلامى وثقافى إلى أداة عربية وإسلامية لها أثر كبير فى إشاعة الثقافة الإسلامية وتوثيق الصلة بين المسلمين ودينهم. كما ساهمت فى زيادة وعى الناس وجعلهم يعيشون قضاياهم اليومية بفهم وتعاطف كبيرين، خاصة بعد الشك فى المعلومات التى توفرها الوسائل الغربية عموما والأمريكية خصوصا.

من جانب آخر يفسر المؤلف أسباب تراجع وانكسار بعض التجارب الإسلامية بأنه كان أمرا مفيدا ومكون مستقبلى مهم، لأنه فتح الباب أمام التيار المعتدل. فالتراجع لدى طالبان مثلا كان حاجة إلى أن تعيد النظر فى نمط تدينها، وطريقة تعاملها مع العالم. ولقد كان التراجع فى عهد أربكان وخسارة فكرته على المدى القصير بداية لمرحلة أكثر وعيا، تلاها إقدام مبدع وجولة أذكى برجال أشب عقلا وبدنا، وكان غزو بغداد صورة مؤلمة لتراجع بلد مهم. لكنه موقف مؤقت رغم كونه مكلفا للأمة ولكنه مشغل ومؤلم للغزاة أيضا.

■

الفضيحة الإيطالية

محمد بركة

القاهرة: نفرو للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ١٠٤ صفحات



تأتى هذه الرواية القصيرة بعد مجموعتين قصصيتين للمؤلف هما «كوميديا الانسجام» و«٣٠ مخبرين وعاشق».

تبدو الرواية استمرارا للنهج ذاته الذى اتبعه المؤلف فى مجموعتيه القصصيتين، عبارات مكثفة مركزة، وروح فكاهة وسخرية لا تغيب حتى فى أكثر المواقف جدة، وهى تحكى عن علاقة بين شاب (الراوى) يعمل صحفيا فى مجلة أسبوعية وفتاة إيطالية من مناهضى العولمة، ولا شىء أكثر من محاولات الشاب لاستمالتها والظفر بها على طريقة الصياد والسمكة، يلقى هو الطعم فتتمنع، ثم يحاول مرة ثانية وثالثة حتى تقع أخيرا فى الشباك، وأما الفضيحة، فمردها ربما، أن ظفر الصياد بفريسته جرى قبل فجر أحد أيام شهر رمضان بقليل، حيث يأنس الناس بالصوم والصلاة والتسابيح.

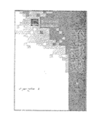
ماذا بعد ذلك فى الرواية؟ لا نظن أن ثمة معانى كبيرة أراد المؤلف أن يشغلنا بها، كل ما أراده أن يحكى لنا عن التجربة، التى لا يبدو أن ثمة جديدا بها، حتى مشاهد الجنس الساخنة أو التى أراد لها أن تكون كذلك.

■

الحداثة والتراث فى المسرح العربى

سامح مهران

القاهرة: المركز القومى للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، ٢٠٠٥، ١٤٣ صفحة



ظهر مصطلح الحداثة عند العرب فى مطلع الخمسينيات من القرن العشرين، مع بداية موجة الشعر الحر والشعر المعاصر الذى خرج على الأنماط الشعرية السائدة آنذاك، وكانت القطيعة مع الماضى هى الدعوة التى تبناها بوضوح بعض شعراء الحداثة من أمثال أدونيس، لكن هذه الفكرة - القطيعة - تبدو غير منطقية وغير قابلة التحقق، والمؤلف بدلا من يحدثنا عن تصور يجمع بين ما هو تقدمى وقابل للحياة فى الثقافة القومية، وبين الجوانب الثقافية التى تقدمها الثقافات الوافدة، وفى إطار تأكيده على فكرة المزاوجة بين التقليدى والحداثى، يحلل المؤلف أفكارا سياسية واجتماعية وثقافية عديدة منذ بدايات القرن الماضى، وتشابكاتها على الساحة العربية والمصرية، ثم كيفية تعبير المسرح عنها كما نرى فى تحليله لمسرحية رأفت الدويرى «الواغش»، و«مغامرة المملوك جابر» لـ سعد الله ونوس، وزهرة الصحارى للكاتب التونسى عبد الرحمن أيوب.

وفى الفصل الثانى يتناول الصور التمثيلية فى المسرح المصرى فى الربع الأول من القرن العشرين، ونموذجه التطبيقى فى هذه الحالة هو مسرحية عثمان صبرى «شبابنا فى أوروبا».

ويدرس الفصل الثالث ما بعد الحداثة فى المسرح، ويلاحظ أن المظهر النقدى للمسرح ما بعد الحداثى اتخذ عدة مسارات، منها رفض العلاقات التبادلية، والانتقال إلى محاولات التكسير والقلقلة التى تتحدى مفاهيم الوحدة فى العمل المسرحى، ثم انفصال المسرح عن الدراما وبروز الأداء، ثم تفجير الأطر ورفض فكرة بنية العمل المسرحى.

■

الدراسة الأدبية والوعى الثقافى

د. مصطفى ناصف

دبى: مؤسسة العويس الثقافية ٢٠٠٥، ٣٦٦ صفحة



يطرح الكتاب إشكالية الأدب والثقافة والمجتمع، ويحتوى محاور عدة، كالربط بين مفاهيم الأدب ومفاهيم الثقافة وعلاقتهما بالتعليم، والعلاقة بين الثقافة التى تمثل النخبة والثقافة العامة، وعلاقة الثقافة بالمجتمعات النامية، واحتكار الأديب لتسمية الثقافة.

يحاول المؤلف الإجابة عن الأسئلة التى أحدثها التغيير الذى طال المجتمعات والأدب والثقافة، والاختلافات والاختلاطات التى يواجهها المجتمع مثلما يواجهها الأدب. ويؤكد ان ثمة اقتراحات مهمة تنافس العناية بالأدب أو توجه أمرها، فبعيدا عن الصورة المثالية للكاتب الأديب، يجب أن ننظر فى وكالته عن بعض القوى، وميله أحيانا إلى كسب القراء على حساب أنفسهم، الأمر الذى يجعلنا لا نستطيع أن نمارس النقد بمعزل عن المعركة الدائرة حول السيطرة، والتى هى معنى من معانى الثقافة.

■

عرب وعثمانيون.. رؤى مغايرة

محمد عفيفى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ١٠٠صفحة



الفرضية الأساسية التى يبنى عليها المؤلف مناقشاته لموضوع الكتاب، هى أن الصورة التقليدية والخطاب السائد عن أوضاع العالم العربى فى العصر العثمانى محملة بالأيديولوجية والأفكار المسبقة، ومن ثم فهو يقترح إعادة تشكيل الصورة من جديد وفقا لعدد من الأفكار أهمها ضرورة تفكيك الخطاب الأيديولوجى عن الفترة العثمانية، وإظهار دور المدرسة الجديدة (العثمانيون الجدد) فى تقديم سيناريو جديد، ومناقشة الخطاب الاستشراقى استنادا إلى مصادر محلية تسقط الأهمية السابقة التى اكتسبتها كتابات الرحالة الغربيين، ثم محاولة تقديم صورة أكثر واقعية عن أحوال المجتمع العربى فى العصر العثمانى.

والمؤلف مثلا حين يبدأ فى تفكيك الخطاب عن الفترة العثمانية يناقش ما كتبه الزعيم المصرى محمد فريد وما كتبه بعده المؤرخ عبد الرحمن الرافعى الذى ينتمى بالانتماء والممارسة إلى الحزب الوطنى الذى ترأسه مصطفى كامل ومحمد فريد من بعده، ويلاحظ التفاوت المذهل بين الاثنين، إذ يجنح فريد إلى منهج أسطورى يرى أن الدولة العثمانية هى رسالة إلهية لنجدة الإسلام والمسلمين، ويرى المؤلف فى موقف محمد فريد رسالة أيديولوجية أكثر منها تأريخا لفترة زمنية، ويشير كذلك إلى ارتباط فريد بالخديو عباس حلمى الثانى والسلطان عبد الحميد الثانى.

وعلى العكس من فريد، يرى الرافعى أن نظام الحكم الذى رزحت البلاد تحته فى العصر العثمانى، «كان له أبلغ الأثر فى حالتها السياسية والعمرانية، فقد زال عنها الاستقلال، وصارت مسرحا للفتن والمشادات، وحال ذلك دون قيام حكومة مستقرة ترفع من شأن مصر وتقيم العدل وتحفظ الأمن بين ربوعها وتعنى بمرافقها».

ويتابع المؤلف بعد ذلك بعض كتابات «الهواة» و«المحترفين» من المغرمين بتاريخ تلك الفترة مثل حسين فوزى ولويس عوض وتيار الإسلاميين الجدد، ثم المدارس المغربية والشامية والمصرية التى تعاطت مع تاريخ الدولة العثمانية.

■

الإنترنت والمنظومة التكنواجتماعية

على محمد رحومة

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٤٢٨صفحة



يتركز البحث هنا على الأسس الاجتماعية لتركيبة منظومة «الإنترنت»، وماهية آليتها التقنية، وما أنتجه هذا العالم الشبكى من آليات اجتماعية. ويلقى الضوء على عملية توصيف النظام التقنى للإنترنت كنتاج للنظام الاجتماعى، ومعرفة أسس الارتباط بين مفاهيم النظام الاجتماعى وأنساقه المختلفة، مع ما تقدمه تقنية الإنترنت من تغيرات وتطورات ومشكلات اجتماعية، إضافة إلى معرفة مختلف التفاعلات التى تحدث بين الأفراد والجماعات المستخدمين للإنترنت، ومحاولة استشراف مستقبليات هذه التقنية وأبعادها المتعددة فى المجتمعات الإنسانية.

ويؤكد الكتاب أن المنظومة التكنو - اجتماعية للإنترنت لاتزال فى بدايات

بحثها التكنو - اجتماعى عالميًا، وخصوصًا فى البلدان النامية، ما يحتم على المعنيين بالتنمية المجتمعية والبحث العلمى العمل على وضع أسس وآليات وطنية جادة لبحث هذه المنظومة المعلوماتية للتمكن من معرفة كيفية التفاعل معها إيجابيًا.

■

الحـــــب

بيير بيرنى
ترجمة: مراد وهبة
القاهرة: شركة الخدمات التعليمية، ٢٠٠٥، ١٢٧صفحة



يأتى الكتاب ضمن مشروع موسوعة الشباب للعلوم، وقد صدرت فيها عدة عناوين هى: تقاويم الزمن، الذكاء، العولمة، الشمس، الذاكرة، تاريخ العلوم.

ويتألف من أربعة فصول تتناول على التوالى موجز تاريخ الحب والمستوى الإنسانى للحب والمشكلات الأخلاقية والمؤسساتية وأخيرًا قوى المجاوزة فى الحب، وهو فى هذا الإطار يتناول عديدًا من المفاهيم وثيقة الصلة بالموضوع كالعلاقة بين الحب والجنس، والنرجسية ونمو الحب، والحب بوصفه نشاطًا إنسانيًا، والرابط بين الزواج والحب، وكيفية علاج أزمات الزواج وانطفاء الشهوة، أخلاق الحب والتابو، وغيرها من الموضوعات.

■

فنيات المونتاج الرقمى

رباب عبد اللطيف
القاهرة: أكاديمية الفنون، ٢٠٠٥، ٢٩٥صفحة



تناقش الدراسات الواردة فى الكتاب كيفية استخدام التقنيات الرقمية الحديثة، وإمكانات الحاسب الآلى فى مجال المونتاج السينمائى، وهو مجال يبدو حديثًا نسبيًا فى السينما العربية التى صار بإمكانها الاستفادة من هذه التقنيات سواء فى مرحلة الإعداد للفيلم أو إنتاجه أو حتى عرضه.

ومرحلة المونتاج من أهم مراحل صناعة الفيلم، فهى التى تجمع كافة المراحل الإبداعية السابقة التى مر بها الفيلم، والكتاب يضم بابين يحتوى كل منهما على ثلاثة فصول. ويناقش الباب الأول الأجهزة السينمائية الحديثة المرتبطة بمرحلة المونتاج، ويبدأ بتلك التى تسبق عملية إنتاج الفيلم أى فى مرحلة الإعداد، وهى التى تسمى مرحلة الرؤية المسبقة، وكيفية الاستفادة منها فى مرحلة ما قبل التصوير، ثم عناصر التكنولوجيا فى مرحلة الإنتاج، حيث تقدم لنا عددًا من الاختراعات التى أحدثت تحولات كبيرة فى صناعة السينما ووفرت كثيرًا من الجهد والمال. وأخيرًا مرحلة ما بعد الإنتاج، وخصوصًا عملية التزامن بين الصوت والصورة.

ويناقش الباب الثانى الأجهزة المستخدمة لتحقيق تلك الأهداف، بداية من أجهزة المونتاج غير المتتالى الأولية، ثم أجهزة المونتاج غير المتتالى الرقمية، وتقدم تطبيقًا لهذه الأفكار عبر مشاركتها فى فيلمين من إخراج يوسف شاهين هما المصير ١٩٩٨ واسكندرية نيويورك ٢٠٠٣.

■

سحر الشرق.. قراءة جديدة فى ملف الاستشراق

القاهرة: مركز دراسات قناة النيل الثقافية، ٣١٨ صفحة



بعد مقدمة منهجية قصيرة، نطالع عدة دراسات فى موضوع الاستشراق وجهود المستشرقين، كتبها مختصون.

يطالبنا صلاح قنصوه بالاعتراف بفضل المستشرقين الذين جمعهم البعض فى السلة ذاتها التى وضع فيها المستعمرون، أو أن هؤلاء المستشرقين فى حقيقتهم لم يكونوا سوى مجموعة من الجواسيس والمرتزقة، لكن للدكتور قنصوه رأى آخر، إذ يرى أن بعض هؤلاء كشف لنا من تراثنا ما لم يكن ممكنًا أن نكتشفه بأنفسنا.

ومن زاوية تاريخية يرى عاصم الدسوقى أن الاستشراق خدم الثقافة العربية لأنه بدأ بمحاولة للتعرف على العرب والمسلمين. وكان سببه الرئيسى المواجهة التى حدثت بين الدولة العثمانية وأوروبا، ثم المواجهة الثانية التى تجلت فى الحروب الصليبية، ولا ينكر الدسوقى إسهاماتهم.

لكنه يؤكد على أن المستشرقين وإن كان بعضهم قد خدم العلم، فإن نتاج

تقييم السياسة الأمريكية فى المنطقة

الشرق الأوسط والولايات المتحدة

تحرير: ديفيد ليش
ترجمة: أحمد محمود
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ٧٦٥ صفحة



نحو ٢٧ فصلاً لعدد كبير من المؤلفين المشتغلين بالموضوع ذاته: أمريكا والشرق الأوسط يتضمنها هذا الكتاب، وهو يبين أن اهتمام أمريكا بالشرق الأوسط إنما يبدأ منذ نشأة الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها، وإن بدأ محدودًا ومقصورًا على البعثات التبشيرية والتجارة، ومع الحرب العالمية الأولى، والصراع على ممتلكات الدولة العثمانية، زاد اهتمامها بالمنطقة خصوصًا مع ظهور النفط فى ثلاثينيات القرن الماضى، ومع نهاية الحرب العالمية الثانية بدا لأمريكا أن هذه المنطقة بالغة الأهمية، وأنها ستمثل بالنسبة لها ماكينة ضخ لاستمرار انتعاشها الاقتصادى، وعزز ظهور إسرائيل هذا الإدراك وإن كان عقد علاقات واشنطن بالعالم العربى، وخلال الحرب الباردة التى امتدت نحو أربعين عامًا تأزمت علاقة أمريكا بالمنطقة إلى حد بعيد، مع تنامى موجة القومية العربية وتوجهات القضاء على الاستعمار وتأجج الصراع العربى الإسرائيلى، وظهور حركات إسلامية راديكالية، وقد طرحت هذه العناوين عشرات الأسئلة على السياسة الأمريكية فى المنطقة، جاءت مختلفة بطبيعة الحال عن تلك التى أثارتها مرحلة ما بعد الحرب الباردة والسيطرة الكاملة للقطب الأوحد فى العالم، وقد جاءت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ لتصنع صنيعًا جديدًا لعلاقة أمريكا بالمنطقة، يختلط فيها السياسى بالدينى بالتاريخى بالاقتصادى على نحو مذهل، وبدرجة كشفت عن حالة من الوهن والتبعية شبه الكاملة لدول وممالك عربية للإمبراطورية الجديدة، وتأكيد لسيادة إسرائيل ونفوذها.

وتبدو الإحاطة بهذه العلاقة ولو باستعراض محتويات هذا المجلد الضخم فى هذا الحيز المحدود غير ممكنة، خصوصًا أن مقالاته لا تمتد فحسب فى تاريخ هذه العلاقة منذ النشأة، وإنما تغطى جغرافيتها على امتداد الوطن العربى والإسلامى.

وبشكل عام فإن الصورة السائدة التى تخرج من أى بحث للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط «هى صورة واشنطن وهى تنهض من غلطة لتقع فى أخرى، ومن فرصة ضائعة لتقع فى سواها، ومن حساب خاطئ لتقع فى غيره»، على حد تعبير ويليام كوانت فى مقالته «أساسيات أمريكية جديدة لشرق أوسط جديد».

ولا يبدو مفهوم الشرق الأوسط الجديد وليد عالم ما بعد الحرب الباردة، بل إن أمريكا وضعت فى العام ١٩٥١ هذا المفهوم «لسد الفجوة بين المصالح الاستراتيجية والسياسية فى مصر» كما يبين تفاصيلها «بيتر هان» فى مقالته عن هموم الأمن القومى فى السياسة الأمريكية تجاه مصر. ولكن فكرة قيادة الشرق الأوسط تلك رفضتها مصر، وسارت الأمور من سيئ إلى أسوأ مع سياسة جمال عبد الناصر المناهضة للاستعمار وللاحتلال الإسرائيلى فى فلسطين.

وكما يلاحظ «ويليام كوانت» فإن مصالح أمريكا الكبرى فى المنطقة تحددت وفق ثلاث قضايا أساسية: العلاقة مع الاتحاد السوفيتى المنافس والخصم الكونى، النفط وتيسير الوصول إليه، العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل. وعمومًا، فإن التكلفة البشرية والاقتصادية التى تحملها الولايات المتحدة فى سعيها لتحقيق سياستها فى الشرق الأوسط جاءت محتملة، وتحققت الأهداف الأساسية بنجاح، اعتمادًا على مجموعة من الأدوات السياسية، وهى المساعدات الاقتصادية والعسكرية ومبيعات السلاح والتدخلات السرية والوجود العسكرى الذى وصل إلى حد الاستخدام المباشر للقوات الأمريكية كما جرى فى لبنان (١٩٥٨ و ١٩٨٢) وفى الحرب على العراق، وأخيرًا، الدبلوماسية.

ولكن الأمر المؤكد أن القوة الأمريكية العاتية، والتدخلات لفرض نماذج من الإصلاح وآليات التغيير على دول المنطقة، واستبدال دبلوماسية القوة بالسياسة المتوازنة، وفرض الأمر الواقع بتوافق المصالح، كل هذا من شأنه أن يخلق توترات تعيق تنفيذ السياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط كما يراها أغلب مؤلفى الكتاب، الذين لم يلفت انتباه أحدهم أى قدر من الندية فى تعامل الأنظمة العربية مع السياسات الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط، وهى مسألة لم تعد تدهش أحدًا على أية حال.

عماد الغزالى

أعمالهم تم توظيفها لأغراض سياسية، أى أن السياسى الذى يفكر بطريقة استعمارية استفاد من عمل المستشرق وأخفى الأسباب الحقيقية لانكبابه على معرفتنا.

وتركز زينب الخضيرى على الدور السلبى الذى لعبه صمويل هنتنجتون خصوصاً فى كتابه صراع الحضارات، وترى أنه لعب دور المستشرق الذى قدم الإسلام بصورة سيئة جداً. ويدعو حامد طاهر إلى حركة استغراب يقوم بها مفكرون شرقيون رداً على حركة الاستشراق.

القسم الأخير من الكتاب يعرض بصورة مختصرة جداً لنحو ٥٥ كتاباً من كتابات المستشرقين عن العرب والإسلام والمسلمين، وأغلبه ينصب على مصر وأحوالها الاجتماعية والسياسية.

■

حروب البترول الصليبية والقرن الأمريكى الجديد

عبد الحى زلوم

بيروت: المؤسسة العربية للنشر، ٢٠٠٥، ٣٩٦ صفحة



بدأت النخبة الأمريكية المتنفذة، التخطيط للهيمنة على العالم ضمن ما عرف بإستراتيجية الإمبراطورية العالمية قبل هجمات سبتمبر/ أيلول بسنوات.. فقد كان احتلال منابع النفط العربية فكرة قديمة لكيسنجر، خاصة نفط العراق لأنه الأقل تكلفة فى الإنتاج على المستوى العالمى.

ويكشف «بريجنسكى» فى كتابه «رقعة الشطرنج العظيمة» كيف أن المؤامرة الأمريكية للسيطرة على العالم تطلبت حدثاً بحجم ما حصل يوم ١١ سبتمبر/ أيلول.

ويشرح هذا الكتاب كيف أعدت الولايات المتحدة الأمريكية إستراتيجيها الإمبريالية الجديدة للسيطرة على المنطقة التى تتحكم فى إمدادات الطاقة العالمية، لأن الإنتاج الأمريكى بدأ رحلة التراجع فى وقت مبكر يعود إلى العام ١٩٧٠ حسب رأى الخبراء الجيولوجيين مثل «كينغ هوبارد».

وفى أواخر السبعينيات تم تشكيل قيادة خاصة للتدخل فى دول الخليج المنتجة للنفط، كما جاءت عقيدة كارتر لعام ١٩٨٠ لتنص على أن نفط الخليج يشكل أهمية إستراتيجية بالنسبة للأمن القومى الأمريكى، وبأن أمريكا ستستخدم كل الوسائل الضرورية، بما فيها القوة العسكرية لضمان مصالحها والإمدادات النفطية من الدول المنتجة للنفط.

من أجل ذلك أوجدت ما يعرف بالقيادة المركزية، وكانت حرب الخليج الأولى الفرصة المواتية لتمكين الولايات المتحدة من السيطرة على النفط، ثم تفريغ خزائن المال فى الدول العربية لتسديد فواتير الحرب وفواتير شراء الأسلحة الأمريكية الفائضة عن حاجة أمريكا والناتو تحت مبرر استمرار التهديدات العراقية الوهمية.

يعرض الكاتب نتائج تقارير وأبحاث لخبراء وقادة سياسيين فى الشئون النفطية، مثل ديك تشينى نائب الرئيس الأمريكى ورئيس مجموعة تطوير السياسة الوطنية للطاقة، تشير إلى أزمة نضوب النفط ودخول الحقول النفطية العالمية مرحلة الذروة فى الإنتاج، وهى الوصول إلى مرحلة يتعذر معها تحقيق أى زيادة فى معدلات الإمدادات النفطية، ويبدأ الهبوط التدريجى فى الإنتاج، فى الوقت الذى يستهلك فيه العالم يوميا حوالى ٢٨ مليون برميل.

وتكمن مشكلة الولايات المتحدة الأمريكية فى تحقيق التوازن بين الإنتاج والطلب المتعاظم على النفط، والاقتصاد الأمريكى الذى يعتمد على عامل النمو، فالقصور فى الإنتاج مقارنة مع الطلب يصل إلى نسبة ١-٥٪ مما يسبب الركود، وإذا ارتفعت النسبة عن هذه المعدلات فستكون النتيجة كارثة عظيمة. وفى هذه المرحلة تحتاج الولايات المتحدة الأمريكية للسيطرة على حركة السوق النفطية فى توزيع الكميات وتحديد الأسعار، وهى سيطرة لا تأتى بدون احتلال فعلى لمنابع النفط. وكان التحرك المفاجئ نحو العراق ـ الذى يملك ١١٢ مليار برميل أى ما يعادل ١١٪ من الاحتياط الإجمالى العالمى من النفط ـ بسبب التقارير الفعلية التى تلقتها أمريكا بعد الحرب الأفغانية حول الاحتياطى الفقير لنفط بحر قزوين.

■

أمريكا والعالم.. متابعات فى السياسة الخارجية الأمريكية

السيد أمين شلبى

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٥، ٣٥٠صفحة





عقب وقوع أحداث سبتمبر ٢٠٠١ مباشرة، كان ثمة اتفاق بين خبراء السياسة والمتابعين على أن عالم ما بعد

كتابان

النظام القوى والدولة الضعيفة إدارة الأزمة المالية والتغيير السياسى فى عهد مبارك

سامر سليمان

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٥

الانهيار الاقتصادى فى عصر مبارك.. حقائق الفساد والبطالة والغلاء والركود والديون

أحمد السيد النجار

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٥

صدر مؤخراً كتابان عن الاقتصاد المصرى فى السنوات الأخيرة لباحثين متخصصين فى الاقتصاد. الكتاب الأول هو تعريب لرسالة الدكتوراة التى قدمها الباحث سامر سليمان لمعهد العلوم السياسية فى باريس لنيل درجة الدكتوراة فى العام الماضى.

ويحاول الكتاب إيجاد تفسير لمعضلة فريدة فى الحالة المصرية وهى كيفية صمود النظام فى ظل أزمة زادت فيها الضرائب والمستقطعات من جهة وقل فيها ما تمنحه الدولة للشعب فى المقابل من أموال ومنح.

ويبحث الكتاب سبل تكيف النظام السياسى فى مصر مع تناقص الموارد بينما يرى أنه فشل فى أولويته المعلنة وهى قيادة تنمية اقتصادية رأسمالية.

ويبدأ الكتاب بعرض لتذبذب المصادر المالية للدولة خلال حكم مبارك وهو ما دعاه لتغير خطابه الاقتصادى. فبينما وعد مبارك فى بداية حكمه بزيادة دور الدولة الرسمى من الناحية الاقتصادية فإن انخفاض الموارد جعل من الضرورى تقليص دور الدولة على عكس ما كان سائدا فى الخطاب الرسمى.

كما يتناول الكتاب المشاكل الناتجة عن توجه القدر الأكبر من الإنفاق على الاستقرار الأمنى بسبب تنامى نشاط الإسلاميين فيما كان ضخ الموارد لقطاعات أخرى مهمة أيضا أقل أو متأخراً أكثر.

كما يظهر سوء التوزيع أيضاً فى الفرق بين الإنفاق على الهيئات المركزية والإنفاق على المراكز المحلية.

وصل الكتاب فى النهاية لطرح فكرة فشل الدولة ونجاح النظام. حيث إن الدولة فشلت فى تحقيق التنمية الرأسمالية التى كانت أهم أولوياتها ومع ذلك استطاع النظام أن يستمر بقوة فى مكانه.

أما الكتاب الثانى والأحدث بعنوان الانهيار الاقتصادى فى عصر مبارك، فقد صدر بعد الاستفتاء على المادة ٧٦ من الدستور المصرى، وفى خضم الحملة الانتخابية للرئيس مبارك.

ويهدف الكتاب للرد على البنود الاقتصادية فى برنامج الرئيس الانتخابى حيث يرى الكاتب أن الأداء الاقتصادى والسياسى للنظام هو المسبب الرئيسى لمعدلات البطالة وارتفاع الأسعار وتزايد الديون الخارجية والداخلية.

ويحدد الكاتب أشكال التدهور فى الصادرات المصرية والاستثمارات الأجنبية فى مصر والضعف الادخارى وسوء توزيع الناتج المحلى وانهيار القدرة الشرائية للجنيه.

كما يناقش اتفاقيات الكويز وتصدير الغاز لإسرائيل. كما يبحث الكتاب أشكال الفساد وعلاقتها بالسياسات الاقتصادية للدولة إذ يخصص الكاتب فصلاً بالكامل لبرنامج الخصخصة الذى يرى أنه يشكل ذروة أشكال الفساد فى الدولة.

ويختتم الباحث الكتاب بفصل يستعرض فيه الجانب الاقتصادى لبرنامج الرئيس مبارك الانتخابى ويفند بنوده بالإحالة إلى أداء نظام مبارك فى المجالات المختلفة الواردة فى البرنامج.

ويستعرض الكاتب التباين بين ما تضمنه البرنامج الانتخابى للرئيس من بيانات ومن البيانات الموازية فى الإحصائيات الرسمية لجهات مثل البنك الأهلى ويقارن الأداء الاقتصادى للدولة ومستوى الأجور بدول أخرى من العالم الثالث وبالذات من أفريقيا.

ويجتمع الكتابان على تساؤل حول حقيقة البيانات الاقتصادية التى تصدرها الدولة، ففى حين يرى النجار أن هناك تزويراً صريحاً فى هذه البيانات وخاصة ما يتعلق بالبطالة يرى سليمان أنه لا مبرر لوجود بنود محذوفة من الموازنة العامة للدولة.

ويشير إلى أن أى تقييم حقيقى لأداء الدولة الاقتصادى من خلال الموازنة ناقص فى غياب هذه البنود التى لا يقدم النظام مبرراً لحذفها.

■

سبتمبر سيختلف حتماً عما قبلها، وقد أثبت تتابع الأحداث منذ هذه اللحظة وحتى اليوم صدق هذا التوقع.

المؤلف يرصد السياسة الخارجية الأمريكية فى السنوات الخمس الأخيرة وتعاطيها مع قضايا العالم ومشكلاته. وقد شهدت هذه السنوات ولاية إدارة جمهورية جديدة تتبنى مفاهيم واستراتيجيات مثلت تحولاً لما استقرت عليه ومارسته إدارات أمريكية متعاقبة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وتجاهلت أمريكا بوصفها قوة واحدة وحيدة الاتفاقات والقوانين الدولية، واستخفت بالمنظمات الدولية وتحدت قراراتها.

وشاعت مفاهيم من نوع الهيمنة الأمريكية بديلاً عن التعاون الدولى حتى مع الحلفاء، وبدأت الإدارة الجديدة خطة واسعة لما أسمته نشر الديمقراطية فى العالم، وصارت محاربة الإرهاب هى جوهر السياسة الخارجية الأمريكية وقمة أولوياتها.

وبسبب الرغبة فى تعميم هذا المفهوم شنت الولايات المتحدة حربين فى أفغانستان والعراق، ومازالت تواصل فرض سياسات الهيمنة فى مواقع عديدة من العالم.

■

وجـــود القــــائد

منى خويص

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٥



يتضمن الكتاب ثمانية فصول يعالج فيها المؤلف السمات التى تحدد أنماط القادة ومؤهلاتهم والاستراتيجيات التى تتخذها الشخصية الكاريزمية، والسمات الذهنية والنفسية للكاريزما بصورة عامة ولبعض القادة المعروفين فى العصر الحديث، والمواصفات الرئيسية فى بناء القوة والسلوك القيادى..

وركز المؤلف على تشريح الخريطة النفسية لصاحب الكاريزما وإماطة اللثام عن حقائق كثيرة ترتبط بسلوكه القيادى والسياسى وحتى العسكرى، وهذا لا يلغى عوامل الثقافة السياسية التى تتدخل سلباً وإيجاباً فى تشكيل شخصية القائد.

غير ان الأسلوب الذى تتم فيه عملية تلقيه هذه الثقافة، يظل محكوماً بـ «موروثات نفسية» تتدخل بدورها أثناء استيعابه المعرفة والحقيقة.

وفى تحديده لأنماط القيادة يستخدم المؤلف رأى عالم النفس الاجتماعى «أدلر» الذى يقول ان الفرد مسكون بعقدة نقص فطرية يسعى إلى سدها أو تجاوزها من خلال التسلط على الآخرين، باعتبار ان السلطة حافز يدفع الفرد نحو تأثيره على الآخرين.

وفى المقابل يلجأ آخرون إلى طرق دفاع مختلفة تتجلى فى البحث عن الحماية أو التعلق بشخص آخر أو الحاجة إلى التذلل والخضوع لتجنب الألم.

وعلى رغم التناقض بينهما، نجد حاجة كل نمط منهم إلى الآخر، وبتعبير آخر تكون علاقة تبادل حاجات واشباعات. ينطبق هذا الرأى مع مقولة «جوستاف لوبون» فى كتابه المعروف «سيكولوجية الجماهير» وهى ان الجماهير فى حاجة إلى من يقودها ويحميها لأنها عبارة عن قطيع لا يستطيع الاستغناء عن راع يقوده.

وهذا يعنى ان الجماهير لا تفكر عقلانيا، وهى معرضة للتأثير العميق، ومن يعرف إيهامهم يصبح سيداً عليهم.

فالجمهور «غالباً ما يكون من دون ذاكرة» ولكن عندما يفقد القائد قوته، يدخل فى خانة الضعفاء، بعد ان كانت تعتبره البطل الملهم والقائد الضرورة.

■

دوريـــات

الحياة التشكيلية

دمشق: وزارة الثقافة السورية، ٢٠٠٥



عن الفلسفة وتنظير جمالية ما بعد الحداثة يكتب عفيف بهنسى دراسة يتابع فيها نظريات ومفاهيم الجمال عند عدد من الفلاسفة مثل كانط وهيجل وجارودى، وكيف لهذه المفاهيم أن تفسر جماليات التشكيل لما بعد الحداثة التى يباعد بينها وبين هذه التنظيرات عشرات العقود.

فى العدد أيضًا دراسة عن الطوابع البريدية كتبها عبد اللطيف سلمان، يتابع فيها رحلة الطابع البريدى تاريخياً وتطوره الجمالى والطباعى ومغزاه الثقافى؛ ودراسة عن فنان سورى: عبد القادر عزوز وأخرى عن اللبنانى عارف الريس الذى رحل هذا العام، وكذلك مقال يجمع بين الإسبانى خوان ميرو والأمريكى كالدير.

■

المستقبل العربى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، سبتمبر ٢٠٠٥



تتصدر العدد افتتاحية بعنوان: «لتكن صفحة جديدة فى تاريخ موريتانيا»، يليها نص مقابلة بعنوان: «خير الدين حسيب للجزيرة: العمل الوحدوى الرسمى غائب».

وفى العدد حوار مع السيد ياسين بعنوان: «من أجل تحليل ثقافى لظواهر العالم المعاصر» أجراه عبد الله بلقزيز، و«سياسة فرنسا الخارجية بين الولايات المتحدة والوطن العربى» لإريك رولو، و«مستقبل العلاقات السودانية ـ الأمريكية بعد اتفاقية السلام» لعبده مختار موسى..

ويحتوى باب «كتب وقراءات» على مراجعة لكتاب النظم السياسية العربية: الاتجاهات الحديثة فى دراستها (حسنين توفيق إبراهيم)، وأخرى لكتاب عصارة العمر (سليم الحص).

■

المحيط الثقافى

القاهرة: وزارة الثقافة، سبتمبر ٢٠٠٥



الإرهاب والعولمة هو الملف الرئيسى لهذا العدد، يكتب فيه كتاب من اتجاهات مختلفة وفى محاور عديدة.حيث يكتب عبدالقادر شهيب تحت عنوان القضاء على الإرهاب ويكتب سعد هجرس «مسئولون عن استنساخ وحش الإرهاب»، ويكتب أبو العلا ماضى عن العنف وكيفية علاجه فى الحالة المصرية الراهنة ود. عاطف العراقى تحت عنوان «الإرهاب الوباء الأسود القاتل».

يتضمن العدد أيضا حوارا مطولا مع الناقد المفكر محمود أمين العالم يتضمن آراءه فى قضايا ومشكلات معاصرة. إلى ذلك يتضمن العدد متابعات لأحداث ثقافية، وكتابات نقدية فى التشكيل والسينما والمسرح، فضلا عن متابعات نقدية أدبية ونصوص إبداعية شعرية وقصصية.

■

العـــــربى

الكويت: وزارة الإعلام، أكتوبر ٢٠٠٥

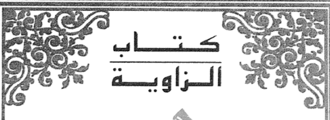


حديث يخصصه الدكتور سليمان العسكرى لمدينة القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين بمناسبة الشهر الكريم حيث يكتب تحت عنوان «القدس مملكة الضمير» متذكرا مكانة القدس فى أفئدة العرب والمسلمين على وجه العموم.

وبعد عشر سنوات من انقطاعه عن الكتابة لمجلة العربى يعود الدكتور يحيى الجمل للكتابة تحت عنوان «اكتئاب الصفوة»، ويكتب مسعود ضاهر عن الصين وتأثيرها فى الاقتصاد العالمى ونفوذها فى منطقة آسيا تحت عنوان «الصين القلقة تحذر اليابان»، وتجرى ولاء فتحى حوارا مع الأديب البرازيلى باولو كولهو يتحدث فيه عن قضايا أدبية معاصرة مازجا إياها بمسيرته الروائية.

استطلاع شهر يكتبه إبراهيم المليفى تحت عنوان «البوسنة والهرسك نار تحت الرماد».

■



كتاب الزاوية



ديوان الطرب

سيد درويش

نشيد مصر القومى

مصرنا وطنا سعدها أملنا كلنا جميعًا للوطن ضحية
أجمعت قلوبنا هلالنا وصليبنا أن تعيش مصر عيشة هنية

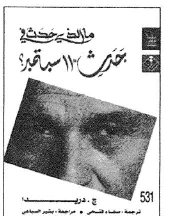
عزك حياتنا   ذلك مماتنا
يا مصر بعدك   مالناش سعادة
لولا اعتقادنا   بوجود إلهنا
كنا عبدنا   النيل عبادة
حبك كفاية   مالوش نهاية
كله مزايا   من فضل ربى
مهما قاسينا   مفروض علينا
موت المجاهد   من غير ذنب
روحنا فداكى   مالناش سواكى
ربك معاكى   فى كل ساعة
وباتحادنا   نبلغ مرادنا
ويد الله   مع الجماعة
إحنا غايتنا   نرفع رايتنا
أحرار خلقنا   نأبى المذلة
يا عيشنا سعدا   يا متنا شهدا
لنحيا أمه   مستقلة

ألف سيد درويش هذا النص ولحنه لاستقبال الزعيم (سعد زغلول) عند عودته من المنفى





١١ سبتمبر.. تفكيك الخطاب السائد



ما الذى حدث فى «حدث ١١ سبتمبر؟»
تأليف / جاك دريدا
ترجمة / صفاء فتحى
مراجعة / بشير السباعى
الناشر /المشروع القومى للترجمة بالقاهرة

يعد الفيلسوف جاك دريدا المولود فى ضاحية البيار بالعاصمة الجزائرية فى الخامس عشر من يوليو عام ١٩٣٠ واحدا من هؤلاء المفكرين الكبار الذين شكلوا طليعة الفكر الغربى فى النصف الثانى من القرن العشرين والذى ارتبط اسمه بفلسفة «التفكيك» المناوئ للخطاب الفلسفى المعاصر، ومؤسس البرلمان الدولى للكتاب عام ١٩٩٣ م.

وصاحب العديد من المؤلفات الفلسفية الهامة، نذكر منها كتاب الرأس الآخر، وأطياف ماركس، والإيمان والمعرفة، والكتابة والاختلاف والجراماتولوجيا، والصوت والظاهر.

يأتى هذا الكتاب - ما الذى حدث فى الحادى عشر من سبتمبر؟ والذى نقلته إلى العربية الكاتبة والشاعرة صفاء فتحى، والصادر مؤخرا عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ضمن سلسلة المشروع القومى للترجمة كمحاولة جادة للإجابة عن أسئلة بالغة الأهمية ترتبط بتلك الأحداث التى وقعت فى الولايات المتحدة الأمريكية يوم الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م.

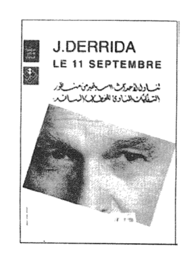
عندما وقعت أحداث الحادى عشر من سبتمبر فى الولايات المتحدة الأمريكية كان جاك دريدا فى شنغهاى فى نهاية رحلة طويلة إلى الصين، حيث أخطره صاحب المقهى الذى كان فيه مع عدد من الأصدقاء «بارتطام» طائرة بالبرجين التوأم لذا عاد مسرعا إلى الفندق وشاهد وقائع الحدث على تليفزيون CNN

يطرح علينا جاك دريدا هذا السؤال «هل لنا أن نسمى الحادى عشر من سبتمبر «الحدث العظيم» ، Major Event ، فمع أن كلمة عظيم تشير إلى العلو والارتفاع إلا أن التقييم هنا لا يمكن أن يكون كميا بحتا حتى ولو كان المقصود بذلك هو أبعاد الأبراج، أو الأراضى التى شن عليها الهجوم أو حتى إذا كان المقصود بذلك هو أعداد الضحايا.

إن ما سيظل مريعا فى « ١١ سبتمبر» وما سيحيا «دون نهاية » فى هذا الجرح هو أننا لا نعرف ما هو، ولا نستطيع وصفه ولا تحديده ولا حتى خلع اسم معين عليه. ويقول جاك دريدا أن ما حدث هو أى شىء باستثناء كونه شيئا مجردا وفكريا وأن أفق عدم المعرفة به هذا أو غياب أفق المعرفة، أى عدم القدرة على استيعابه ومعرفته وعدم القدرة على التعرف عليه وتحديده وعدم القدرة على تسميته ووصفه والتنبؤ به يحتم على أن أتبحر أكثر فى الحديث عنه، أن أتحدث عنه تحديدا بطريقة ملموسة أكثر وذلك من خلال ثلاث مراحل وهى كالتالى:

١ . أول مرحلة، أول حالة من حالات الحصانة الذاتية. ردود الأفعال والتأملات، الحرب الباردة ما تزال ماثلة فى الأذهان. فالعالم بأسره وليس فقط الولايات المتحدة الأمريكية ينتابه شعور غامض بأن شيئا ما سابقا له فى تاريخ الولايات المتحدة ، فهو أول انتهاك للأراضى القومية الأمريكية منذ ما يناهز القرنين، أو على الأقل تلك هى فحوى الاستيهام السائد باستمرار ، ولكنه يبدو وكأنه اختراق من نوع جديد.

ما هى طبيعة هذا النوع؟ قبل أن أجيب على هذا السؤال، أود التذكير ببعض الحقائق الدامغة، هذا الاختراق ينتهك أراضى دولة تقلد نفسها إضمارا دور السيد بين الدول ذات السيادة وذلك حتى من وجهة نظر أعدائها وبالذات منذ ما يسمى بـ «نهاية الحرب الباردة » وهذا الدور المفترض فيه مبدئيا أن يحافظ فى النهاية على رصيد الثقة بشكل عام، على الرصيد بمعنى المعاملات المالية وبمعنى رصيد الثقة التى تضعها فى اللغة وفى القوانين وفى المعاملات السياسية والدبلوماسية. ورصيد الثقة هذا الذى يشعر العالم بالحاجة إليه، حتى من قبل أولئك الذين يسعون إلى تدميره، تمتلكه الولايات المتحدة، وتعبر عنه ليس فقط بسبب غناها ونفوذها التقنى والعلمى والعسكرى ولكن أيضا وفى نفس الوقت بسبب الدور الذى تلعبه كحكم فى كافة المنازعات وبسبب حضورها المهيمن فى مجلس الأمن والكثير من المؤسسات الدولية الأخرى. وذلك على الرغم من أنها لا تحترم وبشكل لا تعاقب عليه، لا روح ولا حرف قرارات هذه المؤسسات، ولكن ما يبقى هو أن الولايات المتحدة تستطيع أن تجعل العالم يصدق على هذا التقييم المتسق لنفسها والذى يتيح لها تمثيل هذه الوحدة المزعومة للقوة والقانون معا، كما يتيح لها تمثيل القوة العظمى للقانون وخطابه.



وهنا أول أعراض الحصانة الذاتية الانتحارية:- فالأرض، أى الشكل الحرفى لأساس أو لتأسيس من يمثل « قوة القانون» تجد نفسها معرضة للاعتداء، أى أنها تصبح موضوعا لاعتداء أى أنها أيضا تصبح شيئا معرضا بالضبط للعنف «الدائرى» أمام كاميراتها الخاصة وفى مصلحتها، يأتى إليها من داخلها من قبل تلك القوى التى تبدو وكأنها لا تحوز قوة خاصة بها ولكنها تجد الوسيلة وعن طريق التحايل ومع تطبيق المعرفة التكنولوجية المتطورة التى تمكنها من الاستيلاء على سلاح أمريكى فى مدينة أمريكية وعلى أرض أمريكية.

٢- المرحلة الثانية والنوع الثانى من الحصانة الذاتية، ردود أفعال وتأملات، ما هو أسوأ من الحرب الباردة.

يتعلق الأمر بصدمة وبالتالى فهو يتعلق بالحدث الذى لا تنبثق آنيته من الحاضر القادم والذى لا يمكن تمثيله بعد Im-presentable فالسلاح الذى يجرح يخلف ندبة فى اللاوعى تظل مفتوحة إلى الأبد، لكن ما يخيف فى هذا السلاح هو أنه يأتينا من المستقبل، من مستقبل مجهول تماما لدرجة أنه يتعذر تعريفه والإشارة إليه... تخيلوا لو أننا قلنا للأمريكيين وللعالم بأسره من خلال الأمريكيين إن ما حدث (أى مشهد دمار البرجين المذهل، الموت المسرحى ومع ذلك غير المرئى لآلاف الأشخاص فى ثوان قليلة،الخ) إن ما حدث لتوه رغم أنه يمثل نكبة كبرى وجريمة شنعاء ويشكل مصدرا لآلام لا نهاية لها، إن كل ذلك قد انتهى أخيرا وأننا لن نشهد أبدا حدوث نكبة بمثل هذه الجسامة أو أشد وطأة منها، وفى اعتقادى أننا كنا سنفرغ من الحزن والحداد فى وقت غير طويل، وشاكين كنا أم فرحين كانت الأمور ستعود إلى نصابها الطبيعى ومجراها المعتاد.

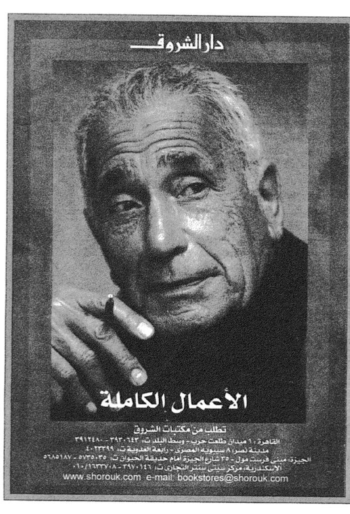
٣- المرحلة الثالثة:- ثالث حالة من حالات الحصانة الذاتية ردود أفعال وتأملات، الحلقة المفرغة للقمع.

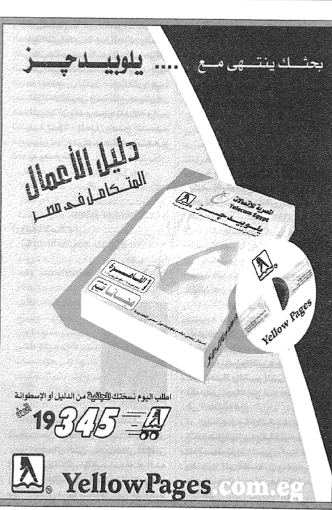
لا تستطيع الجزم بان الإنسانية لا حيلة لها أمام هذا الخطر الداهم ولكن يجب علينا أن نعلم أن الوسائل المستخدمة فى الدفاع ضده، بما فيها جميع أشكال الحرب التى تتدرج تحت ما تسميه بهاتين الكلمتين المريبتين War on terrorism أى الحرب على الإرهاب، تعمل جميعا على إحباط أسباب الخطر التى تزعم القضاء علينا وذلك فى المديين القصير والطويل معا وسواء تعلق الأمر بالعراق أو بأفغانستان أو حتى فلسطين لن يصبح «القصف الجوى ذكيا» بالدرجة التى قد تتيح له منع الضحايا «مدنيين كانوا أو عسكريين حيث لم يعد أيضا هذا التمييز جديرا بالثقة » من الرد بأنفسهم أو بتخويل حق الرد إلى آخرين من خلال ما يقدمونه بدورهم على أنه انتقام مشروع أو بالإرهاب المضاد وهكذا الى ما لا نهاية.

وعندما سألت الصحفية جيوفانا بوراد درى جاك دريدا حول « كيف كان لـ ١١ سبتمبر، أن يكون دون أجهزه التليفزيون؟ أجاب بقوله، انه يجب التذكير بأن التعبئة الإعلامية القصوى حول ١١ سبتمبر كانت من المصلحة المشتركة لكل من قاموا بتنظيم العملية أى «الإرهابيين، وكل أولئك الذين صمموا على إعلان الحرب على الإرهابيين، باسم الضحايا. فقد كانت المصلحة مشتركة أفضل ما تكون عليه المشاركة بين الطرفين كما لو أنها كانت تشبه الفطرة «bon sens» التى يتحدث عنها ديكارت. فبأكثر من كونه تدميرا للبرجين أو مهاجمة للبنتاجون أو بأكثر من كونه قتلا للآلاف من الأشخاص، لم يقع الإرهاب الحقيقى إلا منذ اللحظة التى بدأ فيها عرض واستغلال أو إتاحة عرض واستغلال الصور التليفزيونية من قبل من كان هو الهدف نفسه. ولنقل أن الهدف كان يتمثل فى الولايات المتحدة أو كل من يتحد بها أو يتحالف معها فى العالم، وأعدادهم لا تحصى تقريبا».

هذا الهدف»المتمثل فى كل هؤلاء، كان له مصلحة فى أن يستعرض ضعفه وأن يثير أكبر ضجة ممكنة حول الاعتداء الذى يحاول الاحتماء منه «وهى نفس المصلحة التى يتقاسمها مع عدوه اللدود». دائما نفس الانحراف الناتج عن الحصانة الذاتية. أو بشكل أصح يجب أن أقول «قابليتها للانحراف» وذلك لأجل إضفاء طابع الإمكانية عليها. أى أنها إمكانية تحتوى على خطورة ضمنيه معينه أو تحتوى على تحديد ضمنى معين بدلا من الحديث عن انحراف يتخذ شكل النوايا السيئة أو شكل الرياح المحبة للشر أو الرغبة فيه ولكن هذه الضمنيه ومهما كانت تكفى لان نشعر بالرعب الشديد أو بمعنى أصح،لكى نشعر بالارهاب. وهذه هى جذور الرعب التى لا تقبل الانتزاع ومن ثم جذور الارهاب أيضا التى لا تقبل الانتزاع وهو أمر حتمى ولن ينتهى أبدا.

محمد صلاح غازى





The Theocrat
(الحاكم الدينى)

Bensalem Himmich
American University in Cairo Press, 224PP., $ 22.50, 2005



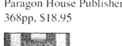
اختار بن سالم حميش واحداً من أكثر رموز التاريخ العربي والإسلامي إثارة للجدل وإرباكا للفهم وهو الحاكم بأمر الله مادة لروايته «الحاكم الدينى».

والحاكم بأمر الله هو الخليفة الفاطمي الذى حكم مصر فى القرن العاشر والذى كانت فترته انعكاسا معبراً لكل من التوتر الداخلى بين أمصار العالم الاسلامى ككل والصراعات الداخلية فى عقل الحاكم بأمر الله نفسه. حميش الذى يمسك فى هذه الرواية الرائعة بخيوط هذا التوتر والصراعات المتحكمة فيه وعواقبها التراجيدية على هذا الحاكم الفرد وشعبه، يقدم أسلوبا ونصاً متنوعاً وغنياً بالنقل عن أشهر مؤرخى العصور العربية الوسطى فى سرد تاريخى حى ونابض لمجموعة من «الفرمانات» غير العادية التى أصدرها هذا الحاكم وكلماته التى كان يتفوه بها أثناء الرؤى وحالات التجلى التى كانت تصيبه والتى سجلها أتباعه المخلصون لتكون أساساً فكرياً فيما بعد لطائفة الدروز. واستطاع حميش فى هذه الرواية أن يقدم صورة شفافة وغير تقليدية لهؤلاء الذين وجدوا أنفسهم مجبرين إما على مداهنته وتملقه أو تحديه ومعارضته.

■

The Vision of Islam
(رؤية الإسلام)

Sachiko Murata and William C. Chittick
Paragon House Publishers, 368pp, $18.95





من المعتاد أن تركز الكتب التى تتحدث عن الإسلام أو الديانات الأخرى على الأفعال التى يجب على المؤمن الاتيان بها لإثبات إيمانه أمام الله والآخرين المؤمنين بنفس ديانته. وعلى هذا الأساس فإنها تتجاهل إلى حد بعيد الأسس الفكرية والروحانية للديانات. على العكس من ذلك أتى كتاب «رؤية الإسلام» ليركز بالأكثر على تلك الجوانب مثل العقيدة الأساسية والفروض والتعاليم الأخلاقية. يقدم الكاتبان مرجعاً أساسياً للقارئ يتضمن مواضيع عن الطبيعة الإلهية والوحى والصلاة والحياة الداخلية والروحانيات والالتزام. وهو ليس كتاباً للقراءة العابرة ولكنه مرجع من النوع الواجب وجوده فى المكتبات العامة والمتخصصة. إنه مفيد بشكل أساسى لأى باحث جاد فى العقيدة الإسلامية وقد كان بالفعل مرجعا للعديد من الكتب التى تحدثت عن الإسلام والمواضيع المحيطة به مثل الصوفية. لقد قضى المؤلفان عشر سنوات فى دراسة الإسلام وجاءت نتيجة الكتاب تشرح الإسلام كما يراه المسلم وليس نظرة خارجية لديانة غريبة.

■

Palestinians Born In Exile Diaspora and the Search for a Homeland
(فلسطينيون ولدوا فى المنفى.. الشتات والبحث عن وطن)

Julian Hammer
AUC Press, 298PP., $26.50, 2005



كتاب يعد الأول من نوعه الذى يقدم دراسة عميقة للعائدين الفلسطينيين وكيف تكيفوا مع فلسطين التى وجدوها بعد تجربتهم فى المنفى. ففى العقد الذى تلى اتفاق أوسلو فى ١٩٩٣ عاد أكثر من ١٠٠ ألف فلسطينى كانوا فى الشتات إلى الضفة الغربية وغزة، ومن بينهم أطفال وشباب ولدوا فى المنفى وتكون إحساسهم بهوية فلسطين ليس بالتجربة المعاشة ولكن عن طريق الخبرات والذكريات المنقولة إليهم من صور وحوادث تاريخية. ونتيجة لهذا شكلت العودة إلى الوطن، الذى لم يكن أبدا وطنا بالنسبة لهم، تحديات عدة وإحباطات شعر بها صغار الفلسطينيين والذين وجدوا أن طريقتهم فى الحياة والقيم التى نشأوا عليها تتعارض أحيانا مع قيم جيرانهم الجدد فى الضفة وغزة.

ويقدم هذا الكتاب تسجيلاً اثنوجرافيا بديعا لتجربة هؤلاء الفلسطينيين الذين ولدوا فى المنفى وهاجروا إلى فلسطين وطنهم الأصلى. وتجرى جوليان هامر مقابلات مع صغار البالغين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و٣٥ عاما لمعرفة كيف تأثرت هويتهم الفلسطينية بالحياة فى دول عربية أخرى أو الولايات المتحدة التى انتقلوا بعدها للحياة فى الضفة. وكانت ردودهم تؤكد على أن خبرة الحياة فى الخارج أصبحت جزءاً من الشخصية الفلسطينية القومية لأنهم كفلسطينيين كانوا يحتفظون دائما بذلك الإحساس بأنهم ينتمون إلى مكان آخر. وتقدم هذه الشهادات التى يتم تسجيلها لأول مرة لقطات كاشفة وموحية لجيل كامل من الفلسطينيين الذين سوف يقررون مصير الشعب الفلسطينى.

تعمل جوليان هامر أستاذا مساعداً للدراسات الدينية فى جامعة ايلون بنورث كارولينا.

■

The Woman Of the Flask
(امرأة القارورة)

Selim Matar
American University Press, 180PP., $22.50, 2005



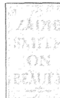
رواية تحكى قصة عراقيين فى المنفى يصلان إلى سويسرا هربا من عراق صدام. أحدهما هو آدم الذى يصطحب معه من العراق قارورة قديمة عثر عليها فى متعلقات والده الراحل فى أراضى جنوب العراق. ويفتح آدم القارورة لتنقلب حياته رأسا على عقب عندما تخرج منها امرأة شابة ساحرة الجمال كانت حبيبة أحد أجداده منذ خمسة آلاف عام. يقوم مطر فى الرواية بالتضفير بين حكايات أبطاله ما بين هذه المعشوقة الساحرة وذكرياتها عن أجداد آدم وبين تفاصيل حياته اليومية وحياة زميله فى المنفى مع زوجته السويسرية، وعلاقة آدم العاطفية مع امرأة القارورة التى سئمت هذا الخلود المفروض عليها للأبد.

الرواية تسلب لب القارئ فى سرد مدهش لا يمكن مقاومته وهى تتنقل بين عالمين متوازيين الأول يواجه فيه آدم الواقع الأوروبى البيروقراطى الجامد والثانى يفر فيه إلى عالمه السحرى فى أجواء من الفانتازيا والخيال. «امرأة القارورة» رواية آسرة عن تعقيدات هذا العالم التى تحاصر عراقيى اليوم والذين يملكون وراءهم تاريخاً فريداً وماضياً كئيباً ومستقبلاً غائماً لكنه ملىء بالتحديات.

■

On Beauty
(عن الجمال)

Zadie Smith
Penguin Press, 464pp, $25.95



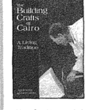
صدرت فى سبتمبر الماضى رواية زادى سميث الأخيرة «عن الجمال» وقد أصبحت زادى سميث فى فترة قصيرة جداً من أهم الكاتبات الإنجليزيات وهى لا تمثل فقط الجيل الجديد من الكتاب فى بلدها بل إنها تمثل إحدى أهم الظواهر فى عالم الأدب الإنجليزى اليوم وهى ظاهرة الكتاب الإنجليز التى تأتى أصولهم من المستعمرات القديمة. فوالدة زادى سميث من جامايكا. اشتهرت زادى سميث بشكل كبير منذ صدور روايتها الأولى (أسنان بيضاء) التى حصلت على جوائز عديدة والتى تحدثت فيها عن ثلاث عائلات إنجليزية من أصول عرقية مختلفة.

تدور أحداث روايتها الأخيرة فى الولايات المتحدة حيث درست لفترة فى جامعة هارفارد ولكن يبدو أن الحظ والدقة اللذين يلازمانها عادة هذه المرة قد خاناها حيث علق القراء الأمريكيون على عدم مناسبة لهجة كل شخصية لسنها وخلفيتها الاجتماعية وزمن الأحداث. وكعادة روايات سميث السابقة فإن الشخصيات الروائية تأتى من أصول عرقية مختلفة وتلعب اختلافاتها هذه دورا فى الأحداث. وبرغم الانتقادات التى وجهت للهجة المستخدمة فى حوارات الرواية إلا أنها لا تنتقص من مهارة تصوير الحياة فى الجامعة وحولها ولا من جمال العلاقات المتشابكة والشخصيات الغنية فى الرواية.

■

The Building Crafts of Cairo A living tradition
(حرفة البناء فى القاهرة.. تقليد حى)

Agnieszka Dobrowlska
AUC Press, 128PP., $24.95, 2005



يعود الفضل، بشكل كبير، إلى أعمال ظهرت فى القرن التاسع عشر مثل «وصف مصر» لادوارد ويليام لين و«وصف مصر» الذى وضعه علماء نابليون فى أن يجد

الباحثون المعاصرون فهما دقيقا ورائعا لحياة المصريين العاديين والأسلوب الذى مارسوا به حرفهم وتجارتهم عبر التاريخ.

ومازال العديد من هذه الفنون التقليدية حيًا حتى الآن مثل المعمار وأعمال الرخام والحدادة ونفخ الزجاج والنجارة والاويما وتطعيم الخشب. بيد أن هذه الحرف تواجه فى نفس الوقت خطر الاختفاء السريع.

وكما تعمل التغييرات الاجتماعية والاقتصادية العميقة على إعادة تشكيل وجه مصر، فإن التقاليد العريقة والمهارات النادرة والمفردات والكلمات المرتبطة بهذه الصناعات والأنماط الاجتماعية التى تدور حولها تواجه خطر الاندثار إلى الأبد.

فى أسلوب نثرى مفعم وجهد بحثى دءوب ووضوح وافر ينجح كتاب «حرفة البناء فى القاهرة» فى أن يضع يده على أنماط الحياة هذه والمهددة بالاختفاء والتى تحتاج إلى كثير من الجهد لإنقاذها قبل فوات الأوان. وكانت نتيجة هذا الجهد تسجيلا تشعر من اللحظة الأولى بحميميته فى كتاب سوف يكون جذابًا للباحثين فى هذا المجال وعلى نفس القدر من الجاذبية لمن ينحون نحوهم.

■

Egypt as a Woman: Nationalism, Gender, and Politics

(مصر كامرأة.. القومية، الجندر، والسياسة)

Beth Baron
The American University In Cairo Press, 304PP., $22.5, 2005



عمل تاريخى أصيل يستكشف نفوذ وتأثير قضايا الجندر (النوع) على تشكيل الأمة المصرية من القرن التاسع عشر مرورًا بثورة ١٩١٩ وصولا إلى الأربعينيات. وتقدم مؤلفة هذا الكتاب بث بارون قصصها على مستويين الأول «تحليلى ويتناول اللغة المتعلقة بالنوع وصورة الأمة، والمستوى الثانى يتناول النشاطات السياسية للنساء فى إطار الحركة القومية. وتوضح بارون أنه رغم استبعاد النساء من الممارسات السياسية على نطاق واسع فى الدولة، فإن الصورة المتخيلة للامة ظلت تستخدم المرأة كرمز لها. وتربط بارون بين الوضع المثالى للأسرة والنسوية فى الخطاب القومى من ناحية، مع التحولات فى بيوت النخبة وجهود الناشطات من النساء اللواتى كن يتقن للاستقلال الوطنى من ناحية أخرى.

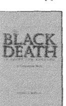
وتعمل بث بارون أستاذا للتاريخ فى «سيتى كوليدج» كما ألفت العديد من الكتب عن الجندر والثقافة فى الشرق الأوسط.

■

The Black Death in Egypt and England A Comparative Study

(الموت الأسود فى مصر وانجلترا.. دراسة مقارنة)

Stuart J. Borsch
American University Press, 2005, 195pp



أنتشر الطاعون فى العالمين العربى والغربى و أثر على هذه المجتمعات بشكل يفوق أى مرض أو ظاهرة طبيعية أخرى. وبالاضافة إلى تأثيره على البلاد فقد كان للطاعون أثر ه على إعادة بناء المجتمعات التى تفشى فيها. فقد شكلت مرحلة تفشى وباء الطاعون خطًا فاصلاً تحدد بعده شكل تطور البلدان التى هاجمها. ومع أن حجم الكارثة البشرية الناتجة عن المرض والتى وصفت بأنها توازى إبادة نووية كان واحدا فى العالمين العربى والغربى، إلا أن التطور التالى لهذه المرحلة اختلف جذريا فى العالمين. فبينما انتشر البحث العلمى والتطور التكنولوجى فى العالم الغربى، سادت مرحلة من التراجع فى العالم العربى على كل المستويات. وقد أرجعت دراسات سابقة عديدة هذا التباين لعوامل الدين ولكن الكاتب فى هذه الدراسة يرجع هذه الظاهرة لأنماط ملكية الأراضى. ولكى يثبت نظريته فهو يبحث فى هذا التأثير على مصر وإنجلترا بالذات بسبب تشابههم كمجتمعات زراعية وصلت لدرجة متطابقة تقريبا من التطور قبل تفشى الطاعون. ويرى الباحث أن الملكية المركزية للأراضى الزراعية فى مصر التى تركزت بشكل أساسى فى يد سكان الحضر جعلت إعادة الإنتاجية فى الريف لمعدلاتها السابقة أو حتى لمعدلات كافية للنمو، أمر شديد الصعوبة. على العكس من ذلك كانت الأراضى الزراعية فى إنجلترا مملوكة بالأكثر لملاك محليين مما ساعد على عودة الناتج إلى سابق عهده بحلول العام ١٥٠٠، يبدل هذا الطرح الجديد من الفكرة السائدة فى السابق حول أن السبب الرئيسى لاختلاف شكل التطور فى هذين المجتمعين يكمن فى الفوارق الثقافية أو الدينية.

■

«ليس كل ما يلمع ذهبا»
الكتب الأكثر مبيعا

Natural Cures "They" Don't Want You To Know About

(علاجات طبيعية لا يريدونك أن تعرف عنها شيئا)

Kevin Trudeau
Alliance Publishing, 2005, 571pp, $29.95



فى أمريكا (بلد البيزنس والبراجماتية .. والفرص) كل شىء ممكن.

كيفين ترودو الكاتب الأمريكى المتخصص فى شئون حماية المستهلك، والذى تحتل كتبه عادة قائمة الكتب الأكثر مبيعا له قصة مثيرة تناقلتها الأخبار ودوائر (الميديا) والنشر الأمريكية.

كان ترودو قد تعرض لملاحقات قانونية فى نهاية السنة الماضية بسبب المعلومات التى ينشرها عن العلاجات البديلة وكانت نتيجة هذه الملاحقات إجباره على دفع تعويض لمفوضية التجارة الأمريكية والامتناع عن أى أعمال دعاية سواء كان هذا الأمر بواسطته شخصيا أو بواسطة أى من شركاته العديدة ومع ذلك فقد ظهر كتاب جديد لترودو يفضح فيه ما يعتبره خطة محكمة تدار من قبل الشركات الكبرى ويتورط فيها كل من هيئة الأغذية والأدوية الأمريكية والمفوضية التجارية الأمريكية. تفاصيل القضية كما يطرحها ترودو فى كتابه هى أن بعض الفيتامينات والمكملات الغذائية التى يمكن للمستهلك شراؤها مباشرة من السوبر ماركت بدون إبراز روشتة طبيب تلعب دورا فى إفساد صحة المواطنين وأصابتهم بأمراض مزمنة فى أوقات لاحقة من حياتهم. ويتهم ترودو بعض الشركات القابضة المنتجة للمكملات الغذائية والتى تسوقها مباشرة للمستهلك، أن لها فروعا أخرى تنتج أدوية تعالج العوارض الصحية المترتبة عن استخدام المكملات الغذائية التى تنتجها الشركات الشقيقة. كما يرى ترودو ان هناك أنواعا من العلاجات الطبيعية التى يمكن أن تحل محل هذه المكملات الغذائية ولكن لشركات الأدوية مصلحة فى أخفاء أية معلومات عن هذه المواد والعلاجات كى لا تتأثر مبيعاتها سواء بشكل مباشر أو بالقضاء على الأمراض المزمنة. ولا تقتصر اقتراحات ترودو لصحة بديلة على العلاجات فقط ولكنها تمتد لتشمل حتى بعض الفلسفات المعينة.

ومن المنتظر أن يتعرض ترودو للملاحقة القانونية مرة أخرى حيث أنه بموجب الاتفاق القانونى الذى أبرمه فى سبتمبر من العام الماضى دفع مبلغ مليونى دولار أمريكى كتعويضات لمفوضية التجارة الأمريكية عن المزاعم التى نشرها عبر برنامجه الدعائى من أن نوعا من الشعب المرجانية يشفى من السرطان. ومن الطريف أن ترودو كان يروج لهذه المادة عبر أقراص مصنعة شبيهة بالنوع الذى يدعو لمقاطعته فى كتابه الجديد. ولم تقتصر عقوبة ترودو على الغرامة المالية ولكنها اليوم ممنوعة بحكم قضائى من الظهور فى أى نوع من البرامج الدعائية التى تروج لأى نوع من المنتجات أو البرامج أو الخدمات الموجهة للجمهور. وأعلنت ليديا بارنز مديرة المفوضية فى ذلك الوقت أن الاتفاق القانونى الذى عقد بين الطرفين يهدف فى الأساس «لإغلاق شركة دعائية أضلت الجمهور الأمريكى لسنوات». وكشف موقع المفوضية أن ترودو كان قد حكم عليه مرتين فى السابق بتهم تتعلق بالنصب عبر بطاقات الائتمان. ولكن هذا الكشف فى حد ذاته يبدو كأنه جزء من حرب المفوضية ضد ترودو. حيث إنه جاء خارج سياق الموضوع المتعلق أساسًا بالتسوية القضائية بينه وبين المفوضية.

وبالرغم من كل ما سبق فإنه فى كتابه الأخير «علاجات طبيعية لا يريدونك أن تعرف شيئا عنها» قد حقق مبيعات عالية وضعته على قائمة النيويورك تايمز لأعلى الكتب مبيعا أى أن المستهلكين على ما يبدو لا يزالون راغبين فى سماع ما يقوله ترودو بخصوص الصحة بشكل عام. وقد تنبأت أمازون ربما من باب الدعاية أن هذا الكتاب الجديد سيعرض الكاتب مرة أخرى للمساءلة القانونية. وتفتح قضية ترودو الباب للبحث عموما فى كتب ومنتجات الصحة البديلة التى تحولت الكثير منها إلى مؤسسات تجارية مثل أتكينز والتى يتم التشكيك حاليا فى آثارها الصحية.

أرقام توزيع كتب ترودو (النصاب حسب القانون الأمريكى) تطرح علامة استفهام كبيرة حول القيمة الحقيقية للكتب «الأكثر مبيعا».

نرمين نزار

هوامش على دفتر المحاكمة

قبل عامين.. وضمن أعراض حمى ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، اعتقلت السلطات الإسبانية تيسير علوني؛ مراسل «الجزيرة» الشهير «متهماً بالاتصال بتنظيم القاعدة..». واعتبر من قرأ أدلة الاتهام وقتها أن الرجل «متهمٌ بممارسة مهنته».. لا أكثر. يومها (خريف ٢٠٠٣) كان ٣٩ صحفياً قد لقوا حتفهم في عام واحد «جراء ممارسة المهنة». اليوم ـ وبعد عامين من التحقيق والمداولات.. والانفجارات ـ صار «المتهمُ بممارسة مهنته» محكوماً عليه بسبع سنواتٍ من السجن زائد الغرامة. وأضيفَ إلى قائمة الضحايا ٩٤ صحافياً. ولم يكن بعيداً أبداً عن الظاهرة، أن في الأسبوع ذاته الذي شهد الحكم على علوني، كادت ميَ شدياق (نتفق أو نختلف معها) أن تلحق بزميلها «في المهنة الخطرة» سمير قصير.

قبل عامين عرف علوني/ الصحافي طريقه إلى السجن. وقبل عامين بالضبط، وبالتحديد في عدد أكتوبر ٢٠٠٣ عرفت هذه القصة طريقها إلى هذه الصفحات.. لا شيء تغير.!



حقاً لا شيء تغير، فعالمُنا مازال يسيرُ للأسف في الطريق المظلم الذي سيق إليه عشية الحادي عشر من سبتمبر، والغبارُ المتصاعد في سماء مانهاتن في ذلك اليوم البعيد مازالت غشاوته ـ للأسف ـ تغشي الأفكارَ والأبصارَ.. والعقول.

رغم الأعوام الأربعة، ورغم كل المظاهرات وبيانات المنظمات الحقوقية، لا شيء تغير. فقط مزيدٌ من الحروب.. ومزيدٌ من المعتقلات.. ومزيدٌ من الضحايا.. ومزيدٌ من القوانين المهددة للحريات. وبالأخص لحرية القول. هل لاحظتم ما جاء في القوانين البريطانية الأخيرة من تجريم «للتحريض.. ولترويج أفكار تؤدي إلى العنف»، وما جاء به الأمريكيون من تجريم «للتحريض على معاداة السامية..»؟!

من يعرف من القانونيين النظمَ القانونية لتلك البلدان يدركُ قطعاً كم هي «خطرةٌ» تلك التعبيرات الفضفاضة في عالم رغمَ «عولمة» أذابت كثيراً من الحدود يبقى حافلاً ـ لابد أن نعترف ـ بالكثير من التباينات الثقافية واللغوية.

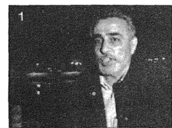


هاهو تيسير علوني يساق إلى السجن مداناً «بممارسة المهنة»، وهانحن...؟ فليقرأ كل منا القوانين الجديدة. ولينظر كل منا فيما كتب. إنها حقاً مهنةٌ خطرة.

قبل عامين بدأت قصة علوني «الأوروبي الجنسية / العربي الأصل» كما كثير من نظرائه مع تداعيات مانهاتن، من سوء الفهم والتوجس والشكوك وصولاً إلى أسوار المعتقلات والسجون.

وقبل عامين بالضبط، عرفت هذه القصة طريقها إلى هذه الصفحات. كأن لا شيء تغير. إذ ها أنا أعيد كتابتها ـ ربما ـ بالكلمات ذاتها ـ اذ يظل لافتاً أن لا الوقائع تغيرت.. ولا الدلالات. فقط التواريخ.! ولهذا ـ في حد ذاته ـ معناه.

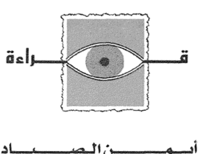
على الهواء مباشرة: مراسل «الجزيرة» تحت القصف الأمريكي في بغداد (أبريل ٢٠٠٣)


1


2


3


4



أيمن الصياد

كان الظلامُ دامساً في هذا المساء الرطب البعيد، عندما كنت وزميلي المصور نتسلل محتمين بأستار الظلمة، وبعشوائية المنطقة الفقيرة، عائدين من زيارة صحفية - هي الأولى وقتها - لمنزل الشيخ عمر عبدالرحمن المتواضع في الفيوم جنوب القاهرة. والذي كان محاصراً ومراقباً من قوات الأمن السرية المصرية. ورغم أنه «عالمٌ ثالث، متهمٌ من الغرب. كلاسيكياً. بتقييد حرية الصحافة والصحافيين. فقد كان «أقصى» ما نخشاه يومها هو أن يكتشفنا أحدهم، فيصادر أفلام التصوير التي كنا أخفيناها في جواربنا وأحذيتنا.

لم يكن الاعتقالُ وارداً، ولا الاتهام بـ«الاتصال بقادة الإرهابيين».

بعد أيام نشرنا التحقيق والحوار والصور.. وكان كل ما حدث أن صودرت المطبوعة. ولكننا (ودون مبالغة أننا عشنا أو نعيش جنة الديمقراطية) عدنا إلى بيوتنا. ونمنا في أسرّتنا. وذهبنا إلى مكاتبنا صباح اليوم التالي نعد لقصة صحفية جديدة. وفي أسوأ الأحوال. وأندرها. نستعد لمصادرة جديدة.. ليس أكثر.

لا أعرف لماذا تذكرت القصة القديمة كلها عندما نقلت وكالات الأنباء قبل أيام من غرناطة الأسبانية الأوروبية (الأندلسية سابقاً) خبر محاكمة تيسير علوني مراسل الجزيرة الشهير الذي انفرد بلقاءات بن لادن المثيرة للجدل. والذي نجا من الموت مرتين تحت القنابل الأمريكية في كابول (نوفمبر ٢٠٠١) وفي بغداد (أبريل ٢٠٠٣). متهماً بالعلاقة مع قادة تنظيم القاعدة وكوادره.

كان الخبر القادم من بلد أوروبي «يقولون أنه تحرر من ربقة الاستبداد الإسلامي قبل قرون»، مباشراً وصادماً ومفاجئاً.. وإن لم يكن للجميع.

قد يكون علوني بريئاً، وقد لا يكون. فلسنا هنا جهة ادعاء أو دفاع أو تحقيق. كما أن هذه الكلمات ليس مقصوداً بها، ولا منتظراً منها أن تكون سطوراً في عريضة اتهام أو مرافعة دفاع أو أوراق تحقيق. ولكن أياً ما كان الأمر. وأياً ما كان منطوق الحكم الذي هو في النهاية «أسباني»، تبقى على هامش تلك «القضية» - المبعثرة الأوراق - ملحوظاتٌ ثابتة.

[١]

حوكم علوني - بالطبع - حسب مواد القانون الأسباني وإجراءاته. والقانون - أي قانون - يأتي في نهاية المطاف ليعكس، أو ليراعي واقعاً ثقافياً معيناً. ولأن الثقافات - بحكم الطبيعة والتاريخ والموروثات - تختلف، بل وتتباين. ولأن الله «خلقكم شعوباً وقبائل..» فإن الباحث في القانون المقارن سيجد - ربما - لكل سلوك إنساني مفترض مادة تُجرِّمُهُ وتعاقب عليه. فما هو مباحٌ هنا مُجرَّمٌ هناك، والعكسُ بالضرورة صحيح.

فتعدد الزوجات - مثلاً - جريمة يعاقب عليها بالسجن في بعض القوانين. كما أن مضغ العلكة قد يؤدي بك إلى الحبس - إن أصررت عليه - في سنغافورة.

ولزمن طويل كنا نعرف - ونمتثل - المثل الدارج الذي يقول: «مادمت في الصين افعل ما يفعله الصينيون»، وعليه فكانت الحكمة تقتضي أن تحترم قوانين البلد الذي تزوره أو تعيش فيه. وكان هذا يكفيك. أما في «الزمن الأمريكي» فكل شيء يختلف. السجن يصير «عولمياً» في جوانتنامو. حيث يحتجز - دون محاكمة - معتقلون من ٤٢ دولة. ولأنه لا توجد محاكمة، فقد تكون - ولو نظرياً - كل جريمة بعضهم أنه «تصادف أن كان هناك».

والقاضي يصير «عولمياً» (فقط إن كان أمريكياً) فنقرأ كيف أن أحدهم لم يستنكف أن يقضي في محكمة «أمريكية» بتغريم الحكومة «الإيرانية» مئات الملايين من الدولارات. لأنها تساند حزب الله «اللبناني» الذي يشجع إعلامه منظمة حماس «الفلسطينية» التي قام أحد أفرادها بعملية في القدس «المحتلة» راح ضحيتها أحد أقرباء العائلة التي رفعت دعوى التعويض. كما لم يتردد زميله في أن يقضي بمصادرة أرصدة منظمة «زكاة» خيرية لأنها تتصدق «من أموال المسلمين على أسر شهداء المسلمين».

هل هي «عولمة» للعدالة والقانون إذن؟ وهل نحن بصدد عالم جديد تتساوى فيه الحقوق والواجبات. ويكون فيه الجميع أمام القانون سواء؟

للأسف لا. إذ يبقى مثيراً لمشاعر عديدة أن أمريكا: رائدة العولمة فكراً وتطبيقاً، عرقلت أي اتجاه لعولمة القانون. ومحاولاتها الفجة لإجهاض المحكمة الجنائية الدولية التي ارتضاها المجتمع العالمي معروفة. كما انها لم تتردد، وهي بمثابة الحاكم الفعلي للعالم الآن، في أن تتخذ كل خطوة ممكنة، لكي يصبح مسؤولوها وعسكريوها معفيين من الملاحقة القانونية لتلك المحكمة مهما ارتكبوا من أفعال.

وللتذكرة فقط، ففي أدبيات المسلمين المتهمين من مثقفي واشنطن بالتحيز والتعصب والعنصرية، ما يناقض قاعدة «إذا سرق شريفهم تركوه. وإذا سرق فقير منهم أقاموا عليه الحد...».

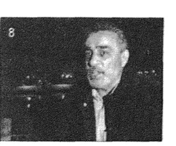
والخلاصة أنه - ومع حفظ الحق في الاختلاف حول تعريف البراءة والإدانة وتكييف الاتهام - وسواء كان تيسير بريئاً فيما نعرف، أو مداناً بما لا نعرف، فعلى الحالين تظل هناك أسئلة مهمة: حول المعايير والقاضي ومفاهيم العولمة القانونية الملتبسة. فما يراه الأسبان، الذين كانوا ثالث ثلاثة خالفوا العالم أجمع بإعلانهم الحرب على العراق في قمة الأزور خروجاً على القانون والشرعية الدولية، ربما يختلف عن مايراه القاضي الشرعي في صنعاء، أو ذلك الذي يرتدي الشعر المستعار في «أولد بيلي».

[٢]

في عالم اليوم.. ربما كان بإمكانك - أو بإمكان غيرك إن أردت - أن تُشَكِّكَ حتى في وجود الله. دون عقاب على الأغلب. لكن أن تتساءل عن الأرقام الحقيقية لضحايا المحرقة (بدون حتى أن تنفي حدوثها أو تتحدث عن أهميتها) فستتعرض غالباً للعقاب في بلاد تتباهى بديموقراطيتها.

أما أن تشكك في - أو تتساءل حول - المسؤول الحقيقي (بالفعل أو المساعدة.. أو الدفع) عن عملية الحادي عشر من سبتمبر، المتقنة كما لم يحدث في التاريخ. والغامضة كما في أفلام هوليوود وأساطير ألف ليلة وليلة، فأنت في أحسن الأحوال مجنون. وستدفع حتماً ثمن جموحك - أو جنوحك - الفكري. أما أن تصل درجة تهورك إلى المقارنة بين مقاومة الفلسطينيين أو





بعض العراقيين للاحتلال، بالمقاومة الأوروبية للاحتلال النازي قبل ستين عاماً، أو أن تحاول أن تضع تعريفاً لما اصطلحوا على تسميته «بالإرهاب» أو أن تبحث عن التوصيف القانوني لما تفعله (الدولة) حين ترسل طائرات الـF16 لتقصف مجمعاً سكنياً من سبعة أدوار في غزة أو كابول أو حي المنصور. فأنت مُدان. وليس فقط متهماً - بالتحريض. بموجب قوانين «عولمية» جديدة. طالت قائمتها. واستعرضت جغرافيتها. وتمططت نصوصها. على غير ما يستوجبه القانون حكماً من دقة (جامعة مانعة) للتعريف والتوصيف.

هو الإرهاب الفكري إذن. والذي يهدد في جوهره أفضل ما أتت به حضارة العرب. وأهم ما تتباهى به حضارة الغرب: «حرية الفكر».

ومع افتراض - مفرط في التفاؤل - بأن اتهام علوني لا يعدو أن يكون اتهاماً لعلوني. فإن الحملة الدعائية لإثبات التهمة والتي تحدثت عن تقارير للموساد والـFBI (يضمها ملف القضية) لابد أن تُذكّر بتصريحات لمسؤولين في وزارة الدفاع الأمريكية هددوا فيها الفضائيات العربية. معتبرين أنها تتحمل مسؤولية دماء الأمريكيين في العراق بتغطيتها الإخبارية التي يراها المسؤولون الأمريكيون «تُحرّض على المقاومة».

يتصور المسؤول الأمريكي إذن أن من حقه - بلا منازع - أن يحدد للإعلام العربي الطريقة التي يعالج بها ما يجري في العراق. وإلا فعليه - أو بنص التصريح - على الدول التي تنتمي إليها تلك الفضائيات أن تتحمل النتيجة(!)

نسمع هذا في بداية القرن الحادي والعشرين. وعلى لسان مسؤول كبير في الدولة «الأكبر» التي تضع على بوابتها تمثالاً «للحرية».

[٣]

ماذا حدث لقيم الغرب التي كنا - كليبراليين - نتغنى بها. وكمشرقيين نحسدهم عليها؟!

في أوراق قضية علوني - سواء كان بريئاً أو مداناً - تفصيلات كثيرة تدفع بالسؤال حتماً إلى الواجهة.

١ - في الملف الضخم (٧١٠ صفحات) ما يشير إلى تسجيلات لجميع محادثاته الهاتفية على مدى أعوام ثلاثة. رغم أنه لم يكن وقتها متهماً. ولا حتى مشتبهاً به. (تُحرّم القوانين وكذا مواثيق حقوق الإنسان التنصت على الهواتف إلا بإذن قضائي، ولمدة محددة ومحدودة، وبناء على تحريات جدية وقرائن قوية).

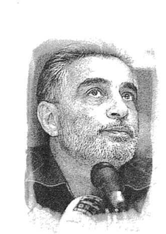
٢ - مطالعة نصوص تسجيلات التنصت (٥٠٠ ساعة)، والتي اعتبرها الادعاء الأسباني دليلاً قوياً، تدعو للأسى لعدم إدراك البُعد الثقافي لمحيط المتهم الاجتماعي. فعلى سبيل المثال يتضمن تسجيل تم يوم ٢٠٠٠/٢/٢١ اتصالاً من تيسير بمواطنه السوري المغترب مثله في أسبانيا «أبوالدحداح» يقول له أنه سيسافر ليعمل مع «الجزيرة» في أفغانستان. وأنه اتصل به ليودعه. ويسأله إذا كان يريد شيئاً من هناك. فيطلب أبوالدحداح أن يبلغ أبوخالد - مواطنهم الثالث الموجود آنذاك في أفغانستان - أنه سيرسل إليه المال في غضون عشرة أيام.

هذه المكالمة - ومثلها كثير - اعتبرها الادعاء الأسباني دليلاً على علاقات علوني بالقاعدة. والواقع الثقافي يقول أن كل عربي جرّب الاغتراب اقترف مثل تلك الجريمة (السؤال عن الأحوال وحمل الأموال والرسائل، بل والحقائب) كثيراً.

٣ - وأسمح لنفسي هنا أن أنقل عن عبدالرحمن الراشد رئيس تحرير السابق «للشرق الأوسط» اللندنية - وليس عن غيره - إذ يعرف الجميع أننا لا يمكن أن نحسبه متحيزا لتيسير علوني أو «الجزيرة».

يقول الراشد: «الاتهام يدعي أن علوني دفع أموالاً لأعضاء في «القاعدة». في نظري إن كان ذلك صحيحاً فهو أمر مبرر ومقبول في الظروف الصعبة التي عمل فيها مراسل «الجزيرة». فالكثير من التقارير والأشرطة لا تُعطى للصحافيين مجاناً، وبعض المؤسسات تغض النظر وتسمح لمراسليها بدفع الأموال لشراء هذه الوثائق. وما خرجت به محطة «الجزيرة» في تلك الفترة يستحق الثمن المدفوع، إن كانت هناك حقاً أموال دُفعت، لأهميته الصحافية. وبالتالي فهي تهمة ظالمة حتى وإن أفادت الأموال «القاعدة» لاحقاً. علوني أيضاً له الحق في مهمته الخطرة حينذاك بالتعامل مع أعضاء «القاعدة» طالما أنه تعامل لم يشمل حمل سلاح أو الإضرار بأحد طرفي الحرب. له الحق في كل الاختلاط الذي قام به مع كبار أعضاء التنظيم في العديد من الدول إذا لم يوجد دليل على عضويته الكاملة. فمهمته تتطلب منه استمرار الاتصال والإبقاء على علاقة حسنة مع مصادره، وإن بدت في نظر محققي الأمن أنها حميمية جداً».

وبعد أن ينبه الراشد إلى أن أخطر تهمة في العالم يمكن أن توجّه لإنسان اليوم هي المشاركة في هجمات ١١ سبتمبر (وهي التهمة الأسبانية الموجهة لتيسير) يقول أن على المحققين الأسبان ألا يتوقعوا من الإعلاميين بغض النظر عن ميولهم، القبول بها دون أدلة دامغة لا



هو الإرهاب الفكري إذن. والذي يهدد في جوهره أفضل ما أتت به حضارة العرب. وأهم ما تتباهى به حضارة الغرب: «حرية الفكر»

مجرد ظرفية، «مثل الاجتماع بأبو الدحداح أو تناول الغداء مع أبوزبيدة أو دفع أموال لابن لادن أو ورود اسمه في دفتر هواتف الزمار».

أين ذهبت قيم الغرب الليبرالية في هذا الزمن الأمريكي؟!

لاشيء هناك غير هيستيريا الإرهاب التي أفرخت ترسانة من قوانين تكميم الأفواه باسم الوطنية والأمن القومي.

قبل فترة طويلة كانت القناة الرابعة في التليفزيون البريطاني تغطي مظاهرة احتجاج أمام معرض للأسلحة أقيم في لندن. حيث لجأت قوات الشرطة إلى العنف في التعامل مع المتظاهرين متذرعة بالمادة ٤٤ من قانون مكافحة الإرهاب. يومها أعلنت منظمة «ليبرتي» عن عزمها مقاضاة الشرطة لتفعيلها تلك المادة في مناسبة كتلك. ويومها طاف مراسل التليفزيون البريطاني أليكس تومسون بالمتظاهرين يسأل كل واحد منهم بنبرة جادة تحمل قدراً من السخرية المفهومة: «هل أنت إرهابي؟!».

حتى لو كان تيسير مُداناً، يظل الصحافيون متهمين بالشبهة، ويظل صحيحاً أنه يُخطيء من يعتقد أن المقصود رأس «الجزيرة» وحدها. ويخطيء من يفصل بين اتهام علوني، واتهام رأينا التلويح به يوما ما استهدف ملاحقة رئيس اتحاد الصحافيين العرب ذاته «رمزاً ربما» بتهمة «التحريض على معاداة السامية».



يطلقون في عاميتنا المصرية تعبير «الحيط المايل» على ما - أو من - تُكال إليه الاتهامات، بحق أو بدونه، فيصبح مرشحاً دائماً لأن يكون كبش فداء. تُغلق صحيفةٌ مصرية ذات يوم - رغم أنف القانون - لأن طلاباً تظاهروا. ويُوجّه إنذار إلى مراسلي الفضائيات في بغداد، لأن مجهولاً أطلق رصاصاً - لا خبراً صحفياً - على عضو بمجلس الحكم الانتقالي، في بلد يُطلق من الرصاص فيه أكثر مما يباع من الخبز. ويُعتقل تيسير علوني لأنه وطّد علاقته مع مصادره المنتمية إلى تنظيم القاعدة. ويُقصف طارق أيوب بصاروخ أمريكي لأنه استمر يزاول عمله رغم كل شيء. ويموت مصور «رويترز» مازن دعنا على باب سجن في بغداد، لأن جندياً أمريكياً متهوراً اعتقد أن عدسة الكاميرا مدفع للمقاومة.. ولعلها - حقيقة - كذلك.

مثير أن تصبح الصحافة مسكينة. وأن يصبح الصحافيون مساكين في عالم يطل عليه من كل ناحية تمثال أمريكي «للحرية». ■



النساجون الشرقيون
Oriental Weavers
fame
The Collection Features Bold Designs & Colours